كتابات

برنامج الإقامة الأدبية | ٢٠٢١

عمر العمودي
صلاح الهبهوب

ريم الفضلي
غسان خالد

ابتسام القاسمي
دعاء الأهدل

المقدمة

منذ بداية الصراع الحالي في اليمن، تراجع التبادل الثقافي للفنانين والكتاب اليمنيين مع العالم الخارجي.
لقد فرض تشديد إجراءات الحصول على التأشيرات، وكذلك الصراع السياسي المستعر، ثم وباء كوفيد مؤخرًا، العديد من القيود على قدرات الفنانين والكُتَّاب في تقديم إنتاجهم، وإمكانية ربطهم بمجتمعات الفنانين في جميع أنحاء العالم.
أنتج الصراع السياسي في داخل البلاد قيودًا مماثلة، وأصبح التنقل بين المواقع الجغرافية المتعادية شبه مستحيل.
في مواجهة هذه الظروف، ما تزال مؤسسة رموز في بحث متواصل عن حلول لفك القيود، وإيجاد سبل لتقديم وإبراز أعمال الكُتَّاب والفنانين اليمنيين.
نقدم لكم في هذا الكتاب الالكتروني، آخر مشاريعنا الأدبية من برنامج كتابات -إقامة كتابات الافتراضية للكُتَّاب اليمنيين الشباب- وهي الإقامة التي استمرت لمدة ثلاثة أشهر، وقدمت فرصة لستة كُتَّاب مقيمين داخل اليمن ما بين صنعاء وعدن، للاشتراك في إنتاج قصص أدبية قصيرة، كما منحتهم الفرصة للحصول على إرشاد مستمر خلال فترة الإقامة من الروائي المعروف وجدي الأهدل.
في هذا المشروع تأملنا بأن إنتاجات هذه الإقامة ستقدم فرصة تجاه شفاء المجتمعات المضطربة، وأن تكون بمثابة نقطة انطلاق لبناء السلام.
التقديم للبرنامج كان مقتصراً فقط على الكُتَّاب الشباب في مدينتيّ صنعاء وعدن، في محاولة لاكتشاف جمال مدينتين كانتا هدفاً للصراعات والمآسي.
اهتمامنا توجه لسد الفجوة التي أحدثها التناحر الحالي (السياسي)، من خلال جلب المشروع كتابًا من مواقع جغرافية مختلفة لتبادل الأفكار، والانخراط في محادثات من وجهات نظر جديدة كلياً، تركز على (الإنسان) أولاً وأخيراً.
تم ترتيب نوافذ الكترونية للحوار، وضمت كل نافذة كاتبين أحدهما من صنعاء والآخر من عدن، وعمل كل كاتب على تأليف قصتين، الأولى عن مدينته الحالية، والأخرى عن المدينة التي يسكن بها الكاتب الآخر.
من خلال النقاش المتواصل والتبادل الفكري الأدبي عبر النوافذ الالكترونية (الواتساب)، شاهدنا كيف اشتغل الكُتَّاب المقيمون في صنعاء على كتابة قصص أدبية عن مدينة عدن، وكيف استعانوا بزملائهم العدنيين لتكوين فكرة نوعية عن مدينة ربما لم تسنح لهم فرصة زيارتها في السابق - مع أنها في البلاد نفسها- وشاهدنا الحال نفسه مع الكُتَّاب من مدينة عدن.
النتيجة أدب يزخر بالأمل والسلام والمشترك الإنساني.
الشكر والعرفان للمرشد الروائي وجدي الاهدل الذي عمل جاهدًا على إبراز موهبة الكُتَّاب من خلال اجتماعات مستمرة فردية مع كل كاتب. جزيل الشكر للكُتَّاب لإتاحة الفرصة لنا بأن نسافر بين المدينتين عبر الأدب اليمني الحديث المكتوب بأقلامهم.
هذه هي المشاريع التي نأمل الاستمرار في العمل عليها، مشاريع تساعد في شفاء المجتمعات المضطربة، وأن تكون وسيلة لبناء السلام في اليمن.

ايبي ابراهيم

وحدة

الساعة تشير إلى الثالثة صباحاً، رأيت التوقيت بمشّقة من الساعة التي أحملها في معصمي، كانت الثالثة تماماً، الهدوء يخيّم على المدينة، لا وجود لأصوات في الشوارع، السيارات توقفت عن المرور والتجوّل، لا أحد يجلس تحت أعمدة الإنارة من شباب الحي، الجميع في منازلهم، حتى الكلاب لا تنبح، ولا يوجد أي اشتباك، أو إطلاق نار لغرض آخر، جميع الوحوش مقيّدة هذه الليلة، بكافة أنواعها، وكأنه ليس بوسع أحد أن يفعل شيئاً، يبدو بأن الجميع أخذ هدنة ليستريح.

أقف على إحدى شرفات مدينة إنماء الجديدة المطلّة على الخط المؤدي إلى جولة كالتكس، بينما يؤدي طرفه الآخر إلى مدينة الشعب ثمّ البريقة، تستلقي أمامي الحسوة كقطة مُرهقة، ومحركاتها لا تموء هذه الليلة. وخلفي تمتد مسافة لا بأس بها نحو البحر الذي يفصل مابين مدينة إنماء، ومدينتيّ المعلا والتواهي.

أقف وحيداً ولا أرى شيئاً، ولا أسمع شيئاً كذلك، حتى الشتائم واللعنات الموجّهة إلى السلطات من شقق العمارة توقّفت، جميع الأنوار مُطفأة في الحي، نظراً لانطفاء التيّار الكهربائي منذ الصباح، بعد نفاد الوقود. مع وجود خبر متداول منذ أسبوعين يقول بأن المنحة النفطية على وشك الوصول. أينما ذهبت إلى مقهى أو مررت في شارع أو توقّفت في أحد الدكاكين لأشتري قارورة ماء مثلجة، أو ركبت حافلة، أو دخلت مسجداً، أسمع بأن المنحة على وشك الوصول، و على وشك هذه، في هذا البلد طويلة جداً، ولا تنتهي، يولد الطفل، ويكبر، ويمر بمرحلة المراهقة، والشباب، ويتزوج، ويصبح أباً، ثم جدّاً، ويتهيأ للرحيل، وهو ما يزال على وشك أن يخوض الحياة.

الرجل الذي كنت أشاهده كل ليلة وهو يتجوّل في مثل هذا الوقت ليفتّش بين أكوام الزبالة لم يمر، والمرأة التي كانت تطرق باب المنزل الذي أمامي وتتناول كيساً وتعود لم أشاهدها، الطفل الذي يبكي من العمارة المجاورة طوال الليل كل ليلة لم أسمعه، العجوز الذي يدخل في نوبات متتالية من السعال في الشقة التي تعتليني لم أسمع له صوتاً، القطة السوداء التي تنام كل ليلة في حاوية القمامة، لم تكن موجودة، كان الجو هادئاً على غير عادته، ومهيئاً لأنام هذه الليلة لكنني لم أنم.

ثمّة أمر غريب يحدث في المدينة، لابد أنه كذلك، لم أشهد هذا الهدوء من قبل، لقد اعتدت على الضجيج دائماً، عندما يكون التيار الكهرباء مشغّلاً، تأخذ أصوات المكيفات الدور، وعندما ينقطع التيار الكهربائي، تقوم المولدات بتأدية الدور جيّداً، بالإضافة إلى الصراخ، والأصوات المتعالية من الشوارع، فقد اعتاد شباب المدينة على الخروج ليلاً، في الساعات التي ينقطع فيها التيار الكهربائي، ويحدثون ضجيجاً مستمراً يشعر الشخص الهادئ الطباع بالسأم منه. ولا مفرّ من الضجيج في هذه المدينة، لا يمكن أن ينعم المرء بدقيقة هادئة، سواء كنت في الحافلة، أو المول، أو المطعم، أو في الكورنيش، ثمّة ضجيج يطغى على المكان، ضجيج أريد أن أسمعه الآن بشدة.

لا أعرف ماذا يحدث، لكنني أتساءل هل هو الهدوء الذي يسبق العاصفة، أم الذي يخلفها؟ لا أعرف، كل ما أعرفه إن هناك أمراً مُريباً وغير اعتيادي يحدث هذه الليلة، يشبه إلى حد بعيد صمت البحر.

عدتُ إلى الغرفة، وجلست على السرير، حتى السرير هذه المرّة لم أره، لكنني أعرف مكانه جيداً، وأعرف كل شبر في هذه الشقة التي أسكنها منذ سنتين، أثناء جلوسي كنت أرغب بإبعاد القطعة الوحيدة من على جسدي، لكن خجلي يمنعني من أن أتعرّى تماماً أمام الفراغ، وأيضاً لا أريد أن أخسر احترامي المتبادل معه، مع أن الحاجة كانت تستدعي التعرّي، المكان مظلم، ولا أحد بجانبي، والرطوبة عالية جداً، حتى أنني أتعجّب كيف استطاع الجميع أن ينام هذه الليلة.

تناولت هاتفي، ضغطت زر التشغيل مطولاً لأجل أن أفتحه، لكن ظلّت الشاشة سوداء مطفأة، لا أعرف هل نفدت البطارية، أم أن هاتفي أيضاً في غياب مثل الجميع! استمر الهاتف في تمنعه، وهذا أمر خطير. فكّرت بتناول كتاب من المكتبة، لكن تذكّرت أنني لا أستطيع القراءة في الظلام وعدلت عن الفكرة. و لطالما أجد عذراً مقنعاً للعزوف عن القراءة في كل مرّة أفكّر فيها بذلك.

جلستُ أفكّر بالاحتمالات الممكن حدوثها، هل هاجر الجميع من المدينة؟ لو قاموا بذلك سيكونون محقّين، ما الجدوى من البقاء في مدينة متعرّقة وتصدر منها رائحة كريهة، لفرط ما كُدّست فيها من جثث.

هل اختفى العالم في لحظة؟ ولذلك اختفى كل شيء من هاتفي، لطالما فكّرت بهذا الأمر، عن إمكانية اختفاء كل شيء من حولي، في أن أستيقظ يوماً وأجد نفسي وحيداً مجرّداً من كل شيء، وعن كيفية مواجهتي لتلك الحادثة، ولا أعلم هل الآن فيها أم أنني أنا من تهت بعيداً عن الجميع.

في تلك الأثناء، وفي تلك الحالة المُريبة من السكون، سمعتُ طرقاً على الباب، كان الصوت مخيفاً، كون العالم من حولي يغرق في صمت تام، والطرق مستمر، لم يتصاعد ولم يتناقص، ثلاث طرقات، ثم صمت لثلاث ثوان، ثمّ ثلاث طرقات أخرى، وهكذا كان يُطرق الباب بالوتيرة نفسها، لم أميّز الطرق على أي باب بعد، فربما قد لا يكون على بابي، كنت أتمتم في نفسي أيضاً بأن هذا الطرق قد لا يكون حقيقياً، وأنّي أتخيل ذلك.

مرّت ست ثوان هذه المرّة، لعلّ الطارق غادر، أو لعلّ الصوت الذي بداخل رأسي توقّف.. لكن سرعان ما سمعتُ الطرق ثانية، وتوقف سريعاً، كانتا طرقتين هذه المرّة. يبدو أنه تراجع خطوة عن قراره. كان الطرق الأخير هادئاً، وكأن الطارق لا يستخدم يده كاملة، وكأنه يطرق الباب بأصبعين، لم أكن متأكداً من كونه مؤدباً أم خجولاً أم عاجزاً. لكنني ازددت تأكداً من أمر واحد، من إنه مصرّ على الدخول.

لقد تيقّنت من كون بابي هو الذي يُطرق بعد الاستماع الدقيق

للطرق، لكن أسئلة كثيرة تدور في ذهني، من تبقّى في هذه المدينة إلى الآن؟ من ما يزال يشاركني الجانب الآخر من العالم؟ ربّما أنّني أتوهّم، وأن العالم ما يزال كما هو كل ليلة، لكن من سيطرق بابي الآن؟ هل هو المؤجّر؟ لقد تركت له مبلغ الإيجار في البقالة التي حدّدها كما جرت العادة، لقد تعتّيت بالذهاب إلى تلك البقالة من أجل الإيجار فقط مع أنني لا أدخلها، ولا أحب، لأنني في كل المرات التي ذهبت إليها كانت مزدحمة، واضطررت للانتظار، وأنا لا أحب الزحام، ولا أحب هذا النوع من الانتظارات. كذلك كانت جميع أوراق العملة سليمة ومتكاملة، لا توجد ورقة واحدة منها مشقوقة، أو مقصوص إحدى أطرافها، مثل المرّة التي أخبرني فيها بأن ورقة ليست كاملة وعلي تغييرها، وتكلّفت بالعودة إلى تلك البقالة قبل أن يأتي هو إلى بابي، وحرصت بعدها على التأكد كل مرة من سلامة الأوراق.

الطارق ليس المؤجر، أنا متأكد من هذا، لكن من يكون؟

لقد قضيت سنتين ساكناً في هذه الشقة ولم يعرف أحد آخر مكانها سوى أربعة أصدقاء. ثلاثة منهم أصبحوا خارج البلد، لقد فعلوا ما هو ملائم لهم، الأول أدّعى أنه مثلي الجنس، من أجل أن يحصل على اللجوء في ألمانيا، هذا ما أخبرني به، كما أخبرني بأنه يعيش حياة مثالية، يتخلّلها القليل من المتاعب، كونه يسكن في حي جميع ساكنيه مثليّين. هم أرادوا أن يوفّروا له بيئة مناسبة، لكن ليتهم لم يفعلوا ذلك، يقول لي بأنه يصادف في اليوم الواحد فقط ما يتعدى ستة أشخاص يتودّدون إليه، مراهقون وشباب وكبار السن، بعضهم يتعدى عمر والده، لكنه أجاد دور المتمنّع، هو لم يكن مثلياً، أعرفه جيّداً، لقد اتخذها حيلة فقط، آخر مرة التقينا كان يحب أربع فتيات، كل فتاة من مدينة مختلفة، وهذا يعكس كم هو مرتب ومنتبه، هذا ما أخبرني به، كما أنه كان متباهياً بأنه مكتف بالأربع فقط. يا لورطته، كنت سأحسده على إقامته في دولة أوربية متقدمة كألمانيا، لولا هذه الجزئية الأخيرة والنمط الصعب من حياته، سأكون تعيساً أكثر من الآن لو اضطررت أن أعيش حياته التي يعيشها في ألمانيا.

و أما الثاني فغادر إلى السودان، يخبرني بأن الحياة لا تختلف كثيراً عن الحياة في اليمن، يقول بأنه ينتظر الكهرباء طويلاً، ويجد أناساً يشبهون الذين يجدهم في اليمن، لم يجد اختلافاً كبيراً، في فترات كثيرة يشعر بأنه لم يغادر بلده، لولا أن لا أحد يسأله إلى أين يذهب وإلى أين يعود، وهذا ما جعله لا يحنّ للعودة. ما أجمل حياته، لقد أحببتها أكثر من صديقي الذي ذهب إلى ألمانيا رغم الفوارق الكبيرة بين البلدين.

وعن الثالث فقد فضّل الذهاب إلى المملكة العربية السعودية، أعرفه جيّداً هو الآخر، نتشابه في صفات كثيرة، كلانا لا يحب الابتعاد كثيراً، كما أنه أيضاً يعاني إذا ما وجد مجتمعا غريباً، ولا يشعر بالألفة، له الكثير من المعارف في المملكة، ولهذا فضّل الذهاب إلى هناك، من أجل العمل، مع إنها كانت رحلة مكلّفة، وأخبرني أنه يدفع ثلثيّ ما يحصده كرسوم لكي يبقى في تلك البلدة التي أحبها أكثر من بلده، كما أخبرني في مرات عديدة بأنه لو اضطر لمغادرة اليمن لن يذهب إلى مكان آخر عدا المملكة. أتفهمه جيّداً، وأعتقد بأنه محق، نظرا لشخصيته ونمط حياته، وربما لو كنت مكانه كنت لأفعل ذلك.

أما الرابع، فهو يسكن في المدينة نفسها التي أسكنها، ولا يأتي إلا حين أستدعيه إذا طرأ أمر ما، كونه سبّاكاً ماهراً. ولم يكن يحصل على وقت فراغ ليأتي إلي، نحن لم نكن أصدقاء بما تعنيه الكلمة، وأعتقد بأنه لا يعرف اسمي حتى، لكنه يناديني «يا صديق»، وأملك رقم هاتفه، وهذا كاف لأضعه في هذه المرتبة. كما أنه أحد الأشخاص القلائل الذين يعرفون مكاني. لكنه لم يكن يطرق الباب بهدوء، هو ليس صديقاً مهذّباً، أعترف بذلك، ولهذا هو لم يفلح بمغادرة هذا البلد.

عندما أستدعيه يأتي بعد مرور ست ساعات على الأقل، هذا إذا لم يأتِ بعد يومين أو ثلاثة. وعندما يطرق باب الشقة كان جميع من في العمارة يعرف بمجيئه من طريقة طرقه. حتى أنني أحياناً أجد البعض منهم بداخل المطبخ يستفسرون عن إمكانية مروره لشققهم بعد أن ينتهي من عمله في شقّتي، كون هناك أعمالاً تنتظره. هذا إذا لم يكن العمل في مكان آخر أكثر خصوصية من المطبخ، كالحمّام مثلاً، حينها يلتزمون البقاء في الصالة. كونهم أشخاص ودودون ومهذبّون.

عاد الطرق ثالثة ليقطعني عن التخمين، هذه المرّة لم يكن هادئاً، لكنه أيضاً لم يكن عنيفاً، لا أعرف ما يمرُّ به الطارق، ولا أفهم إصراره على أن أفتح له، أحسست بنبرة غاضبة من طريقة طرقه، لكنها أيضاً نبرة خجولة. أستطيع تمييز ذلك، حتى لو أنني لم أسمع طرقاً لباب شقّتي منذ أكثر من أربعين يوماً، وذلك بعد المرّة الأخيرة التي زارني فيها صديقي السبّاك الذي لا أعرف اسمه.

من الطارق؟ سألت نفسي ذلك السؤال كثيراً، لكنني لا أستطيع حتى تخيّل الإجابة، ولا أرغب بأن أتوقّف عند هذا السؤال، ولا بمعرفة الطارق أو غرضه، أردت فقط أن يتوقّف عن الطرق، وأن يدعني وشأني، وأن يتركني وحيداً في هذا العالم. لكن التكلفة الباهظة في الأمر، هي أن المعرفة فقط قد تكون هي الطريقة الوحيدة لإبعاده، إنها المواجهة، الوسيلة التي ألجأ إليها كلّما أردت التخلّص من أمر ما أو أتجاوزه، لا يجدي الهرب نفعاً، كل الأشياء التي هربت منها في الماضي عادت بشكل أبشع وأكثر قسوة، لأجدها أمامي مجدداً. وما من حيلة أجدت نفعاً في تجاوزها أكثر من المواجهة.

هل ينتمي الطارق لرجال الأمن؟ تساءلت بتوتّر شديد، بعد إن تذكّرت بأنني هاجمت جهة أمنية على الفيسبوك عشيّة أمس. لا أعرف لماذا أفعل هذا رغم علمي باحتمالية ما سيحدث.. أنها الساعة الثالثة فجراً، هذا وقتهم المثالي للمداهمة، لكن ليست هذه طريقتهم البتة، هم لن ينتظروا دقيقة واحدة لأفتح الباب، بل سيقتحموه..

لم أنسَ طريقة اعتقالهم قبل أيام لرجل من الحي، بعد أن اشتبهوا به، لم أنسَ صوت المدرّعات التي أيقظتني مفزوعاً تلك الليلة. مؤكد بأنهم ليسوا رجال الأمن، وهذا ما جعلني أطمئن، وأتنفّس بعمق من جديد.

نهضتُ من السرير، لا أعرف كم استغرقت في النهوض، وسرتُ متجهاً إلى الباب ببطء، في كل خطوة كنت أشعر بثقل شديد في قدميّ، لا أستطيع رفعهما من على الأرض بسهولة، فقمت بسحبهما، لكنني توقّفت بعد أن شعرت بخدرٍ في إحدى قدميّ، وكأنها تعترض على السير، تمتمتُ في نفسي بأنها قد تكون إشارة لكي أعود وأتخلّى عن فكرة فتح الباب. لكنني واصلت السير، برغبة كبيرة منّي بأن أنهي هذه المسألة مهما كانت نتيجتها.

ترددتُ مجدداً عندما توقّف الطرق أطول من كل مرّة سابقة، بقيت واقفاً، لم أتقدّم خطوة واحدة، ولم أعد للوراء، ولا أعرف هل غادر الطارق أم لا، وهل فهم بأنه لا يوجد أحد ليستجيب.. لكن لا أعتقد أن ثمّة من يطرق الباب في ظل هذا الغياب الكامل للعالم، ولا يكون متأكداً من وجود أحد يسمعه ويفتح له.. إنه يدرك جيّداً بأنني هنا، وهذا ما يؤرقني ويجعلني أتساءل، ويفتح أبواب الفضول أمامي، التي أعجز عن سدّها بطريقة أخرى غير المعرفة.

عاد الطرق مجدّداً، هذه المرّة ابتسمت، لأنني في داخلي أريد أن أكمل ما بدأته وأذهب لفتح الباب، عادت قدمي إلى الخدمة لحسن الحظ، لأقوم بخطوات قليلة، قبل أن أصل إلى الباب.

وقفت بجانب الباب دون أن أنبس ببنت شفة، لم أصدر صوتاً أو ضجيجاً، ولم أتكلّم. داهمني خوف غريب أشعر به دائماً في اللحظات الأخيرة من كل شيء، أو اللحظات التي تسبق اللحظات الأخيرة، خوف لا أعرف مصدره ولا أسبابه، لأنني قد قطعت مسافة لا بأس بها لأصل إلى الباب، لماذا أتوقّف الآن؟ لماذا لم أشعر بهذا الخوف قبل أن أقوم بالخطوة الأولى، هذا الأمر ورّطني كثيراً وما يزال يفعل ذلك، لطالما وجدت نفسي أقف على الحافة خائفاً، مع أنني جئت بكل ما أملك من إرادة إليها. هذه المسألة لابد أن أجد لها حلّاً، قبل أن تأتي مرّة لا تخيفني فيها الحواف.

أقف بجانب الباب، أريد أن أسأل الطارق عمّن يكون، لكنني أشعر وكأن شيئاً يقف على لساني ليمنعه من الحديث. لم يتوقّف الفزع بل ازداد تلك اللحظة، فزع الذي طُرق بابه للمرّة الأولى بعد صمت طويل، لهذا شعرت بلساني يتقيّد، لكنني كتلة من الغرابة، فأنا شخص إذا ما شعر بالفزع في منتصف الطريق تقدّم ركضاً، وهذا ما فعلته أيضاً هذه المرّة، أدخلت المفتاح في ثقب الباب، كمن يغرز سكيناً في جسد شخص ميّت، بدا الأمر وكأنني أقوم بتشريح جثّة. أغمضت عينيّ دون إرادة، ودون معرفة بالسبب، فالمكان كان مظلماً حتى لو نظرت لن أرى شيئاً، أدرت المفتاح، مرة ومرتين، وثلاث، وضعت يدي على قبضة الباب، وفتحته بسرعة، سمعت أصوات عديدة تدخل: بكاء، وسعال، وضحكات، ولعنات، وأصوات المكيفات، جميعهم في آن واحد يهدرون، ومن أماكن مختلفة، كانت بعض الأصوات قريبة وبعضها الآخر يصدر من بعيد.

فتحت عينيّ، كان الممر مضاء، والشقة التي أقف فيها أيضاً مضاءة، وأمامي امرأة ماثلة، امرأة بدت لي قامتها مألوفة، رغم أنني لم أرَ وجهها بعد، كانت مُغطاة بالكامل، وحتى يديها كذلك، لم تتحدث بكلمة، ولا أنا فعلت، وقفت تحملق في وجهي، ولم أمسك بشيء في نظراتها يمكنني تأويله. اكتفيت بالنظر إليها وحسب، مرّت دقيقة كاملة بهيئتنا تلك، تساءلت: هل جاءت لرؤيتي؟ أستطيع الجزم بلا، لكنها لم تدقّ الباب عبثاً بالتأكيد، ثمة شيء تريد قوله، وثمّة شيء يمنعها عن ذلك..

قمت بحك ذقني بقوة، وهي حركة أفعلها إذا لم أجد شيئاً أفعله، فلتت كلمة «مرحبا» من فمي، وتبعتها «تفضلي»، لكن استمر صمتها، واستمر تسمّرها، وهذا ما جعلني أشعر بقلق أكثر من قلقي الذي عشته قبل أن أقوم بفتح الباب.

و رغم هذا القلق، لم أنكر عند رؤيتها شعوري بأنها جاءت في الوقت المناسب تماماً، لا أعرفها، لكنّها لم تقف أمامي في أكثر أوقاتي وحدة عبثاً، كان من الممكن ألا أستغرب، ولا أفكر بمن تكون، إنه ليس بالأمر المهم، كان بإمكاني معانقتها والترحيب بها بشكل لائق، ليس مهمّاً كذلك لأي سبب جاءت، أستطيع أن أقوم بما تريده مهما كلّف الأمر. هل تريدين قول شيء؟ سألتها، فهزّت رأسها قاصدة «نعم». لكن لم تنطقها.. لم أكن أنتظر إجابة بالإشارة، بدا الأمر غريباً ومُغيظاً في آن معاً، فحتى هذه المرأة التي وقفت أمامي هذه الليلة أيضاً لم تتكلّم. لا أنكر بأنني شخص سيئ، لقد طرأت في بالي العديد من التخيّلات القبيحة، عند رؤيتي لامرأة أمام بابي، عندما كنت أنظر إليها بنظرات غرابة، كنت قد تفحّصت معظم جسدها بعينيّ، دون أن أجعلها تشعر بذلك، أملك نظرات بذيئة وذكية، تستطيع التنكر كما تريد. لكنني أيضاً شخص جيّد، فمهما طرأ بداخلي من سوء، يظل بداخلي، وهذا ما يجعل الأشخاص الجيّدين كذلك، أنهم يستطيعون كبح مساوئهم. وأنا طوال حياتي لم تخرج منّي كلمات غير أخلاقية لامرأة، حتى وإن كان في موقف أقلّ حرجاً من هذا. حتى أن جميع من صادفتهم لا يشكّكون في ذلك.

لكنّها تساؤلات كثيرة تتدافع، ولم أستطع ردعها، هل هي وحيدة أيضاً؟ هل جاءت لتنقذ هذه الليلة؟ ستكون بمثابة هديّة كبيرة لو حدث ما أتخيّله. شيطاني يخبرني بأنها مناسبة لقضاء ليلة مُمتعة، بدت لعينيّ وكأنها في أواخر العشرينيات، أو بداية الثلاثينيات، جسدها مناسب كذلك، جرأتها أيضاً بطرق بابي في هذا الوقت المتأخر من الليل، تعطي انطباعاً بإمكانية حدوث ما أرغب به. وصوت في داخلي يوسوس لي: ثمة أمر كبير دفعها إلى هنا، وقد يكون ذلك «الحرمان» أو «الرغبة». لقد مررت بأوقات كهذه، وكان بإمكاني حينها أن أقوم بما تفعله هي الآن.

أردت أن أفتح حديثاً معها، وما جعلني أنحدر في هذا الأمر هو أنها هي من جاءت ولستُ أنا من ذهب إليها، كنت أريد استغلال هذه الجزئية من الموقف، يبدو أنها جاءت وتوقّفت لكونها لم تستطيع فتح جانب كهذا من الأحاديث. «لا تقلقي» أردت أن أطمئنها، وقلت أيضاً: «لا أحد سيعرف أنكِ جئتِ إلى هنا»، وكرّرت كلمة «تفضلي»،

وتراجعت للوراء لأجل أن أترك لها مساحة للدخول. لكنها لم تتحرّك، ظلّت واقفة في مكانها وتنظر بجمود تجاهي. وصمتٌ لثوان.. ثم خاطبتها: «طيب، قولي ما تريدين». بدت وكأنها تستعد للحديث، لكنها فجأة انهمرت بالبكاء، وكانت تلك لحظة سيئة جداً.

لماذا تبكي؟ هل ما تريد قوله فظيع لهذا الحد؟ من الممكن أن يكون كذلك، لكن ماذا بمقدوري أن أفعل؟ لم أستطع التكلّم، وكذلك لا يمكنني التربيت عليها، إنها كارثة، أكبر من كارثة اختفاء العالم.

تركتها تبكي، وتشهق، وأنا واقف أمامها في جمود، وأتساءل، هل هي امرأة أعرفها؟ هل جرحت امرأة من قبل؟ هل أحببت فتاة وتركتها؟ لا أعرف من تكون هذه، ولا أعرف لماذا تبكي، ولا أعرف لماذا اجتمعت كل الأشياء الغريبة هذه الليلة. لقد ذهبت بالتفكير بعيداً عمّا كنت أفكر به، لكن لو كانت امرأة عشت معها لدقيقة واحدة لكنت عرفتها، أنا لا أنسى امرأة تبسّمت لي أبداً. كل اللواتي قابلتهن في حياتي وابتسمن في وجهي، أتذكرهن جيّداً، ليس لأن ذاكرتي قوية، ولكن لأنهن ثلاث نساء فقط، سيكنَّ اثنتين إذا استثنيت أمي، وامرأة واحدة إذا قمت بحذف العجوز البكماء من القائمة، كونها تبتسم في وجوه الجميع، ولم تكن ابتسامة مخصوصة لي أنا. لم تكن المرأة تبتسم، لقد كانت تبكي، وهذه أول امرأة تبكي أمامي، وأتمنى ألا تكون أول امرأة تبكي بسببي. كنت أنظر إليها وأستمع إلى بكائها فقط دون أن أفعل شيئاً آخر. كوني لا أستطيع.

«زوجي...» هذه كانت أول كلماتها قبل أن يقطعها البكاء مرّة ثانية، تركت لها مساحة كافية للبكاء، إلى أن هدأت، فكررت: «زوجي» ووقفت لثوان، وتبعتها «غير موجود».

شيء ما جعلني أبتسم، قد يكون ارتياحي بأن بكاءها لا يعنيني، وقد يكون لأنها وحيدة مثلي، وقد يكون لأمر آخر لا أعرفه. وفي الحقيقة لا أعلم لماذا شعرت بالقلق من الأمر، فلم تكن لي حبيبة سابقة، ولم أسئ لامرأة من قبل، لكن لا أعلم لماذا تنحدر منّي هذه التوقعات السيئة وغير المنطقية دائماً، وتجعلني أقوم بحسابات طويلة وكثيرة لا داعي لها.

سألتها: لماذا؟ فأجابت بأنه جندي غائب منذ ستة أشهر».

عدتُ لما كنت أفكّر به قبل بكائها، وهذه المرّة نسيت خجلي الذي ألفته، وشعرت بأني تحرّرت منه، لم يعد يكبّلني أو يقف على فمي ليمنعني مما أريد قوله، كنت جريئاً بشكل لم أعهده من قبل، عندما قلت: «أستطيع أن أقوم بدوره هذه الليلة».

لكنني قلت تلك الكلمات في داخلي، ولم أجعلها تسمعها، أنها خطوة جيّدة لاشك، حتى وإن كانت غير مُجدية.

لم أرد أن أظل صامتاً أمامها، فقلت لها: «لا بأس، هم هكذا بعض الأزواج لا يهتمّون».

كنت أنظر للموقف بشكل مختلف، من زاويتي الضيّقة هذه، وأتأملها كوحش، يفكر بإيجاد طريقة ليوقع بها فريسته.

لم تتكلم المرأة، لا أعلم ما الذي يقف على لسانها، رأيت في عينيها ملامح تردّد، فأردت أن أستغل الموقف، وقلت لها «إنني موجود هنا، في حال تريدين أي شيء». لم أستطع أن أصرح بما هو أكثر من التلميح. لكنّها بقيت صامتة وواقفة، وبقيت أنظر إليها بتلك العين الزائغة.

رأيتها تقرّب جسدها منّي، دون أن تحرّك قدميها، فهمت بأنها تريديني، لكن شيئاً ما يمنعها عن فعل ذلك، شيء لا تستطيع هي تجاوزه، ويقيّد قدميها عن ارتكابه. وكما أن هناك أمراً يمنعها عن التقدّم، أيضاً هناك أمر يمنعها عن العودة.

وقفت أنا الآخر، وتضاعفت أنفاسي الساخنة، كنت أتنفّس بسرعة، وأكتفي بالنظر إليها، ولم أكن أدري ما أفعل، فلم أعد أفكّر بأي شيء آخر عد اصطحابها إلى الداخل.

ورغم كل تلك الوحدة والحرمان، وتلك الرغبة التي اشتعلت أثناء وقوف المرأة أمامي، إلا أنني لم أستطع أن أفعل ذلك، لم أكن أجرؤ على مسكها، أو التحدّث معها بصراحة وشفافية، وعرض الأمر عليها، مع وجود يقين بداخلي يخبرني بأنها ستوافق. أصبح الأمر شاقاً عليّ، لا يمكنني البقاء بهذه الحالة أمامها لوقت طويل بدون ارتكاب خطيئة، لاسيّما في ظل صمتها المريب، وكلماتها القليلة المتلعثمة، وأنفاسها المرتبكة. عدت خطوة للوراء، وقلت: «هل تريدين الدخول؟ ما لم سأغلق الباب».

لقد بلغ عندي الأمر حده، وأردت أن أنهيه، بأي طريقة كانت، فلن أندم على مغادرتها ولا على دخولها معي أيضاً. تجاوزت الأوقات التي أندم فيها على قرارات عاطفية.

عدت خطوة أخرى، ووضعت يدي على الباب أتهيأ لإغلاقه، وانتظرت دقيقة أخرى قبل أن أقوم بدفع الباب، لكنه لم يُغلق.

نظرت للأسف فرأيت قدمها بالداخل، نظرت بالأعلى فرأيت يدها تمسك الباب أيضاً، لم تجعله يُغلق، فابتسمت، وأخذت نفساً طويلاً كمن نجحت خُطّته، وسحبت الباب للداخل لأجعله مفتوحاً على مصراعيه.

كنت واقفاً بالداخل، وكانت هي أمامي، جزء منها في داخل الشقة، والجزء الآخر على عتبة الباب، والتردّد ما يزال يسكن عينيها، وقالت: «أعلم أنك لوحدك، ولهذا لم أطرق أي باب آخر، أسكن في الشقة المجاورة منذ قرابة سنة، وزوجي لم يعد من الجبهة منذ ستة أشهر، لأنه لم يتسلّم راتبه، هل لديك أيّ شيء أطعمه أولادي هذه الليلة؟».

عمر العمودي.

نيران

طاخ، طاخ، طاخ، إطلاق نار مفاجئ في المدينة، كنت قد خرجت من بوابة الفندق صباحاً، بعد أسبوع قضيته في صنعاء لم أسمع فيه رصاصة واحدة. ماذا حدث الآن؟ لا أفهم.

لم تتخطَّ الساعة العاشرة صباحاً بعد، والسماء ملّبدة بالغيوم لحسن الحظ، كونه لا يوجد مجال لاحتمال أشعّة الشمس أيضاً مع ما يحدث. ولحسن الحظ أيضاً كانت الشوارع جافة، لم أكن أتوقّع أن أجدها في هذه الحالة، بعد أن رأيت ذلك المطر الغزير الذي هطل ليلاً، ربما لحسن تصريف المياه الجارية في هذه المدينة. وليتها تحسن تصريف الدم أيضاً.

كان الجميع يركض في حالة استنفار، مع أنها حالة متكررة في مختلف محافظات هذا البلد، ليست حالة غريبة. رأيت الناس تختبئ خلف الجدران، وفي الزوايا، ومنهم من اكتفى بالانبطاح والدعاء، أبواب المحلّات أُغلقت سريعاً بعد إطلاق النار. في ذلك الجو اكتفيت بدور المراقب للحدث دون إبداء ردّة فعل، وكأنني لا أريد أن أستوعب الأمر، حتى صرخ أحدهم في وجهي وهو يركض: «هيي ألا تهرب أنت؟». وكان رافعاً ثوبه الأبيض إلى خصره ليتسنّى له الركض، حتى وجد زاوية ما خلف جدار ليستقرّ فيها.. وكان إطلاق النار مستمرّاً.

لم أعرف من هم أطراف الاشتباك، وهل كان الاشتباك أمنيّاً أم قبليّاً أم سياسياً أم أنه لسبب آخر.. كان طرف منهم بالقرب من عمارة (لا إله إلا الله) من جهة شارع الزبيري، والطرف الآخر في شارع الدائري، ويتمركزون في الزوايا.

احتدمت المعركة، وازداد الإطلاق أيضاً، وبدأت أنا بالتوقف عن المراقبة والاستطلاع، وشعرت بجديّة الأمر، بعد أن لاحظت اختراق رصاصة للجدار الذي بجانبي، ركضت باتجاه ذلك الرجل الذي صرخ في وجهي، واختبأت بجانبه، وهو ما يزال بحالته تلك، رافعاً الثوب إلى خصره، ربما راقت له هذه الحركة، أو شعر بالحرية معها، وربما كان على أهبة الاستعداد للركض ثانية إذا ما تطلّب الأمر. كان مظهره مهندماً من الأعلى فقط، فمعطفه الرمادي كان ملائماً ومتناسقاً مع الثوب الأبيض الذي يرتديه مرفوعاً إلى خصره، ولا أعلم لماذا يصرّ على ارتدائه طالما هو قادر على التخلّي عنه. كان الرجل مرتدياً جنبية أيضاً، وعمامة على رأسه، وبوجه متجهّم وخائف في آن معا، كانت هناك علامة غريبة في جبهته، وكأنها أثر سكّين، لا بد أنها حادثة حدثت له.. لم أنبس ببنت شفة، ولم يرحب بي عندما قدمت نحوه، كان صامتاً ويراقب الراكضين والمختبئين في أماكن أخرى، دون أن ينطق بكلمة واحدة، أما أنا فقد فضّلت مراقبته، على مراقبة الاشتباك.. وأثناء ذلك، قال بصوت منخفض: «لا أعلم لماذا يفرّ الناس من أقدارهم؟!».

نظرتُ له دون إدراكي لدوافعه، لا التي جعلته يركض، ولا التي جعلته يختبئ، ولا التي جعلته يقول ذلك السؤال، أو يفكّر به. نظرت إليه، ورأيت من ملامح وجهه ونظراته بأنه لم يكن ينظر لي ولا يقصدني ولا ينتظر منّي إجابة، بدا وكأنه غارق في عالم آخر، كان يحادث نفسه لاشك، وفهمت بأنه تساؤل تلقائي بدر منه، ربما لم يدركه جيّداً، وربما كان يعي ما يقول، لكنه لم يفارقني.

ظللنا مختبئين في أماكننا، دون أن نفكر بشيء آخر عدا نهاية هذا الاشتباك والذي لا أعرف بعد من أطرافه. لكني لم ألمح سيارات الشرطة أثناء وقوفي عند بدء الاشتباك، من المؤكد أنهم جماعات قبلية، لكن أي قبائل هم؟ لا أدري.. أردت أن أسأل الذي بجانبي، لكن ملامح وجهه كانت وكأنها لا ترى بأنه الوقت المناسب لفتح حديث. فما يزال الرجل غاضباً لسبب لا أفهمه، ربما يكون الاشتباك قد غيّر خططه لهذا اليوم، الغريب أنه يملك مسدّسا أيضاً، لا أخشى الأسلحة، لكن لم يعجبني أن يكون بحوزة رجل غريب الأطوار كهذا، لقد كان يراقب الوضع بغرابة، يتلفّت إلى جميع الجهات بسرعة وارتباك، بدا كما لو كان مطلوباً، ولو لم ينطق بذلك التساؤل لشككت في أمره، وظننت بأنه الشخص الذي قام من أجله هذا الاشتباك..

أحياناً نقول كلمات لا نعنيها ويكون لها بعد آخر.

سرحتُ بعيداً، بعيداً عن مكاني وعن ذلك الرجل الغريب، وتساءلت ماذا يريد الناس فعلاً من هذا الأمر؟ هل هناك شعور لا أعرفه يكون فيه المرء سعيداً عند قتل الآخر؟ هل يشعر القاتل بفخر وعزة كونه فعل هذا؟ أو حتّى حاول؟ هل هناك من يتعطش إلى الدم فعلاً في الواقع؟ ويسعى لنزع الأرواح وقطفها كما لو أنه ينتزع وردة ليهديها للقدر؟ أنا لا أفهم سعي الآخرين إلى قتلهم لبعضهم، ولا أفهم كيف لا يفكّرون طويلاً قبل الإقدام على ارتكاب فظائع كهذه، أو ربما أنها ليست فظائع في نظرهم.. وقد تكون فضيلة بالنسبة إليهم.. ربما.

استمر إطلاق النار لدقائق أخرى قبل أن يتوقّف، وأنا مازلت غارقاً في تساؤلاتي، بدأ الناس بالخروج من مخابئهم، من خلف البنايات والجدران، وجمع ممن أُغلقت عليهم المحلّات، وهو مشهد لم يكن جديداً، لكنّ لا أحد يريد أن يألفه.

توقفت عن التفكير مجدداً، وعن التساؤلات التي لا جدوى منها، بعد أن توقف إطلاق النار. وبينما كنتُ أستعدّ للخروج رأيت الرجل الذي كان بجانبي متسمّراً، وكأنه تلقّى خبراً سيئاً للتو، مع أنه كان يجب عليه أن يتنفّس الصعداء ويترك ثوبه يؤدي مهمته بستر فخذيه على الأقل. إن هذا الرجل بدأ بإثارة شكّي وحنقي، لديه ردود فعل غريبة ومُريبة، خصوصاً إذا كانت في حادثة كهذه.

تساءلت: «هل يفكّر بشيء آخر؟»، أردت أن أساله وأفهمه، لكن رأيت بأنه تصرّف غير لائق أن أتدخل بهذه الطريقة، وربما سأحرجه كوني لا أعرف ما مرّ به في هذا اليوم.. ودائماً ما أجد تبريراً لنفسي بعدم السؤال. وفي الحقيقة لو أنه كان شاباً في عمري لاستطعت محادثته، لكن كانت تبدو هيئته وكأنه في منتصف الأربعين.

خرجتُ وتركت ذلك الشخص في مكانه، وكل من خرج من مخبأه كان

يسأل الذي يصادفه عن الاشتباك وأسبابه وتداعياته، وحدي كنت غير آبه، ولا أريد معرفة ما حدث أو سيحدث بعد، على الأقل في هذه اللحظات التي تخلف الأوقات العصيبة، كون هذه الاشتباكات القبلية لا تنتهي في وقت واحد، بل تمتدّ طويلاً غالباً وقد تصبح ثأرات عديدة، واشتباكات كثيرة، وسيكون للأبرياء أيضاً نصيبهم منها. الجميع يحصل على نصيبه بصورة عادلة في هذا البلد، خصوصا عندما يتعلّق الأمر بالرصاص والقتل والدم، وأعني بالجميع الشعب فقط.

مشيتُ إلى الشارع وأوقفت تاكسي على الفور، أخبرته بأنني أريد الذهاب إلى المركز الليبي في شارع الجزائر، كون هذا المكان هو أكثر مكان أتنفّس الصعداء فيه، في تلك الكراسي التي تنتصف ساحته الأرضية أمام النافورة، أذهب وأنسى نفسي هناك. وهذه المرّة لم يكن هناك داع لأسأل السائق عن الأجرة التي سيأخذها، ربما للهلع الذي شعرت به، وربما أيضا لأنني أعرف الإجابة التي سيقولها وهي أكثر جملة سمعتها في صنعاء «كم ما اشتيت». الجميع يقولها، سائقو التاكسي، وأصحاب الموتورات، وحتى أيضاً الباعة المتجولين وأصحاب المحلات والمطاعم، أينما ذهبت لأسأل وجدت هذه الجملة أمامي.. ومن المؤكد أن هذه الجملة هي التي سأقولها لأي عندما ستسألني عن سعر الزي الصنعاني الذي جلبته لها -كما تفعل دائماً- «كم ما شتيتي».

وحتى لو توقفت أنا عن طرح الأسئلة، لا يتوقّف الآخرون عن طرحها عليّ، وهي الأسئلة نفسها، ليست أسئلة متنوّعة لكي أشعر بحماسة الإجابة عنها، بل هي نفسها تتكرّر: «من أين قدمت؟» قالها السائق، فأجبته «من حضرموت». وعادة هذا النوع من الأسئلة لا يعنيها سائليها بقدر ما يريد بعدها أن يفتح حديثاً.. قلت له من حضرموت، رغم أني أحمل في بطاقتي اسم مدينة أخرى، وذلك لأنني أجد ترحيباً مختلفاً عندما أذكر حضرموت، هكذا يسري الأمر في صنعاء، ولأن الحضارم مسالمون أيضاً، حتى أنني في الحافلة أثناء الرحلة إلى صنعاء، سمعت أحد أفراد الأمن في إحدى النقاط يقول: «الحضارم والنساء، لا تفتشوّهم». لا أعرف سرّ الرابط بين الحضارم والنساء، لكني شعرت بامتياز، لم أشعر به في أية نقطة تفتيش مررت بها طيلة حياتي. فمهما انتميت لمدينة أخرى، تبقى حضرموت هي الانتماء الروحي الأول والأكبر.

بدت لي شخصية السائق من الشخصيات المتزنة، التي لا تتحدث كثيراً، ولا تتكلّم بعشوائية، كون هذا إحدى صفات الاتزان المهمة، هي أن يعرف المرء متى يتحدث وأين.. كان أصلعاً، ووقوراً، وهي صفة من النادر أن أجدها، كون كل الصُلع الذين قابلتهم في حياتي لم يكونوا مهذّبين. وربما شعرت بالارتياح تجاهه كونه مرتديا بنطالاً وسترة أنيقة، هذا النوع من الرجال يترك انطباعاً لطيفاً بمجرد رؤيته. إذ لم تكن بدلته فضفاضة، وليست ضيّقة أيضاً، كانت مناسبة لجسده، ولها لون واحد، لست من الذين يحكمون على الآخرين من مظهرهم، لكنني لا أخفي بأن طريقة ارتداء الآخرين لملابسهم إما تجعلني مرتاحاً أو تصيبني بالارتباك، ليس نوع الملابس، بل كيفية ارتدائها، وحجمها كذلك، وهذا السائق لم أشعر بالارتباك بجانبه أبداً. لكنني رأيت فيه خصلة لم تعجبني، وهي الطريقة التي يقود بها السيارة، هنا لم يكن مهذّباً أبداً، فهو لا يهدئ السرعة عند المطبات والحفر، تماما كما يسوق أبي، مع كل حفرة أغمض عينيّ، لكي لا أشعر.. إنها طريقة مثالية أستخدمها للشعور بألم أقل أو أغلق الباب أمام تخيّل الخطورة بمجرد إغماضي لعينيّ. لكن لا بأس، لم أبصر رجلاً كاملاً في حياتي، ولا حتى سائق تاكسي مثالي.

بعد تجاوزنا لإحدى المطبات، وأنا أعدّل جلستي على المقعد، خرج السائق الأصلع من صمته ليقول: «هل شهدت الاشتباك الذي حدث؟». أخرجت تنهيدة طويلة، وكأنها تنهيدات كثيرة كانت عالقة لتخرج دفعة واحدة.. وأجبته: «نعم».

فسألني: «هل تعلم السبب؟». قلت له: «لا». فابتسم دون أن أفهمه، وقال: «هي قصة ثأر طويلة».

وهنا بدا الحديث محمّساً لي، هناك قلة ممن يجعلونني متحمّساً للإصغاء، أحدهم هذا السائق.. لستُ فضوليّا ولا أحب هذا النوع من الأحاديث، لكنني أشعر برغبة في معرفة سبب كل دقيقة سيئة عشتها، لا أريد معرفة من قُتل ومن أصيب، أريد أن أعرف السبب الذي جعلني أختبئ من جذوره، كون الأيام السيئة التي عشتها دون سبب كانت كثيرة ولا تحتمل إضافة يوم آخر.

فبدأ السائق بالحديث: «إنها يا صديقي قصّة تعود إلى قبل ستة عشر سنة تقريباً، بين هاتين القبيلتين المتنازعتين».. وتوقّف عن الحديث، لابد أنه يستفز حماستي، فقلت: «نعم»، وهي كلمة أقولها وسط الحديث إذا أردت الرجل أن يكمل.. فأكمل:

«قبل ستة عشر سنة كما ذكرت، كان هناك رجل من القبيلة الأولى يحب امرأة من القبيلة الأخرى».

قلت في نفسي هذه أكثر قصّة مشوّقة سأسمعها.

وأكمل السائق الأصلع: «أراد هذا الرجل أن يتزوج المرأة التي يحبها». بدأت أشعر برتابة الحديث، كونه شيئاً معروفاً، وإلا لماذا سيحبها؟ أردت أن أطلب منه أن يسرّع رتم القصة، لكن كّنا قد وصلنا إلى (المركز الليبي) الذي أردت الوصول إليه.

وبينما أراد السائق أن يوقف التاكسي جانباً، قلتُ له بأنني غيّرت وجهتي إلى جولة الثقافة في شارع ٢٢ مايو. اخترت مكاناً بعيداً بعض الشيء كوني رأيته كافيا لسرد قصة ممتدة منذ ستة عشر سنة. فمشينا، وعاد السائق ليكمل القصة:

«عندما تقدّم هذا الرجل، كان هناك رجل آخر من أقارب الفتاة ويريد الزواج بها، كان يقول بأن لا أحد يستطيع أن يتزوج «سلوى» عداه، وكل من تقدّم للزواج بسلوى، تخلّى عن الفكرة بعد تهديداته. لكن العاشق لم يكترث لذلك الرجل الذي يريد الزواج بـسلوى مهما كلف الأمر».

قلت: أنه رجل شهم.

فقال: ليتك تعرف ماذا حدث.

أكمل أكمل ياصديقي، إنك ألطف رجل أصلع قابلته في حياتي. أردت مداعبته ليتحدث بنفس طيبة وليحكي القصة دون رتوش أخرى. وعادة لا أكون لطيفاً في أحاديثي، حتى لو كنت متشوقاً ومتحمساً، لا أستطيع أن أظهر ذلك، وهذه لعنة. إنه أمر لا أرغب به، وأريد تغييره، لكنه الطبع، ولا أعرف تفسيراً آخر لكلمة «طبع»، حاولت أن أتظاهر بعض المرات بعكس ذلك، على المحادثات العابرة اليومية التي أخوضها، أتحدّث من طرفي، بينما من الطرف الآخر يمارس الآخرون حريتهم الكاملة، وأحب هذا. الأمر الوحيد الذي أكون أكثر جدية فيه من الداخل، الوقت الذي أكون فيه غاضباً وعصبياً، لكن ذلك أكثر وقت لا أبدو جاداً فيه من الخارج، فقط يرتسم الغضب على ملامحي، لكن إذا أردت أن أؤنب أحداً لا أستطيع أن أرفع صوتي أو أن أظهر حدّته، أعاتبه وكأني أخبره بسرّ، وهكذا لا ينتقل غضبي للآخرين بالصورة نفسها التي أريد بها أن ينتقل، إنها مشكلة، لكن هناك مشاكل أكثر قلقاً لي من هذه، منها أن يصمت شخص أمامي فجأة وهو يحكي قصة مشوّقة، كهذا السائق الذي يجلس بجانبي.

ضحك السائق وصمت لثوان، قبل أن يعود ليكمل حديثه:

«بعد إن تقدم ذلك الرجل العاشق، تم رفضه، لأن قريب الفتاة قام بتهديد والدها بأن يفسد الأمر لو تم، ووالدها قضى نصف عمره بين طريقَيّ المسجد والمدرسة، كان يتحاشى المشاكل بشتى السبل، ولم يرغب بفتح باب آخر.. لكن الأطراف المتنازعة كانت مصرّة على كسب (سلوى) العاشق كاظم، والقريب عبد الواسع.. كاظم كان قبلياً بنسبه، وعبد الواسع رغم كونه أصغر أخوته إلا إنه أكثر من يظهر بمظهر ولي الأمر للعائلة، يحب أن يتصدّر المجالس، ويحب أن تكون كلمته سارية، وأن يصدر الأوامر. والجميع في العائلة يتركون له تأدية هذا الدور».

لم أستغرب هذه الجزئية من الحديث، فالقيادة ليست عمراً ولا خبرة، إنها أقرب إلى أن تكون فطرة، وهذا قائد بالفطرة، هو قائد، سواء كان فاشلاً أو ناجحاً، أظن بأنه شخصية تليق لأن تكون أحد أطراف الصراع الرئيسية، لكن ماذا عن الطرف الآخر، أعتقد بأن الحب وحده كاف لمعادلة أي قوة أخرى، وقد يتغلّب عليها أحياناً.

«وهناك أحاديث تقول بأن كاظم أبلغ (سلوى) بأنه يحبها عبر أخته، التي كانت صديقة لسلوى، كلّفها بأن تنقل له هذه الكلمات، وتقبّلت سلوى ذلك وفرحت به، ليس الكثيرون يعرفون هذا الجانب من القصة، أخبرني أحد أصدقاء كاظم المقرّبين».

كنت أتمتم في نفسي، بأن لكاظم الحق أيضاً في أن يحارب من أجل سلوى، لكن الطرف الآخر لا يبدو وكأنه يخشى الحرب. لكن هل تستطيع سلوى أن ترفض ابن عمّها؟ وماذا سيحدث.. قبل أن أكمل تساؤلي أكمل الأصلع حديثه:

«الفتاة تلك لا تستطيع رفض أحد إذا وافق والدها وأعمامها، هكذا يسري الأمر في تلك العائلة، أنا قريب منهم وأعرفهم جيداً، لا تتزوج المرأة برغبتها، بل بما يراه أهلها مناسباً لها حسب معاييرهم، أن يكون قبلياً هذا شرط مهم، وهو يتوفر في كاظم».

قلت له: «لكن حتى الآن يبدو لي بأن كلا الطرفين متعادلين».

أجاب: «نعم، وهذا ما جعل كاظم يعود ليتقدّم ثانية، وهو الأمر الذي استفزّ عبد الواسع كثيراً».

كان حدوث ذلك متوقعاً، لا أفهم لماذا على العاشق أن يتقدّم مرّتين لامرأة يحبّها، خصوصاً إذا لم تكن هي من ترفضه. بالنسبة لي، لن أفعل ذلك، مهما كانت الأسباب، ومهما كان حجم الحب، لن أعود ثانية إذا تمّ رفضي، لكنني أيضاً، لن أتقدم للمرّة الأولى إلا بعد إن أقطع أشواطا كبيرة لأكون رجلاً يشعر الآخرين بالندم لرفضه. ربما ليس ضرورياً أن أفعل ذلك، لكنني أحب إن أتّخذ هذا الموقف، وأن أقوم بهذه الاحتياطات، لأجلي، ولأجل امرأة أحبها، ولأجل الكبرياء أيضاً.

«غضب عبد الواسع، وجميع من في الحي شعر بغضبه، البندقية كانت رفيقة له أينما ذهب، مرّت ثلاثة أيام، لم يرد فيها والد سلوى، لأنه يظن بأن الأمر انتهى من رفضه في المرة الأولى، وليس هناك داع للرفض مرة ثانية، لكن في تلك الأيام كان عبد الواسع يتربّص بكاظم، وينتظر فرصة مناسبة للانقضاض عليه، الغريب بأنه كان ينتظر تلك الفرصة في الحي الذي يسكن فيه كاظم، لم ينتظر خروجه، أراد أن يلقّنه درساً بين أبناء قبيلته، ليعرف الجميع من يكون عبد الواسع».

مثل هذه الشخصيات لابد أن تصادفها ولو مرة واحدة في حياتك، وهي غالبا إما تفرض نفسها وتعيش وهي مهابة من الآخرين، أو تُدمّر مع مرور الأيام والمواقف، وقد تموت سريعاً بسبب اندفاعها. لقد أصبحت فضولياً بشكل لم أكونه من قبل لأعرف إلى أين سيذهب عبد الواسع.

التقط الرجل الأصلع أنفاسه وركن التاكسي جانباً وقال: «هذه جولة الثقافة».

لم أكن أتوقّع أن نصل بهذه السرعة، قلت له: «وهل أنزل والقصة مازالت في منتصفها؟».

ابتسم الرجل وقال: «ليست مشكلة إذا أردت الجلوس هنا لأكملها لك».

لم يكن خياراً منطقياً، فربما يأتي أحد المارة باحثاً عن تاكسي، سيكون موقفاً محرجاً أن أقطع رزق الرجل لأجل قصة..

قلت له: «لا، عُد بي إلى المركز الليبي، أنا أحب الجلوس في ذلك المكان كثيراً».

ولفّ على الدوار، ليعود من الطريق ذاته.

سألني: «هل أكمل القصة؟». كان سؤالا مستفزاً، لكنني تمالكت أعصابي وابتسمت، وتظاهرت بأنني متحمس ونجحت، وكانت أول مرة أنجح فيها بالتظاهر، إنها ذكرى جميلة.

تنحنح الرجل وعاد ليكمل حديثه:

«تخيّل أين أمسك عبد الواسع بكاظم؟ بجانب منزله!».

لم أستغرب لكنني تظاهرت بأنني مندهش، ونجحت أيضاً، لقد لويت فمي وكأنني أنطق «واو» بصمت. رأيت أنه كان مهماً أن أظهر ذلك.

«لم يتحدث عبد الواسع مع كاظم بفمه، بل بجنبيته، أمسك بعنقه بيد، ووضع الجنبية باليد الأخرى على الجانب الأيمن من عنقه، لا بد أنه هدده، لكن لا أعرف ماذا دار بينهم تماماً».

هذا الرجل الأصلع مميّز، إنه يقول لي كل التفاصيل، لا أعلم إن كانت حقيقية، لكن التفاصيل مهمة ليكون الحدث منطقيا، ولا يترك التساؤلات تتراقص أمامي.

«نعم»، قلتها بحماسة، ليكمل:

«غضب كاظم، إنه لم يكن جباناً، كان هو الآخر متحدياً أيضاً، أنا أعرفه قبل تلك الحادثة، وهو يعرفني أيضاً ويعرف من أكون، كان شجاعاً في موقفه، ليس بالتقدم مرة ثانية فقط، بل كان مستعداً ليواجه عبد الواسع. ولا يفكر إلى أين سينتهي الأمر.. أبعد كاظم يد عبد الواسع، ليقوم الآخر بحركة عشوائية بجنبيته، في وجه كاظم، ليجعل وجهه محمراً من الدماء، صرخ كاظم، ليخرج شقيقه الأكبر، ويمطر عبد الواسع بالرصاص، للأسف هذا الرجل لم يعش كثيراً، لقد كان شجاعاً حتى لو كن لديه قرارات خاطئة».

أنا صُدمت، لم أرد أن تصل القصة إلى هنا، ليته قام بتحريفها، كنت أنتظر صراعاً أكبر بين الطرفين، هذا الجانب السيئ منّي، تروقني الصراعات ذات الأهداف الأسمى كامرأة، لا أحب الصراع على السلطات أبداً، أن تكسب امرأة بصراع، أفضل من أن تتقلّد الرئاسة بصراع، وأعتقد بأن الكثير يوافقني على هذا الرأي، لهذا أسمعهم في الشوارع كل يوم، عندما يُسأل أحدهم: «كيف حالك؟»، يجيب: «أحسن من الرئيس»! وإلّا بماذا سيكون مواطن مسحوق لم يتسلم راتبه الذي لا يساوي مبلغ «تخزينة مسؤول صغير ليوم واحد» أحسن من الرئيس القابع بفندق فخم، في عاصمة فخمة، ويملك أموالاً لا طائل منها إن لم ينل امرأة يحبها؟ أعتذر، لم أجد مميزات أخرى للرئيس غير العيش الرغيد.

رأيت الحسرة نفسها على وجه السائق الأصلع، وكأنه أيضاً لم يرد أن يحدث الأمر، كانت الحسرة واضحة على ملامحه وكأنه كأن مقرّباً من عبد الواسع، لا أعلم لماذا شعرت بهذا، لكنه أيضاً يتحدث عن كاظم بالاحترام نفسه.. واستمر الرجل بإكمال حديثه:

«لقد ذهبت قبيلة عبد الواسع وقتلت شخصاً آخر من قبيلة كاظم، بجانب شقيق كاظم، الذي أردي قتيلاً أيضاً، لم يكتفوا بواحد، لا أعلم إذا كان من دون قصد، أم أنهم يرون بأن قتيل واحد لا يكفي ليكون ثأرا لـ عبد الواسع. ودعني أخبرك سراً.. لم يكن ذويه يحبونه قبل الحادثة لتسلطه عليهم، وظن البعض بأنه لن يأخذ أحد بثأره، لكنه حدث، وبقوّة أيضاً، لا أدري هل شعروا بقيمته، أم أحبوه بعد وفاته، ورأوا كل الصفات التي لم تروقهم قد أصبحت مزايا».

لقد كنت محقاً عندما قلت بأنه شخص متزن، هذا الأصلع يثير إعجابي بحكمته وفطنته ورؤيته البعيدة للأمور. إنه أذكى سائق تاكسي على الإطلاق. كنت أقول ذلك في نفسي، لم أخبره به، لا أحب أن يتباهى الآخرون أمامي.

أجبته: «نحن هكذا بالفعل، ندرك مزايا الآخرين بعد ذهابهم». كعادتي أكون دبلوماسياً ومختصراً، وهي صفة لا أحبها، لكن لا أنكر بأنها تليق بي. استمرت قبيلة كاظم باحثة عن الثأر، بينما غادر الكثير من قبيلة عبد الواسع المدينة، وتخفّى بعضهم، حتى قبل ثمان سنوات أراد أحد أفراد قبيلة كاظم، أن يقتل أحد أفراد قبيلة عبد الواسع، لكن الآخر شاهده قبل أن يفعلها، وتبادلا إطلاق النار ليردي الأول قتيلاً، وقد أصبحت قبيلة كاظم تطالب باثنين بعد أن كانوا يريدون قتل واحد. قبل سنتين قتلوا واحد، لكن بقي واحد ومازالوا لم ينسوا الحادثة.. لا يظهر أحد من قبيلة عبد الواسع على الملأ، يتخفّون أو يختبئون في بيوتهم».

قاطعت حديثه بعد أن رأيت القصة تتجه لمنحنى آخر: «لكن ماذا حدث لكاظم؟»، ولسان حالي يقول «قرّبنا من الرصاص ما أردت، لكن لا تبعدنا كثيراً عن الحب أرجوك».

تنهّد تنهيدة طويلة وقال:

«ما حدث لكاظم مؤسف، الرجل قد تعرض لصدمة كبيرة بعد أن أدرك استحالة زواجه بسلوى، لقد رفض الزواج، وأصبح يحدث نفسه في الشوارع كالمجنون، ما يزال أنيقاً ومرتباً لكنه لم يعد ذلك الرجل العاشق، إنني أعرفه، إذا جلست بجانبه لدقائق ستدرك بأنه ليس على طبيعته، لقد صادفته مرات عديدة، لكني لم أجعله يراني، أنا أتعاطف معه، الكثير هنا في المدينة يعرفون قصّته، وينظرون له بشفقة، لكنّه لا يبالي، ويستمر في العيش بطريقته، بداخل العالم، لكنه بعيدا عنه».

لقد تشوّقت لمعرفة كاظم من حديثه، هذا الرجل قتله الحب قتلة مشينة، لم يمت، لكنه ليس عائشاً ولا يرى نفسه كذلك. «الآن كما ترى، منذ أشهر بدأت قبيلة عبد الواسع بالظهور كثيراً، ولم يعجب القبيلة الأخرى هذا الأمر، وتحدث بينهما العديد من المناوشات والاشتباكات بين فترة وأخرى، قبل شهر أصيب طفل في العاشرة برصاصة، طفل لا ينتمي لإحدى القبيلتين، كان ماراً عند عودته من المدرسة أثناء اشتباكهما، ولا أعلم هل أصيب أحد أو قُتل اليوم».

انطلق لساني حينها: «يا للأسى، وحمداً لله أنه لم يمت، هذه هي المشكلة أن ندفع ثمنا لأخطاء لم نرتكبها، ونتحمل وزر ذنوب لم نقم بها، أن نكون ضحايا لهمجية ننكرها ولا نطيقها، ولا نرغب بها، أن نرى الموت قريباً منّا كلما ذهبنا إلى جهة، حتى أصبحنا لا نعلم إلى أي مكان نفرّ إليه، وكأن حروب الساسة القبيحة لا تكفي، أيضاً يستمر الآخرون بحروبهم ويفتعلونها كذلك، ومازالت هذه البلاد تتضخم وتكبر لتكون كافية للمزيد من الرعب والقتل والدماء».

تنهّدت، وشعرت بغضب شديد حينها، وهو غضب أشعر به مراراً، غضب ليس موجهاً لأحد، ولا أعرف مصدره وسببه، نعم بنسبة كبيرة هو بسبب ما يحدث في هذا البلد، لكن من غير المعقول أن يعيش المرء عمره بأكمله غاضباً، السبب الذي يغضبك عندما يتكرر كثيراً لن يغضبك مجدداً، ستعتاده، إننا نعتاد الموت هنا، إلا أنني مازلت أغضب، لذلك أنكر بأن وضع البلد السيئ هو السبب، أنا غاضب فقط، غاضب ولا أدرك السبب. استمر الرجل بالحديث لكن القصة انتهت بالنسبة لي، بعد أن أصيب ذلك الطفل، لم أبدُ مصغياً له، صمتُّ لثوان، ورأيت المركز الليبي أمامي، عدّلتُ جلستي، وتهيأتُ للنزول. ركن السائق التاكسي جانباً وسألته عن المبلغ الذي يريده، لأسمع تلك الجملة التي اعتدت سماعها «كم ما شتيت»! أخرجتُ خمسة آلاف، وقبضها دون أن يعدّها.. ترجّلت من التاكسي، كنت لم أقم بأية خطوة بعد، إلا أنني لمحتُ ذلك الرجل الغريب ذاته الذي اختبأنا سوياً، يمشي من أمامي ويحدق ناحيتي، ابتسمت له، وأنا أتمتم في نفسي، لابد أنه عرفني، توقف الرجل وهو ينظر باتجاهي، وما يزال ثوبه مرفوعاً لخصره، رغم أن الاشتباك توقّف،

وقد انتقل هو لشارع آخر، لكنه ما يزال على هيئته تلك، لابد أن الأمر يروق له. حدّقت به بفضول وبغرابة، ورأيت العلامة التي في جبينه بارزة، في تلك الثواني، وأنا أتساءل: «لماذا لم يتحرك هذا الرجل؟»، في الوقت الذي رفع فيه مسدسه وصوّبه باتجاهي، نظرت خلفي، فرأيت سائق التاكسي بالوضعية نفسها، يصوب مسدسه هو الآخر باتجاهي، فهمت حينها بأنهما كانا يصويان على بعضهما، وأنا أقف بينهما في ذهول، سمعت رصاصات عدة أُطلقت،

لكني لم أفهم شيئاً، لم أعرف شيئاً مما حدث، كنت أشعر بألم شديد، وبرودة في أطرافي، والدماء تملأ قميصي، لم أغب كاملاً عن الوعي، كنت أرى ذلك الرجل الغريب يهرب، ورجل ما يحملني إلى سيارة، كنت أغمض عينيّ وأفتحهما وأنا مرمي على المقعد الخلفي، لمحت الرجل الأصلع ذاته يسوق، كانت قدميّ ممددة خلفه، ورأسي خلف الكرسي الذي كنت جالسا فيه، أحدهم كان بجانبه راكبا، وينظر إلي، رأيته للمرة الأخيرة وأغمضت عينيّ. أحدهم تكلم قائلاً: «قد لا يجدي إسعافه، لقد دخلت الرصاصة في صدره». وكانت تلك آخر كلمات سمعتها.

عمر العمودي.

ألعابٌ مُحرَّمةٌ

السماء ملبدة بالغيوم، توحي أن هناك أمطارا تغسل المدينة، توحي بأن اتساخ الأفكار العالقة تحتاج ماءً نقياً، ولكن لا نعلم حقاً أي نوعٍ من الأمطار تلك التي توحي بها تلك الغيوم، ففي القديم كانوا يقولون، إن السماء تبكي فرحاً، فتأتي بأمطارٍ غيثٍ تطهر وتنبت وتوحي بتجدد الحياة، وأن السماء تبكي حزناً، حينما يتعلق الأمر بحزن يصنعه الإنسان كالشر، والظلم..

أخذت مظلتي، وأمي تهرع خلفي:

- أين عتسير يا سامي؟

خرجت مستعجلاً رامياً لها بكلمتين:

- اخرج خارج مع أصحابي.

صرختْ بأعلى صوتها:

- أيش عتسوي بالمظلة؟ ما قد جاش المطر!

زمجر الرعد، بصوته يخبر أمي بقدوم المطر، سكبت السماء ما عندها من دموع كثيفة، تبللت ملابسنا ونحن نتقافز ونصرخ فرحاً أنا وأصدقائي. الجبال تحولت إلى ملابس مبللة، الشوارع في صنعاء منها ما اغتسل ومنها ما ازداد اتساخا..

فتحت مظلتي، احتميت تحتها، ابتسامة عريضة ممتلئة بفرحة طفولة عارمة بقدوم المطر. الأجواء تحولت إلى ثلاجة ممتلئة برودة، أسناننا ترتعش برداً، أمهاتنا من النوافذ يطللن علينا صارخات: "ادخلوا، عتثلجوا من البرد، عتمرضوا".

ونحن لا نبالي، قفز صديقي رامي يقول لنا:

- جو لا عندي اشتي اجابركم بموضوع.

شكلنا دائرة متقاربة، أنفاسنا يصعد منها الدخان، أسناننا مرتعشة، وثيابنا وشعرنا يقطر منهما المطر، محاولين النطق بصعوبة:

- مااا هو الأمر؟!

قال لنا:

- أبي قال لي مرة إن الذي يدعي في المطر الله بيستجيب له، والذي معه أمنية يدعي بها في وقت المطر خيرات عسب تتحقق، فالله بيستجيب لنا، ويقول لي لأنك طفل ما بتفعلش ذنوب عيستجيب دعاءك ويحقق أمنياتك إذا بتدعي.. ما رأيكم نغمض عيوننا ونرفع رؤوسنا للسماء، ونتخيل سكتة الأمنيات الذي نشتيها تتحقق لنا؟!

الكل صرخ: "هيّاااا. هييي"، بفرح، والكل يتقافز، ويتصاعد الماء من تحت أرجلنا.

أغمضت عيني، بدأت أفكر ما أريده أنا، حقا، لم أتذكر شيئًا أريده بالضبط سوى أن أتخلص من الأعمال الشاقة التي يكلفني بها أبي، وأجد الوقت الكافي لألعب وأمارس ما أحب، وأن أكمل تعليمي، نعم، هكذا خطر فقط في بالي..

بعد أن انتهينا، الجميع فتح عينيه، الجميع يتساءل: ما كانت أمنياتكم؟ هناك من قال إنه يريد أن يسافر حول العالم ويستكشف، ومنهم من قال إنه يريد أن يكون طبيباً، ومنهم من قال مهندساً، ومنهم من قال طياراً، ومنهم من قال أن يملك ثروة.

"وأنت يا سامي ما هي أمنيتك؟".

كنت سارحا، لوح لي احدهم بيده صافعا وجهي: "هي اين سرحت؟ أخبرنا ما هي أمنياتك؟".

عيناي الناعستان الممتلئتان ذبولا رفعتهما متسائلا:

"أنا..هاااه؟! أشتي ألعب خيرات، وأكمل تعليمي".

الجميع ضحك هازئا: "ما لك؟! هذه أكيد، مش أمنية،" صحت: "مدري".

في كل مرة أحاول أن أنام في وقت مبكر، أغمض عينيّ والأفكار تدور حول رأسي بأنني طفلٌ لم يعشْ بالقدر الكافي من الطفولة. أسمع صوت أمي وهي توشوش أبي بصوتٍ خافت لا يكاد أن يُسمع، أحاول أن أسترق السمع خلسة من تحت غطائي، لم أفهم شيئًا عما يتحدثان به، لكن إحساسي يقول بأنهما يتحدثان بأمر مهم عني. خلسة من بين الكلمات التي لم أفهمها سمعت كلمات أمي وهي تقول: "ضروري غطوة نقطف خبر".

نمت. في الصباح الباكر حاولت أن أستيقظ باكراً للذهاب إلى المدرسة، لكن أبي اعترض ذلك، وقال:

- المفروض انك تعاونّي في العمل، عشان مصاريفي ومصاريفك

ومصاريف اخوتك، والزلط عترجع لك ولمستقبلك".

- مستقبلي؟!

تقول مستقبلي وأنت تريد أن تحرمني من تعليمي، كيف ذلك؟ كيف؟! هرعت أبكي إلى المنزل. الدموع تسيل على وجنتيّ.

أمي تسألني:

- ماذا بك، ماذا جرى؟

انفجرت في وجهها بكلمات متقطعة:

- أبي، أبي يريدني أن أخرج من الدراسة، يشتيني اسير أشتغل معه وافلت دراستي.

أجابتني بأن أبي يريد لي مصلحتي من أجل أن أتحمل مسؤولية نفسي!

قلت:

- أريد أن أتعلم مع أصدقائي وألعب يا أمي، ألعب بالقدر الكافي، لماذا تحرموني من كل ذلك؟

- لأنك ولد لابد أن تكون رجلا وتعرف مهامك، وأنك سوف تكون صاحب مسؤولية على إخوتك وعلى نفسك وكذلك..

صمتت ولم تكمل كلامها، لا أعلم لماذا بالضبط، ماذا تخفي أمي في ملامحها؟ تخفي أمراً كبيراً لا أعلم ما هو وماذا بعد ينتظرني أكثر من أنني أُحرم من التعليم وأعيش طفولتي بالقدر الذي يمارسه أصدقائي.

كان أحمد، ورامي، وسعيد وجميعهم يمرون من أمام باب محل أبي، يحملون حقائبهم ويرتدون ملابسهم المدرسية، يلوحون لي ضاحكين:

- عتجي تدرس معانا؟

أطأطئ رأسي، عيناي تنهمر منهما الدموع من دون استئذان، ماذا عن طفلٍ في عمر الثالثة عشر لا يحلم بأكثر من حياة ممتلئة بالطفولة؟؟

في التاسعة مساء ناداني أمي وأبي بصوت واحد:

"تعال يا سامي، تعال اجلس هانا، نشتي نتحاكى معك بخبر. لازم تعرف ايش هو".

قلت: "خير ايش هو؟".

قال أبي أولا وأمي بجانبه- ولأنه هو الرجل وله الحرية في الأمر والقول هكذا كان عادة الرجال عندنا:

- اسمع يا ابني، قد أنت صرت رجال، وقد أنت تشتغل على نفسك، وعند المسؤولية، نحن نشتي نبسرك حريو، قبل لا نموت أو يصير لنا لا سمح الله حاجة.

قبل أن أتفوه بكلمة قاطعتني أمي قائلة:

- أيوه يا ابني أشتي أبسرك حريو ملان الدنيا، واشتي ابسر چهالك، واشتي تكون رچال وقد أنت معتمد على نفسك. رجَّال! ماذا يعني رجَّال؟! أنا ما زلت في نظر والد رامي وسعيد وأحمد طفلاً يدرس ويلعب ويجري ويعيش طفولته.
- ايش يعني اتزوج؟ أنا ما أنا عارف ايش يعني الزواج أنا أشتي ألعب، أشتي أشتري ألعاب وألعب؛ أشتي أدرس، ليش كذا تحرموني كل شيء؟!

حينما تمر عليك الذكريات تكون الأيام مثقلة كعجلات حافلة، تكسر أضلاعك، كابوس الذكريات لا يفارقني كلما عادت بي ذاكرة الزمن إلى ما توصلت عليه..

أخرجت لي أمي أجمل الملابس التي كانت تخبئها لأيام الأعياد أو للمناسبات فقط. سألتها: "ما المناسبة التي تجعلني أرتدي الملابس الجديدة اليوم بالذات؟". أخبرتني أن هناك أمراً سوف يسعدني طيلة حياتي!

ظننت أنهم سوف يعيدوني للمدرسة، أو سوف يخرجوني لأشتري دراجة هوائية، مثلما كنت أحلم، لكنها أجابت بكل فرحة:

- عاد نسير نخطب لك بنت خالتك رحيمة.

لم أفهم بالضبط ما الخبر، تساءلت:

- كيف يعني ذلك؟ كيف سوف تخطبون لي؟!

أجابت بأنها سوف تخطب لي، ثم بعد سنة سوف يكون الزواج، بعد أن يرتبوا لي غرفة من منزلنا للزواج فيها!

- لكن أنا! أمي أنا لا أعلم كيف يصبح ذلك.. أنا عمري ثلاثة عشر عاما أريد أن أكمل دراستي، أريد أن ألعب كثيرا..

ارتديت ملابسي وذهبنا إلى منزل خالتي الذي يبعد مسافة ساعة واحدة حتى وصلنا، استقبلتنا وهي تضحك فرحة.

العالم يرسم صورة بداخلي، يرسم طفلاً آخر، طفلاً بهيئة أحلام أخرى وواقع آخر لا يشبهني أبدا، كل إطارات الصور غير قابلة للحياة مجدداً، لربما سوف أستعيد طفولتي مع ابنة خالتي، سنلعب كثيرا، ونجلب ألعاب بعض؛ هذه الصورة التي حاولت أن أرسمها بداخلي بشكل جميل، هكذا تشكلت لي قصة أنهم سوف يخطبونها لي مثلما قالوا.

رأيت ابنة خالتي (مرام) التي كان عمرها إحدى عشر عاما، تصغرني بعامين، جاءت مرتدية الحجاب وخصلات شعرها الأشقر تتدلى من نصف الحجاب، بيضاء البشرة مائلة إلى الاصفرار بوجه دائري جميل، وغمازتين في وجنتيها الناعمتين، مبسمها الصغير لا تفارقه ابتسامة الحياء، عيناها الواسعتان مائلتان إلى الاخضرار، كانت طفلة جميلة جداً، ترتدي فستاناً أزرق، جلست بجانب خالتي مطأطِئة رأسها بينما أنا الذي يقولون عني الولد المشاغب كنت في ذلك اليوم لا أعلم ما الذي جرى، جالسا بجانب أمي وأبي. الحزن يعتلي ملامحي، أحاول أن أبتسم لكن الابتسامة تعصي شفتيّ، سمعت خالتي تقول:

- تقدم لها ابن عمتها، والكثير من المعاريف لكن قلت قد هي مربوطة على ابن خالتها.

قفزت قائلا: "هيا مرام تچي نلعب"!

مرام حاولت أن تقفز لكن أبي شدني من يدي وأجلسني، لا أعلم حقا لماذا نُمنع من اللعب!

قال أبي: "بعد سنة عنزوجهم إن شاء الله وعيعقلوا.

تنهدت خالتي وقالت: "إن شاء الله".

عدنا إلى المنزل بعد أن استرقنا أنا ومرام اللعب خلسة في منزلهم، خلف البيت أخرجت مرام علبتها الممتلئة بـ"الزراقيف"*.

كان يوماً جميلاً حينما لعبنا بالقدر المتاح خلسة عندما ذهب أبي وانشغلت أمي بالحديث مع خالتي.

سألتُ مرام:

- ماذا يقصدون بأنهم سوف يخطبونا ويزوجونا بعد سنة؟!

سكتت مرام وضحكت، طأطأت رأسها، قالت لي:

- أخبرتني أمي أن الفتاة عندما تتخطب فمعناه أن لا أحد يأخذها غير ذلك الشخص.

- كيف يأخذها؟!

- يعني يروح بها بيتهم وتعيش معاهم، لمّن تتزوج.

- يعني هذا انش بعد سنة عتروحي معنا وتعيشي معنا في البيت؟

- أيوه، لكن أولا قالت لي أمي أني بلبس فستان أبيض واتكوفر واوقع حريوة، بعدين أنت تأخذني معاكم وأنت كمان يعملوا لك عرس مثل العرسات اللي بتحصل.

تذكرت ابن عمي وأبناء خالتي عندما تزوجوا، وارتدوا الملابس، والغناء والمراسيم الكثيرة، لكن أنا أريد أكمل دراستي أولا!

وصلت منزلنا، الأفكار تدور في رأسي كطائرة تحوم من دون طيار، سوف تصنع حدثاً مروعاً لا أعلم ما هو بالضبط الخوف اعتراني، لا أعلم حينها كيف سأتجاوز الحياة هكذا بهذه الطريقة، وأنا سوف يصبح عمري وقتها أربعة عشر عاما، أربع عشرة سنة من الخوف والأحداث والمواقف التي سوف أواجهها بمفردي!

عمرٌ لم يتجاوز حدود أحلامه، بل كسر قبل أن ينمو قبل أن يطير عالياً ويحلق في فضاء الحياة كما تحلق طيور الحرية، هذا الجناح كسر، أصابته حجارة الواقع الممتلئ بعادات وتقاليد لا تنضب ولا تتجدد، بل تظل عالقة فينا كأديان سماوية يستحيل أن تخترق قوانينها.

كلما مرَّرْتُ الذكريات في مخيلتي يأخذني الزمان لتلك الذكريات، أحداث لا يمحوها الزمن، مرت الأيام وأنا ما زلت عاملا مع أبي، أضع المال عند أمي، أو كما كانت تنتظرني عند أول مجيئي إلى المنزل تأخذ مني المال وتقول لي: "لأجمع لك من أجل الزواج".

كنت أرى كل مرة تشتري لي شيئا تنظم به الغرفة وترتبها وتزينها، حتى مر العام، حددت أمي يوما مع خالتي لزيارتهم؛ سعدت حينها أنني سوف أذهب إلى منزل خالتي ونلعب أنا ومرام كالمرة السابقة!

حينها جلست أمي وتحدث مع خالتي حول تحديد موعد الزواج، كانت صفعة لم أدرك من أين أتت في مخيلتي عندما قالوا بأنه سوف يتحدد موعد الزواج! كيف لطفلٍ لم يلعب كثيراً، ولم يكمل تعليمه أن يتزوج ويصبح رجلاً في عمرٍ لا يشبه ملامح واقعه؟! الأمنيات تتسرب من بين طرقات قلبي سوى أنني لدي الكثير في قرب مرام سوف يتحقق، لربما هكذا صنعت لنفسي أحداثاً لا أعلم إن كنت سوف أفوز فيها.. هل الحياة عادلة أم أنها خدعة؟ أم أن تلك الكلمات نرميها تهمًا على الحياة التي هي من صنع أفكارنا؟

نرمي ما خلفتها العادات التي صنعناها إلى ظهر الحياة المتعَب من أفكارنا الممتلئة بالغبار.

تلك الليلة لم أنسَها، ليلة ممتلئة بأحداث رتبها لي الزمن على غير ميعاد ومن دون عدالة كافية.. لربما ليس الزمن ولا الحياة ولكنها الأفكار المتيبسة في عقول آبائنا وأجدادنا الذين توارثوها بحجة الدين والشريعة، أي دين وشريعة فرضت أن نُحرم حق العيش كأطفال!

تحدد موعد الزواج في السادس والعشرين من شهر أيلول؛ أمي وخالتي، الفرحة تغمرهما؛ مرام تحلم كيف سترتدي الفستان الأبيض والكثير من التفاصيل والمراسيم التي سوف تخضع لها كعروس.

وتم تحديد موعد يوم التحجب لمرام وانقطاعها من أعمال المنزل والاهتمام بجسدها لكي تبدو عروسا في أبهى حلتها؛ غطت جسدها لتخفيه من أشعة الشمس ليبقى أجمل ومحافظاً على صفاء بشرتها؛ وتغطية وجهها من الزائرين في تلك الفترة، حتى لا يراها أحد إلى يوم مراسم الزواج. ألبسوها "عقد المرجان" ووضعوا لها زهرة "الشذاب" في غرفتها وعلى ملابسها، وعلى صدرها "المرجان والشذاب". كانت النساء تهتم بتلك التفاصيل.

تتساءل مرام: "لماذا يا أمي كل ذلك يوضعُ لي؟".

حينها أخبرتها أمها أن العروس لا بد أن تحتمي بعقد المرجان والشذاب من عيون الناس والشياطين: "الحريوة يا ابنتي تكون عرضة للعين الحاسدة، الله يحرسش من عيون الناس يا بنتي".

ابتدأت مراسم الحمام التركي (كما نسميه)، حيث كان لي نصيب بأن غسلتني "المكيسة" التي تهتم بنظافة العروس.. غسلتني ودلكت جسدي وأنا مغطاة بالكيس حتى أصبحت عروساً جميلة، ثم استقبلتني النساء اللواتي ذهبن معي إلى الحمام التركي. استقبلنني وألبسنني الملابس الصنعانية القديمة، ثم بدأت مراسم الغناء والنساء من حولي يغنين بأصوات جميلة قائلات:

"جيتْ أركِّز لش مشاجِبْ

جيتْ عاني معتني

والشذاب أخضر مُغيِّلْ

فوق رأسش يالقمرْ

سيِّروا ما بين ثنتين

والقمارى يحجرين".

عدت إلى المنزل مع النساء، وبالغناء استقبلوني في وقت الظهيرة، وبمزاهر النحاس الممتلئة بالشذاب والورد البلدي الحامل ألواناً جذابة باللونين الأصفر والبرتقالي، وقدمت للضيوف وجبة الغداء. جاءت النساء حولي مرة أخرى بالغناء والعزف، ارتديت الملابس الصنعانية الجميلة الممتلئة بالفضة والبرقع المرصع بالفضة، أخطو بجسدي الرشيق أتمايل بمشيتي وأتذكر إلى أين سوف أذهب؛ إلى منزل خالتي. هل حقاً سوف يكون سامي زوجي، سامي الذي ما يزال يعشق اللعب مع أصدقائه، ويسترق خلسة - عندما يأتي مع خالتي- ونلعب سويا، هل سوف يكون رجلاً عند مسؤولية الزواج مثلما كانت أمي تعلمني وترشدني؟!

كنت مرتدية النقاب الذي يغطي وجهي، عيون النساء تتفحص ملامحي التي تبدو مختفية، لا أحد يرى مني سوى عينيّ. استمر الغناء إلى آخر الليل والجميع فرحين؛ بينما أنا سارحة بأفكار لا نهاية لها وتساؤلات لا أجوبة عليها. رقصنا ومرحنا تمايلنا وانحنت أجسادنا نحو الأرض نود أن نعود فيها هاربين من تعب الحياة، من أعمارنا التي لم تكن مهيأة لحياة كهذه!

كان يوم "الذبال" الذي جهز فيه "المشجب" من تلك المراسم التي نشأت عليها، وضعوا لي فيه الشمع وأزهار الشذاب، والبيض الملون، مشيت إلى الأمام والنساء تزفني بكلمات الغناء، وصلت إلى "الكوشة" وضعوا أمامي المشجب..

في اليوم التالي، قد أهلكتنا العادات والمراسم التي لا تنتهي، نحن ملزمون بإتباع تلك الحياة والمراسم والعادات التي تشكلنا على مسيرة أفكار من أتوا بها!

مددت يدي للمرأة التي تنقش يدي بأزهار جميلة تشبه أزهار أعمارنا، لكن أعمارنا لم تكن بذلك الجمال!

ارتديت فستانا جميلا مطرزًا مزخرفا وارتديت مجوهرات الذهب، كان شعري مزينا بتلك التسريحات التي تميزني كعروس. النساء يزغردن من حولي ويغنين قائلات:

"مدِّي يدش لحناش

عادت أمِّشْ والبنات

وارجلش أرجل حمامي

يا شويق الناقشة

واحذرش قيلتْ وقالوا

واحذرش قيلت وقال،

واحذرش طلعت جباهم

قطفي ريحانهم".

مراسيم الذبال لسامي كانت مختلفة، حيث وأنه طفل يشبه الملائكة، يحاول أن يبتسم ووجهه ممتلئ بالتساؤلات عن الحياة، قائلاً متمتما في نفسه "الحياة لم ترسم لي مثلما كنت أحلم، لا أعلم لماذا نحن الأطفال في تلك العادات مرغمين أن نطيعها كديانة وكتابٍ مقدّس!

جاء يوم الذبال بعد أن اكتملت أيام الذبال لمرام مثلما كانوا يقولون لي. أمي تكفلت بأن تعزم النساء من أهل عروستي، وتعالت الأصوات بالغناء الذي كان هو عزاء أو رثاء عندما أتذكر تلك اللحظات، ثم تلاها بعد يوم "المقيل" وسهرة الرجال وأتى والدي بالفنان، وكان الديوان ممتلئًا بالأوراق الخضراء (القات)، والدخان، والرقص، لمراسم الرقص الصنعاني، بينما عروستي كانت تجمل في الصالون للزفاف أو بما نسميه "ليلة الدخلة". لم أكن أعلم ما هو الواجب والغرض من تلك التسميات وهذه المراسم، ربما هي لمن يهتم ويفرح ويعلم، وليس لطفلٍ في الرابعة عشرة من عمره!

وصلت عروستي بموكب وطلقات نارية كانت تصيبني ولم تصب الهواء الطلق أو سماء صنعاء، كانت تصيب سماء قلبي، ليس فرحا، إنما حزنٌ بشكل مختلف. ظل الرجال من الأصدقاء والجيران مواصلين سهرتهم، بينما أبي مد يدي وقال:

- أمسك يد عروستك.

أمسكت يدها، وتذكرت وأنا أجرها لنلعب سويا، أبي قال لي:

"أنت رجل وكن عند الأمانة"!

أي أمانة يقصدها؟ هي ابنة خالتي، يقولون بأنها زوجتي وعروسي. يعني سنصبح سويًا، لا أحد يحاسبنا في غرفتنا على عدد الساعات التي سوف نقضيها معاً في اللعب! أنا منذ يوم حملت كل ألعابي خلسة من أمي وخبأتها في دولابي وأغلقت باب الدولاب بيدي حتى لا يكتشف أمري، لا أعلم لماذا أمي وأبي يحاسباني على حق طفولتي من اللعب! الأسر التي تحمل شهادات تعليم كافية تفرض الزواج على أولادها الذين لم تشبع أرواحهم من اللعب والمرح والتعليم.

نحن واجب أن نكون بهذا الحال، واجب علينا إتباع تلك العادات التي لا تشبه أحلام طفولتنا.

أخذت يدها وجريتها كما كنا نلعب. ضحك الجميع قائلًا: "مستعجل يشتي يبسر الحلا".

رفعت لها الطرحة البيضاء التي تغطي وجهها؛ لم تكن مرام التي كنا نلعب معا، تبدو بملامح امرأة، بينما أنا يعكس وجهي براءة الطفولة وقلبي الذي ما يزال يطرب لحياة الطفولة..

همست لها خلسة في أذنها:

- نحن أصبحنا وحيدين، وبحرية، نستطيع أن نلعب سويا ونمرح مثلما نشاء من دون أن يراقبنا أحد أو يمنعنا، أصبحت لدينا غرفة كاملة، نسرح ونمرح فيها، حضرت لك اليوم بعد أن تغسلي وجهك وتغيرين ثيابك، تخيلي ماذا سوف نلعب؟

- نلعب؟! ماذا يعني؟ اليوم زفافنا؛ أنت لا تعلم ماذا يعني يوم زفافنا؟! لا يهم، أولا أخبرني عن اللعبة ما هي؟

- سنلعب لعبة "النرد" تعرفينها، تسمى كذلك "الزهر".

- سامي ليس وقت الألعاب نحن لم نعد أطفالا، نحن كبرنا الآن وأصبحنا عروسين.

- أنا لم أكبر يا مرام، أنا ما زلت أحب اللعب، ما زلت أود إكمال تعليمي الذي حرمت منه.

- لكن الآن أنت لديك أسرة، وبيت، معك عروسة، أنا أمامك عروسة، سامي تعرف ماذا يعني عروسة؟ لم يخبرك أبوك أو أمك بذلك؟!

- عن ماذا؟

- عن الزواج؟

- قالوا إن علي أن أكف عن اللعب والتعليم، وسوف يزوجاني من أجل أن أكون رجلا، لم يخبرونني أنني سوف أجدك بهكذا حلة، وبهذه المراسم، أنا أعلم مراسم الزواجات التي تحصل عندنا في صنعاء، لكن لا أعلم حقا لماذا مكتوبٌ علينا أن نتزوج ونحن في هذا العمر؟! أنا لم تكتمل أمنياتي وأحلامي حتى أصبح رجلا يمسك مسؤولية وتصبح لديه أسرة..

- ألم تحبني يا سامي لنكون معا؟

- بلى أحببتك كصديقتي منذ الطفولة، أحببتك لنكون معا بأكثر حرية بعيدين عن أهلنا لنلعب سويا من دون قيود.

دمعت عينا سامي حينما وجد نفسه في حال غريب لا يستطيع أن يتصرف كولد في عمر الرابعة عشرة، كيف له أن يكون رجلا يعيش حياةً زوجيةً لا يعلم عنها شيئا؟! كيف لهذه العادات أن ترمي بطفلٍ لزواج قاصر لا يشبه ملامح قلبه البريئة، بينما مرام أنثى رغم طفولتها ورغم ما تحمله من عمر صغير إلا أن والدتها شرحت لها تفاصيل الزواج وكيف عليها أن تتصرف..

بعد زواجنا، في اليوم الثاني بحثت عن سامي في السابعة صباحًا، كان في إجازة من العمل مع والده- كونه عريسا - إلا أنني فتحت النافذة خلسةً فوجدته مجتمع مع أصدقائه يلعبون كرة القدم في الحارة. وددت لو أنني أستطيع اللعب في الجهة الأخرى مع الفتيات، إلا أنني تذكرت كلمات أمي "اوقعي مره عاقلة، تدبر حياتها وتجلس في بيتها، ما توقع جاهلة يقولوا عليها النسوان".

ناديت سامي من خلف النافذة، جاء سامي بعد أن ضحك عليه زملاؤه في الحارة قائلين له: "أنت الآن رجل، يقولون عنك أنك تزوجت، أخبرنا ما هو الزواج وكيف هو معك؟".

نظر لهم سامي نظرة غضب، امتلأت عينيه بالدموع، وغادر.

أمسكت بيده قائلة: "سامي أريد أن أخبرك أمرًا لا بد أنك تعلمه".

كان صامتا مطأطِئًا رأسه، الذهول يملأ ملامح وجهه، انفجر ضاحكًا في وجهي، قبلني قبلة على جبيني وخرج هاربا من الغرفة..

أمي تسألني: "كيف كانت الزواجة يا ابني؟! كيف الحريو حقنا؟! اليوم عيوصلوا عمك وصهورك، عشان يسلموا على بنتهم وعيشوفوها".

هذه المراسم واجبة في اليوم التالي "أن يزور أهل العروس ابنتهم إلى منزلها".

لم تعلم أمي بأن الطفل الذي بداخلي كان حيا وبدأ يموت وينمو بداخلي رجل، مات من يوم أن أخبرتني مرام بكل شيء وماذا قالت لها أمها. أصبحت أحاول أن أكون رجلا رغم أنني ذكر لم يبلغ الحلم بعد.

ماذا يمكن أن يكون حلم وأمنية شخص في الرابعة عشرة من عمره سوى أن يحاول إثبات رجولته بعد أن كتبت عليه العادات أن يكون كذلك، وأن يموت الطفل في داخله بعد أن كتبت عليه المسؤولية ويتزوج!

في اليوم الثالث قررت أنا ومرام أن نزور أمها.

أخبرتني أمي بأن من الواجب علينا في اليوم الثالث من الزواج- كما يقولون- أن نزور أهلها وأمها ونضع لها "سلام" نضع لها مبلغًا ماليًا.

وصلنا وخالتي أم مرام محضرة لنا الغداء والأكل الجميل، وجلسنا عندهم إلى منتصف الليل، ثم غادرنا.

الأيام تمر والأحلام والأمنيات التي ولدت في داخلي ماتت. لم أعد ذلك الطفل الذي يحمل في مخيلته الكثير من الأحلام، أن يصبح مهندسًا أو طبيبًا كما كان يحلم أصدقاؤه أمامه. لم أكمل تعليمي! ولم ألعب بالقدر الكافي، لكن الألعاب كانت محرمة في نظر العادات! لم أعش طفولتي، بل سرقت من جيب أمنياتي، وحولتني الحياة بعاداتها القاسية إلى رجلٍ في السادسة عشرة من عمره في بطن زوجته طفل.

_____

*الزراقيف: هي الكرات الزجاجية التي يلعب بها الأطفال.

دعاء الأهدل

قلمٌ في مشنقة

تلك الطفولة التي تتشكل طوق فرح، وإكليلاً من الحياة السعيدة التي كلما تذكرتها دونتها في معلومات الأصدقاء الذين أقابلهم. أتحدث بثرثرة مزعجة، عن تلك الطفولة التي لن تتكرر. الزمن يطوي صفحاته وتغلق الأيام ذكرياتها بينما نحن نظل عالقين في أحلام نرسمها لأنفسنا في عالم لا يشبه واقعنا في شيء، ولأننا نختلف كثيراً عمن حولنا فنحن نحمل أفكارًا تشبه حروفنا المدهشة. كنت ذات ملامح جميلة وابتسامة جذابة، بوجه دائري، وبشرة حنطية، وشعر بني، وعينين واسعتين عسليتين، وحاجبين رفيعين، وشفتين كالكرز، متوسطة القامة وجسم ممتلئ؛ تلك صفاتي التي كانت أمي تمتدحني بها..

أسترق الصحف التي كان والدي يجلبها معه إلى المنزل، وأختار إحدى الزوايا وأبدأ في تقليب الصفحات وأقرأ بشغف، ألتهم الكتب بشراهة حينما أجدها، حتى وإن كانت غير مهمة. كنت أحاول أن أكتب العبارات الجميلة في رسائل الصديقات التي أبعثها لهن أثناء دراستنا، كنا نتبادل الرسائل. أكتب عن الصداقة وعن الحياة وعن مشاعري الطفولية والأحلام التي أرسمها في مخيلتي، أدونها في مفكرتي الخاصة؛ كل فرح وكل حزن، كل إعجاب كنت أدونه، أي عبارات لشعراء وكُتاب في المجلات، كزهرة الخليج، ومجلة شقائق وغيرها من المجلات، كنت أقص الورق التي تمثلني أو تعجبني وأخبئها في خزانة مفكراتي وكتبي المدرسية.

كلما تقدمت في سنوات العلم كنت أرى نفسي بطريقة مختلفة. أحب بشغف الوقوف في الإذاعة المدرسية، والإمساك بالميكروفون، عندما أصعد أمام الطلاب والمدرسين أحاول أن أضبط شعوري، وكأنه لا أحد أمامي، أملك الثقة لأني شغوفة بالميكروفون.

كنا أنا وزميلاتي في المدرسة نقعد على الطاولات في الاستراحة المدرسية، حيث كل واحدة منا تسرد حكاياتها وماذا تحب، والهوايات، كانت رباب وأحلام تتشاجران كثيراً، حيث رباب تقول: "سوف أكون مدرسة". بينما أحلام تقول لها: "نحن في هذه البلاد لن نكمل الدراسة، ولأن أمي قالت لي أن الفتاة يجب أن تتعلم إلى أن تعرف تقرأ ومن ثم ليس لها إلا بيت زوجها". كنت أتعجب منهن كثيراً وأضحك، أدلي برأيي قائلة: "أما أنا فسوف أكون..".

يرددن: "ماذا ماذا تريدين أن تكوني يا جمانة؟".

أحاول أن أجعله سراً، لكن شغفي يفضحني أمامهن ولأنهن يعلمن مدى شغفي بالميكروفون، يقلن أنت سوف تكونين إعلامية، وربما تكونين كاتبة أو شاعرة، لأنك تحبين الكتابات وأن تظهري في الإذاعة المدرسية. تبسمت لهن هازّة رأسي بتأكيد على كلامهن.

أحمل في جيب قلبي أمنياتي التي لا تمحى من مخيلتي، حيث أني كل يوم أسجلها في مفكرة يومياتي، وأعد الأيام والليالي المتبقية على استكمالي مرحلة الثانوية العامة، فلم تبق أمامي سوى أيام معدودة وأستكمل مستقبلي الأصغر، وأدخل في حلمي الأكبر.

أمي تخبرني بأن ملامحي وبنية جسدي بانت بفتاة ناضجة شابة جميلة، تقول لي ستصبحين في يوم ما أجمل عروس. لكن ذلك الكلام يشعرني بوخزة ألم في قلبي وتبدأ ملامح وجهي بالتقلب. أحمل نفسي وأذهب خارج الغرفة، أجلس مع نفسي، أتأمل كلمات أمي، قائلة في نفسي "لماذا أمي تنظر إليّ بتلك النظرة؟ لماذا حتى أمي مثل أمهات صديقاتي يهمها أن الفتاة تكون عروس؟!".

نحن نحمل أحلاماً وأمنيات خارج حدود العادات والعرف والقبيلة، أن تكون فتاة في بيئة لا تؤمن بقدرات الأنثى سوى أنها تجيد الطبخ. أكملت العام الدراسي وها أنا في عام من الإجازة التي هي فسحة الشباب في التفكير في توجههم نحو أي قسم سوف يسلكونه، ويبدؤون في البحث والقراءة والمراجعة ليتم قبولهم في إحدى الجامعات، بينما أنا التي توصلت إلى مرحلة التفكير الممل بأنني أود أن أكون إعلامية، وأن ألتحق بقسم الإعلام وأصبح أكثر شهرة ببلاغتي وحرفي!

الأمر صعب عليّ أن أفتح النقاش والحديث مع أبي وإخوتي الذين يكبرونني بأعوام كثيرة، لا وليس هكذا بل إحدى بنات أخي في تقارب من العمر بيننا، هناك تنافس بيننا.

تجرأت بعد أيام من التفكير وتشجعت بفتح الموضوع مع أبي، وأخبرته إنني أريد الالتحاق بقسم الإعلام؛ لكن ليس في مدينة رداع، بل في مدينة صنعاء حيث في جامعاتها أقسام كثيرة للإعلام.

تغيرت ملامح أبي وبدت عليه علامات الغضب! توقفت ولم أكمل حديثي معه، قال: "ليس لدينا فتيات يسافرن خارج المدينة للدراسة. إذا وددت أن تكملي تعليمك ادخلي أحد الأقسام المتواجدة في مدينة رداع".

اكتفى بحديثه من دون أن يسمع مني كلمة واحدة. توقفت أفكر واليأس يحيط بي، جامعة رداع لم تكن فيها جميع الأقسام سوى أقسام التربية، يجب عليّ أن أرضى وأدخل قسم الرياضيات، ولن أجعل السنة من عمري تذهب هباء.

غادرت المكان بعد أن غادر أبي وأنا أبكي؛ أمسكت القلم والمفكرة وبدأت أكتب وأعبر عن ألمي بتلك الأشعار التي كانت متنفسي الوحيد، الكتابة هي الهروب من حرب الأفكار والعادات.

كنت أسترق الوقت مع نفسي وأقرأ الكتب التي أجلبها من الأصدقاء عبر الانترنت، أصدقائي الشعراء والكتاب؛ كنت أقرأ لمحمود درويش، ولنزار قباني، والجواهري، والمتنبي، كنت أقرأ الروايات العالمية والعربية للكثير من الكتاب كديستويفسكي وتولستوي؛ ولأحلام مستغانمي وغادة السمان، والكثيرين الذين كانوا رفقاء وحدتي وصمتي.

أن أكشف بأنني شاعرة هنا لربما سيصبح الأمر أبشع من أنني أريد مجالا يدعو للانفتاح.

سجلت في جامعة رداع، وكان ذلك في تموز من عام ٢٠١٧م. قُبلتُ في قسم الرياضيات، عام وأنا في الإحباط واليأس اللذينِ يرافقاني، عام مليء بالوجع والغصة في حنجرتي، لم أستطع أن أكمل العام الآخر حتى قررت الانسحاب من تلك الجامعة. الزملاء الأساتذة كانوا يحاولون إقناعي لكنني على علم تام بأنه لا يشبه تفاصيل حلمي، المكان لا يشبه شاعرة!

فتح عليّ الباب فجأة وأنا أكتب، خطف من يدي الورقة نظر إليها قائلا: "هل هذا شعر؟! منذ متى علمناكِ أن تكوني شاعرة وتكتبين الغزل والمدح، ألا تعلمين بأن الشعراء يتبعهم الغاوون؟".

الصمت يخنق حنجرتي، لم أستطع أن أجيب، مزق الورقة ورمى بها على وجهي وغادر. لملمت القصاصات خلسة، جمعت الكلمات المقطعة وكأنها لعبة الكلمات المتقاطعة التي كنت أرتبها عندما كان يجلب لي الصحف. رتبت الأوراق، أعدت الكتابة في مفكرتي وخبأتها تحت ملابسي، حتى لا يراها أبي أو أحد إخوتي فينهروني ويقومون بتمزيق أفكاري..

الكتابة خلسة، والقراءة خلسة، وكل أحلامي صارت في مخبأ قلبي، وأفكاري ممنوعة أن تصرح أو تعلن، أنا فتاة، لا يحق للفتاة أن تكون حرة، الأفكار والأمنيات والأقوال والآراء.

تحدثت مع خالتي التي يحترمها أبي، لكي تحاول إقناعه بأنني أريد الدراسة في صنعاء، في قسم الإعلام، فحدثت أبي لتقنعه قائلة له:

- جمانة فتاة مهذبة وذكية فلا تحرمها من حلمها، تفهموا تلك الفتاة ولا تحاولوا الضغط عليها بأمور ليست صحيحة.

بعد إقناعه وافق بأخذ أمي أو أحد كبير معي للسفر واستئجار منزل في فترة الدراسة، لكن الدراسة شرط أن تكون عن بعد وأذهب للامتحانات فقط. كان القرار صعباً عليّ، ولكن خيرٌ من البقاء في المنزل من دون تعليم. مرت الأيام وأنا في سعادة عارمة. أخبرت صديقاتي بقبولي في الإعلام. لدي صفحة في موقع الفيسبوك أنشر فيها قصائدي وما أكتب، هي متنفسي أرمي فيها كل أفكاري، أجمع فيها الأصدقاء الذين يقدسون الحرف.

صديقتي التي من مدينة عدن تأخذ بيدي نحو الحروف والانطلاق نحو أن أكون حرة في رأيي وأفكاري، العالم أصبح أقرب بكثير في ظل التكنولوجيا، نستطيع أن نكتب وندون كتاباتنا بعيداً عن أنظار التخلف والعادات المميتة.

سافرت إلى صنعاء للاختبارات في الفصل الأول من العام الدراسي الأول في الجامعة، اختبرت وكنت في ذهاب وإياب للفصول والاختبارات.

كانت لدي فرصة لكنني متخوفة منها، حينما تواصلت معي إحدى القنوات الفضائية اليمنية لمقابلتي كشاعرة، ترددت كثيراً خشية أن يرى والدي وإخوتي المقابلة، أخذن بيدي صديقاتي اللاتي يمثلنني في الحرف قائلات لي إن الشهرة والكتابة والشعر، تريد التمرد، تمردي على الأفكار الجاهلية التي تعانين منها وانطلقي. في المرة الأخيرة أرسلت لهم قبولي. ارتديت أجمل عباءة، والنقاب، وكنت كشاعرة واثقة الخطى، استقبلت بأسئلة حول أدبيتي وألقيت القصائد، تلقيت كلمات التشجيع الممتلئة فخرا. حينما عدت، بعد أن تم عرضها على القناة، تلقيت اتصالا؛ رقم أخي!

- ألوه، جمانة ما هذه المهزلة؟! تظهرين على قناة أمام الناس وتفتخرين بأنك فتاة شاعرة، أنتِ عار علينا لا بد لك أن تؤدبي.

أسمع صوتاً يهمس من خلف سماعة الهاتف، صوت امرأة، نعم سمعتها، أعلم من هي التي تحاول أن تدخل أفكاراً في رأس أخي أكبر من الأفكار التي في خياله، قائلا لي:

- ما تلك المقابلة التي ظهرت فيها ممتلئة بالمساحيق..

- أي مساحيق مساحيق، وكيف ذلك وأنا لا يظهر من وجهي إلا عيناي فقط!

لا أعلم إلى أي مدى يذهب بهم تفكيرهم والنظر إلى أمور لم تكن إلا في خيالهم، لماذا لم يفتخروا بأن لديهم فتاة شابة في مقتبل العمر تملك الهواية القيمة التي كان يتغنى بها الشعراء والشاعرات في الزمن القديم؟! وحتى أيام الجاهلية وأيام الرسول، الشعر كانت له قيمة والحرف يقدر، لماذا نحن عار، لماذا لا يقرؤون، ولم يسمعوا للخنساء ولغيرها من النساء اللواتي فرضن أنفسهن بشعرهن وكلماتهن، كُنّ يقدرن ويحترمن وتعلق قصائدهن في المعلقات، ونحن في زمن التكنولوجيا وزمن التطور وزمن الانفتاح، ما يزال في أفكارهم الكثير من العتمة التي لم يصلها النور بعد!

أدخلت الأفكار في رأسه، فذهب مهرولا إلى أبي يخبره عني وعن ظهوري في إحدى القنوات التلفزيونية، وأنني عار عليهم وسوف أتسبب بسمعة لم يسبق لعائلتي أن تعرف بذلك الحال!

تماسكت جيداً من أن تنفجر أعصابي في وجه أبي حينما جاء صارخاً فوقي مهدداً لي بأنه في المرة الأولى مزق أوراق الشعر الذي أكتبه، لكن هذه المرة سوف يحرمني من الدخول والخروج لو أكرر أفعالاً تنافي العادات، العادات التي هدمت أكثر الفتيات ذكاءً وشغفا بالعلم والمواهب، لكنها دفنت حينما تعلق الأمر بالأعراف القاتلة. لا أستطيع الصمت أمام تلك الأفكار، لا بد أن أثور لا بد أن أتمرد، كنت أهرب إلى القراءة علها تنسيني ما أواجهه، وتأخذني إلى عالم لا يشبه ما أعيشه، أحاول أن أعيش لحظات الخيال مع الكتب، أتذكر حينها أن الكتب تمدني بالأفكار الواسعة العميقة التي تجعل الرؤية تتجلى أمامي بشكل مختلف، أعيش حياة أخرى مختلفة عن عالمي لكنني أصدم بالواقع الذي لا يشبهني، لا يشبه الفتاة التي نضجت من القراءة والأدب والكتابة، لذلك كلما أخذت كتاباً شعرت بالخوف والرهبة من الاصطدام بواقعي الذي لا يشبه ما أعيشه من خلال القراءة، الرهبة تجعلني أجمع الكتب وأنظر لها أنصح الآخرين بالقراءة، لكن كيف لي أن أقنع عائلتي بأن تقرأ لتحيا وتعيش وتتغير أفكارها المظلمة، ولينقشع طلاء العادات من أدمغتهم كيف ذلك؟! في اللحظة التي أحاول أن أغيرهم إلى الأفضل يتمنون لي أن أتغير إلى الأسوأ، أمي التي تخبرني كل مرة حينما تعلمني الطبخ بأن أكون فتاة تجيد الطبخ، لأن الرجل يحب المرأة التي تكون ربة بيت، تذكرني كل مرة أن الأنثى ليس لها سوى أن تكوّن أسرة وتكون أمًّا وزوجة، بينما التعليم والهوايات بمفهومها بأنها لن تنفعني بشيء!

هكذا أيد أخي عندما أتى وأمي تعلمني وتحدثني، قائلا:

- نعم صحيح، الرجل لا يريد إلا امرأة تجيد الطبخ والنظافة وأن تهتم بأموره.

اختنقت بمشنقة الأفكار، الأفكار والأعراف التي تقود أهالينا وأعينهم مغطاة، نعم من دون بصيرة.

في الثامن عشر من ديسمبر كنت أجهز قصيدة تحضيراً لتقديمها على منصة إحدى قاعات جامعة رداع، كما دعوني بأن أكون مقدمة للحفل بمناسبة اليوم العالمي للغة العربية، وأن أقدم قصيدة، بعد محاولات عدة وأعذار واهية بأنني سوف أزور الجامعة مع سوسن ابنة أخي كي أرى زميلاتي، حينما مررت من الشارع كان الأشخاص ينظرون لي وكأنني كائن من كوكب آخر، يرمون عليّ بالكلمات السيئة، يشتمون عباءتي وطرحتي: "أنتِ بنت ماهوش هانا مكانش، سيري لش عدن أنتِ تتقلدي بلبس ماهوش من حقنا".

بينما آخر يتلفظ بالسب بأنني لست متربية! يا ترى ما هو العيب أو الحرام الذي ارتكبته بمنظورهم حتى أتلقى كل تلك التهم الموجعة؟! كانت الكلمات كرصاصات تخترق قلبي موجعة نازفة، تقتل ما تبقى من معتقداتي وأفكاري المتمردة التي لا تشبه هذا الواقع المظلم.

وقفت على منصة القاعة وبدأت التقديم وسهام النظرات تخطفني بالاشمئزاز وكأنها ترمي لي التهم، النظرات كانت توضح كل شيء أخذت نفساً عميقاً، ضربات قلبي ترتجف، كنت أشعر بالخوف، لكنني تماسكت واستعدت ثقتي بنفسي، أغلقت أذنيّ من سماع الكلمات السلبية التي كانت توجه لي، أن تعيش في مجتمع يرفضك يرفض أفكارك فكأنك تدخل في معركة لا تعلم ما هي النهاية، وأنت تحاول التمرد بكل ما أوتيت من أفكار. عدت إلى المنزل من دون معرفة أيّ أحد بذلك، لكنني واجهت كلمات من أبي قائلا لي: "لا تكثري الدخول والخروج!".

تمر الشهور وأنا أفكر كيف علي بالعودة إلى الدراسة والقراءة، كذلك الكتابة التي كانت ثقيلة على نفسيتي أحاول جرها لكن أصابعي كالمعاقة، كيف علي ذلك وأنا أشعر بأنني ليس لي قيمة في تلك الحياة، الحياة أصبحت في نظري مظلمة، الظلم يحاصرني ويكبلني، الثقة بمن حولي خسرتها، لم يعد لي أحد من أقربائي مؤيد لي ويؤمن بتلك الموهبة التي تملكها فتاة في الرابعة والعشرين من عمرها، واحدٌ فقط من إخوتي من يؤيدني، لكنه لا يملك السلطة الكافية كأخي الكبير وأبي. كل تلك السوداوية المفرطة حولي جعلتني أفكر كثيراً في الانتحار، لكنني أفكر في حينها أنني أريد أن أتمرد، ولكن كيف ذلك، أفكر كثيرا بالزواج ولكنني لا أريد أن أتزوج أي أحد!

أريد رجلاً مثقفاً، رجلاً يقدر موهبتي، رجلاً يشاركني الكتب والقراءة، كيف لي أن أجد ذلك وأنا فتاة! الحظ لا يحالف الشاعرات إلا من لها من الحظ الجميل. قصائدي هي عار كبير في نظر عائلتي، أخبئها كطفل غير شرعي. في الصباح قرر أخي- الذي يقف معي ويؤيدني- وزوجته بأن يذهبا إلى مدينة ذمار لزيارة عائلتها وكذلك للفسحة؛ أراد أن يأخذني معه ليخرجني من دوامة الحزن والبكاء، لكن والدي رفض طلبه، وقال له: "لا أريدها أن تخرج من المنزل"، بينما قفزت أمي قائلة بأن خالتي سوف تزورنا، ووجودي ضروري!

في اليوم التالي جاءت خالتي هي وإحدى بناتها، منذ عام وهما لم تأتيا لزيارتنا، زيارتها مفاجأة وكأنها جاءت لأمر مهم، نظراتها كانت توحي بذلك، حينما كانت تتفحصني وتنهال عليّ بكلمات المدح، ولكم ضايقتني تلك الكلمات والنظرات! وكلما حاولت أن أنفرد، تحكم أمي عليّ بالجلوس وعمل الواجب لضيافة خالتي، لا أعلم لماذا أمي قالت لها حينما تذوقت الطعام: "هذا الأكل من يد جمانة"! تذكرت كلمات أمي حينما قالت لي إن "الفتاة لا تنتفع من هذه الكلمات والأشعار التي لا تجلب لها الحظ السعيد، لكن يجب أن تؤمني أنك فتاة وستصبحين ربة بيت".

حينها قالت خالتي: "جمانة، ابني الطبيب أسامة يريدك على سنة الله ورسوله، فكري يا بنتي في الأمر وأخبرينا في هذه اليومين، نحن عندكم لن نغادر حتى تخبرينا".

صاعقة نزلت على دماغي، ضربات قلبي كادت أن تتوقف، أعرف ابن خالتي أسامة الذي لا تتوافق أفكارنا، هو يحمل شهادة فقط، لا يحمل ثقافة ولا يعرف ما هي، لا أستطيع أن أفكر به أبداً، لا يناسبني أبدًا، ولن يستطيع أحدٌ أن يغصبني، سأتمرد كما تتمرد مني الحروف لكتابة قصيدة عاصية. قلت لها سأفكر؛ حتى لا تغضب أمي وتخبر أبي ويصبح الأمر أكبر من رأيي وحياتي.

حملت خيبتي وتعاستي وحاولت أن أذهب إلى غرفتي، لكنها قبل ذلك قالت فكّري، ابني طبيب وأنت فتاة متعلمة، لكنه لا يريد أن تكون زوجته تشتغل أو تدرس، وأنت أنسب له، هذا السهم الذي أصاب عمق قلبي وأسقطني قتيلة.

يا لوجعي! كنت سأصبح إعلامية أطلع على الشاشة في وجه كل من يتمنى لي أن أكون فتاة مطيعة، وربة بيت لا تجيد سوى طهي الطعام، والانخداع، والإنصات لكلمات الآخرين وقبولها من دون أي اعتراض.

في اليوم التالي استعددت للتحدث بكل جراءة مع خالتي، وأن أقول لها الحقيقة.

- صباح الخير خالتي، أنا أعتذر عن قبول طلبك، لا أستطيع أن أوافق على الزواج من أسامة؛ أسامة غير مناسب لي.

صرخت أمي في وجهي:

- عيييب تقولين هكذا، ابن خالتك طبيب، ألف بنت تتمناه وأنتِ ترفضينه!".

- أمي هذه حياتي، يكفي، هذه حياتي، أنا وحدي التي سوف تعانيها، لن أتوافق أنا وأسامة، لذلك أتمنى له الخير مع امرأة أخرى.

خالتي احمرَّ وجهها وتغيرت ملامحها، أخذت أغراضها وغادرت وهي غاضبة. أبي وصل له الخبر بأنني رفضت أسامة، وأن خالتي غادرت المنزل وهي غاضبة، صرخ بأعلى صوته:

- جمانة، تعالي إلى هنا ما الذي تعملينه؟! أنتِ بدأتِ تتمردين وتعملين أموراً أكبر من حجمك!

كلما جئت أتحدث يقطع حديثي بالصراخ في وجهي، لم أعد أستطيع أن أتحمل أكثر من ذلك. صرخت والدموع تملأ عينيّ وتسيل على وجهي وأنا أبتلع الدموع من فرط نزولها، قلت لهم:

- كفى كفى ما تعملوه بي، أنا لست دمية تحركونها مثلما أردتم أنتم، أنا شاعرة، في بلاد أخرى يعملون من أجلي تمثالا، أنا موهبة خلقها الله بآيات، يصعب على الكثيرين أن يعبروا ويجيدوا صناعة الحرف مثلها، يكفي كل ذلك الاضطهاد الذي يمارس على روحي، والتعذيب الذي انتهك نفسي.

كان أبي مصدوماً من كلماتي وجرأتي، مصدوماً من تمردي.

صرخت قائلة:

- كل شيء صمتُّ عنه، وتركت لكم خيار ظلمي إلا أن تتحكموا في حياتي بالزواج، هذا مستحيل، لن أتزوج إلا من رجل يفهمني ويدرك قيمة ما لدي من موهبة، يشجعني، يمد لي يد العون، يفتخر بي بأنني أحمل في حياتي فكرة وفكراً مختلفاً عنكم جميعا.

حملت نفسي وغادرت إلى غرفتي وأنا أبكي بصوت عال منهارة، وأفكر كيف أتخلص من هذا الحال؟! كيف أغادر الحياة بأي طريقة ووسيلة؟ ماذا أفعل حتى أتخلص من تلك العادات والعقليات التي دمرتني وأفقدتني مستقبلي، هوايتي وشغفي؟

أنا كلوحة ممزقة في حائط قديم، حتى الشعراء لم ينظروا إلي، لا أحد يتمناني، لأنني لم أحقق أي نجاح في مسيرتي الأدبية والعلمية، لأنني رهينة العادات التي قتلت الشاعرية التي بداخلي.

الجميع من حولي يتآمرون على مستقبلي، زوجة أخي التي كل ليلة تهمس في أذن زوجها بأنني فتاة بلا أدب وتقارنني بابنتها، لماذا أنا سوف أدرس وأصبح مشهورة، بينما ابنتها محاصرة بأفكار أبيها وحقد أمها!

الكتب وحدها تحملتني في عزلتي، والحروف كانت متنفساً لي، وحدها من أحاول أن أتجاوز تلك الوحدة بها. أفكر كثيراً لماذا أنا بلا حظ؟ لماذا لا أحد يبقى معي ولم أجد رجلاً صادقاً يحمل أفكاراً تؤيدني؟ لماذا الحظ لم يكن حليفي؟ كثيراً ما أفكر أي الطرق أسهل للخلاص من تلك الحياة، وصلت لمرحلة اليأس، في تلك الليلة أمسكت بهاتفي المحمول، ودخلت على برامج المواقع لأفرغ ما بي على شاشة إحدى الصديقات اللواتي كُنَّ يقفن معي، حتى وإن كُنَّ بعيدات عني لكن أرواحهن تحيط بي. أنزلت قصيدة ممتلئة بالحزن والدموع والعتاب على عائلتي، وحينما علمت إحدى المذيعات في إحدى القنوات الفضائية بالقصيدة سارعت بأن تسجلها وتلقيها على الجمهور في تسجيل فيديو، لكن أخي الذي مر عليه المنشور سرعان ما هرع إليّ في الصباح وأخذ مني هاتفي المحمول بعد عراك وضرب، قائلا:

- أعطني الهاتف لا بد أن آخذ شريحتك من أجل ألا تدخلي مواقع التواصل، ولا تراسلي ولا تنزلي المنشورات والقصائد الهمجية التي تكتبينها بانفتاح!

صدمة في قلبي، لم أستطيع أن أعبر بأية كلمة، أي انفتاح يتحدث عنه؟! حينما تصبح العقول فارغة لا تعلم شيئاً عن الانفتاح، وماذا أكتب أنا، وماذا يسمى الإبداع الذي تخطه أناملي. هرعت إلى غرفتي، وقد أُغلق كل شيء في وجهي، أعاد لي الهاتف فارغاً من الشريحة، لكن جمانة لا تستسلم أبداً، أخرجت الشريحة الأخرى التي خبأتها سرا، فتحت برامجي، وجدت الرسائل الكثيرة من الأصدقاء والأساتذة وهم يتعاطفون مع مشكلتي التي نشرتها المذيعة. دخل سامر، أستاذي الذي كان معيداً في جامعة الإعلام، سامر هذا الأستاذ الشاب الذي لم أتحدث معه يوماً، لكن في يوم قال لي إنه يكتب ويحب الأدب، ورحب بي في القسم وقدمني لهم شاعرة سوف يفتخر بها الزملاء والأساتذة. وجدت رسالة من الأستاذ سامر قائلا لي: "غداً سوف آتي أنا وأهلي إن أردتِ ذلك جمانة. جمانة أنا رجل أتقبلك بكل ما تحبين". تلك ليلة لم تشبه الليالي، لربما كنت أشعر أنني في حلم ولست في حقيقة، انتظرت يوماً كاملاً حتى أفيق من غيبوبة ما قرأت، ثم أجبته قائلة: "أهلاً وسهلاً بكم".

هرعت أصلي وأحمد الله أنه استجاب لي وفتح أول أبواب الحظ نحو الأمل، لأنني وجدت رجلاً يقدرني ويمهد لي أحلامي، حينها ستتحقق أحلامي رويدا رويدا.

في اليوم التالي عصراً طرقت بابنا أم سامر، وأخته وسامر وأبوه، استقبلهم أبي من دون أن يعلموا عائلتي من يكونون، بعد برهة من الحديث، أخبرت أم سامر أمي: "جئنا نطلب يد ابنتك لابني سامر، نحن من مدينة صنعاء، لكن لدي أخت متزوجة في رداع، وهي من أخبرتنا أن هذا المنزل فيه فتاة مهذبة وذكية، والجميع يتحدث عنها، وأنها شاعرة وإعلامية، تدرس. ابني هو مدرس جمانة في الجامعة، وهو شاب إعلامي في إحدى القنوات، وأختي هي من عرفتنا على منزلكم. نتمنى أن تردوا علينا الليلة، الموافقة أو لا.".

كنت خلف باب غرفتي أستمع وضربات قلبي تتسارع، سمعت صوت أمي تناديني: "جمـانة، تعالي إلى هنا".

دخلت إلى عندهم مرتدية أجمل لباس، كنت كالوردة التي تتلألأ، هكذا قالت أم سامر حينما رأتني "هذه جمانة كأنها وردة تتلألأ". قالت لي: "كيف حالك جمانة؟ أنا أستاذة في مادة اللغة العربية في إحدى مدارس صنعاء، اسمي إيمان".

سلمت عليهن، انتظرت دقائق ووجهي مغطى بالخجل، هرعت هاربة إلى غرفتي، جسدي يرجف لا أعلم كيف أتصرف. بعد أن غادروا، جاء أبي وأمي ليسألاني عن رأيي- بعد أن عملت ذلك اليوم مشكلة في ابن خالتي- وأن الأمر يرجع لي، حينها سألاني؛ هززت برأسي، بكل صمت، دلالة القبول. أمي فرحت كثيرا، قالت لي:

"يا بنتي، الفتاة لا ينفعها سوى أن تكون أسرة".

لا تعلم أمي أن غرضي من الحياة الهروب من مأزق تلك العائلة التي تحكمها العادات والتقاليد، أريد أن أذهب إلى مكان يقدر حرفي وكتاباتي، أن أصعد إلى مسرح الشعر، وألقي قصائدي بكل فخر من دون خوف، ومن دون أن أخبئ أوراق قصائدي تحت ملابسي، أن لا أخفي أسماء حساباتي على التواصل الاجتماعي؛ لربما الحظ يصافحني بسلام ويضحك في وجه حياتي.

في تلك الليلة نمت وأنا مبتسمة حينما دخل سامر للنظرة الشرعية، وحينما تحدد موعد زفافنا، إنها أيام جميلة تنتظرني سأنطلق منها إلى فضاء رحب، نحو هوايتي وحرفي، نحو طموحي والرجوع إلى تعليمي؛ هكذا وعدني سامر في يوم عقد قراننا في حفلة الزفاف. كان يوماً سعيداً عشته في تلك اللحظات. مر عام على زواجنا، حياة جميلة مليئة بالحب والسعادة. عدت إلى جامعتي، هاأنا في السنة الثالثة إعلام. سامر معي يشجعني، يمد لي يد العون، وبدأت في النشر والانطلاق نحو شاعريتي وشغفي بهوايتي.

في الرابع من حزيران ذلك اليوم الذي لن ينسى من لحظات عمري، ذاك التاريخ الذي كان بصمة لن تنسى، كنت أنتظر سامرًا بحلة سعيدة بذكرى يوم ميلادي، جاء يهرع بملامح لا تشبه ملامحه المعتادة، جاء بشكلٍ آخر، انتزع هاتفي المحمول ورماه حتى تحطم أمامي، قائلًا: "بعد اليوم ليس هناك حسابات على التواصل الاجتماعي ودراسة، أنت ربة بيت"!

دعاء الأهدل

صرخات

الأصوات الآتية من الشارع المقابل للفندق تصدح داخل أذني برتابة، أجلس في نهاية السرير مقابل النافذة المطلة على شارع التحرير، أراقب المارة، السيارات تتحرك ذهابا وإيابا، وجملة من المتسولين يملئون الطريق يبحثون عن أكثر السيارات ترفاً وفخامة للانقضاض عليها دفعة واحدة.

اليوم أنا هنا، في المدينة التي لطالما رحبت بي وكأنني أحد أبنائها، أشعر بها تمقت الضعف الذي سكن جسدي وعقلي، تلفظني منذ أول لحظة وضعت قدميّ عليها فور وصولي إلى محطة باب اليمن، لا عجب في ذلك فصنعاء شامخة، دائماً ما ترفض الضعف والهوان.. هذا ما قلته في نفسي وأنا أجوب شوارعها القديمة المتماسكة كجبالها.

أستلقي على السرير بكل الثقل الذي بي، أحاول استيعاب اللحظة في محاولة مني حتى أستجمع قواي، لكن ودون سابق إنذار أشعر بعينيّ تذرفان سيلاً من الدموع دون توقف، لحظتها استعادت ذاكرتي كل الأحداث تباعاً، أتذكر صوتها بوضوح وهي تصرخ باسمي، تستنجد بي حتى أمنع كل هذا العبث، لم يكن صراخ نادية وحده من تجلى أمامي، صوت ثريا طفلتي التي لم تتجاوز العام الواحد وبكاءها من هول ما حدث كان له الأثر الأكبر.

كل هذه الأصوات باتت كالسوط يسلخ عقلي ليل نهار، تجعل مني ذبيحة لها في كل حين تخطر في بالي.

كنت أجلس رفقة عائلتي الصغيرة، في ليلة هادئة وتحت سقف بيتنا الصغير في أحد شوارع مدينة المنصورة، كانت ثريا تجلس في حضني، أداعب خصلات شعرها الكستنائي الناعم، أدغدغ بطنها كي تعطيني بضع من ضحكاتها الطفولية الخالدة، ونادية حبيبتي الصنعانية الجميلة والقوية تجلس بجانبنا تقلب قنوات التلفاز بتثاقل، تتوقف تارة عند محطة أخبار وتزفر تنهيدة طويلة وبعدها تعاود الكرة مرة تلو أخرى، أمسكت يدها وقبلتها، تنظر إلي بعينيها الجميلتين وتخبرني بأنها تحبني دون أن تتفوه بكلمة.

في كل مرة تنظر إلي أشعر بالقلق يسكن عينيها، و رغم محاولاتها الدءوبة بإخفائه إلا أنني أراه واضحاً في كل تفاصيل وجهها الخلاب.

- « أنا معكِ و لن أدع أي مكروه يمس عائلتنا يا عزيزتي».

تجيبني والحسرة تملأ حنجرتها الصغيرة:

-»أنا أثق بك تماماً يا عادل.. لكن أبي لن يدع الأمر يمر هكذا».

حاولت أن أجعلها تنسى، وطلبت منها أن تترك الأمر لي، وعدتها بأني سأحاول التحدث معه مرة أخرى وأسوي المشكلة.

مسحت على رأسها بحب وقبلتها على جبينها. أخذت مني صغيرتنا وذهبت لتضعها في فراشها.

وفي الحين الذي كنت أكمل فيه إعداد مادتي الصحفية التي من المفترض أن أسلمها في الغد، سمعت أحدهم يطرق الباب، هممت لفتح الباب وما إن أوشكت على فتحه حتى رأيتها تنظر لي من جانبه، وبدت وكأن أحدهم قد أخذ لون وجهها الحقيقي وصبغه بلون باهت. ابتسمت لها كي أطمئنها وأدرت وجهي ناحية الباب. أمسكت بالمقبض و فتحته مسرعا وكأنني أدفع بروحي لتلاقي مصيرها القاتم.

فجأة، شعرت بجسدي ملقى على الأرض، وسائل ثقيل يملأ وجهي.

لم أستطع حينها أن أرى شيئاً من هول الضربة التي تلقيتها على رأسي، وجسدي ملأه ألم كبير لم أشعر به طيلة حياتي.

حاولت أن أجمع شتات ألمي، وأيقظني صوت نادية وبكائها وهي تحاول أن تأتي إلي لترى إذا ما زلت على قيد الحياة.

«اتركوني يا أوغاد. عادل، عادل، عادل أرجوك اصحى، لا تدعهم يأخذون.. عاااااادل.»

كانت هذه العبارة تنخر رأسي جنباً إلى جنب مع ألم الضربة التي تلقيتها فيه، وكان صوت حبيبتيّ يقتلني وأنا في حالة عجز تام أمام القيام بأدنى فعل.

وفي الوقت الذي استطعت فيه أن أحرك جسدي وأنهض، شعرت بقدميّ أحدهم تنقض علي كالكلب المسعور، تنهال الركلات دون توقف ودون حساب على كل بقعة من جسدي.

بعد أسبوع من الحادثة، فتحت عينيّ في أحد مستشفيات المدينة. حاولت أن أحرك رأسي قليلا ناحية الكرسي الذي يرقد عليه أخي الأصغر، لكن أطناناً من الوجع منعتني من الاستمرار، ومن شدتها أطلقت صرخة أيقظته من نومه.

«لا عليك يا أخي، أنا هنا. لا تبذل أي جهد، أنت بحاجة إلى أن ترتاح فقط، استرخ، استرخ».

«أين أنا؟ أين حبيبتيّ؟».

أشاح بنظره عني، وفي وجهه ألف حسرة وكربة، حاول أن يتجنب قول أي شيء، مسح على رأسي المربوط بجبيرة وخرج كي ينادي الطبيب.

بعد لحظات، أتى برفقته كي يطمئن على حالتي، رأيته واقفاً بجانب باب الغرفة وبيده الهاتف، لم أستطع سماع أي شيء، وقاطعني بعدها صوت الطبيب:

-»أنت رجل قوي يا عادل، ما مررت به لم يكن سهلاً على الإطلاق، حاولت مقاومة الوقوع في الغيبوبة، وضعك الآن مستقر، تحتاج إلى عدة أيام من الراحة وستشفى من كل هذه الجراح».

افتح عينيّ على أصوات الضجيج الذي يملأ الشارع المقابل للفندق، أحاول أن أمد جسدي بعد أن كورته طوال الليل، استلقي على ظهري وأنظر إلى سقف الغرفة الأبيض الخالي من كل شائبة عدا المصباح الصغير في وسطه. أتذكر أنني هنا، في صنعاء، للبحث عن وجهتي التي أضعتها منذ أكثر من عقد من الزمن.

أغادر السرير ناحية الحمام الصغير بداخل الغرفة، أقف أمام المرآة، أمسح وجهي بحفنة من مياه الصنبور الباردة، موجة من القشعريرة تجتاح جسدي الهزيل. أنظر إلى وجهي، إلى عينيّ الشاحبتين ووجنتيّ اللتين غزاهما الضعف وحفر فيهما تجاعيد عميقة.

تأملتني، رأيت رجلاً بلا روح أضاع خارطة حياته منذ زمن.كيان أصبح يرجو أن يسقط دون عودة إلى العدم، لحظتها شعرت بأن كل ما أتيت من أجله يتلاشى ويصبح سرابا.

حقيقة ما الذي أتيت لفعله الآن، بعد مرور ١٢ عام.. وما الفائدة من البحث عن شيء لم يعد لي فيه أي حق.

توقفت عن النظر وهممت بالخروج مسرعا، ارتديت ملابسي وأغلقت باب الغرفة على عجل وكأنني أهرب من نفسي التي فقدتها في تلك الليلة.

أحمل جسدي الهزيل المهترئ بثقل، وأخطو به بحذر خوفا من أن يقع، كنت أمشي دون وجهة محددة. أراقب الوجوه العابرة في الطرقات، تلك التي أثقلتها هموم الحياة وظروف الحرب التي تأبى أن تنجلي عن ربوع هذه الأرض. أتأمل الخوف في أعين الجميع، غزا الحزن ملامح الكل في هذه المدينة، لكن ورغم كل هذا الهوان لا يزال الكثير منهم متمسك بحبل الصمود والمقاومة.

توقفت أمام عربة لبيع الفطائر، أخذت واحدة وجلست أمضغها ببطء على حافة أحد الأرصفة.

وبعد أن انتهيت أكملت مسيرتي، وجدتني بعد حين في السائلة واعتزمت إكمال الطريق ناحية المدينة القديمة، كانت آخر مرة أزورها فيها رفقة نادية. كان أول موعد حقيقي لنا بعيداً عن رحاب جامعة صنعاء التي جمعتني بها.

تعرفت على نادية وهي طالبة في سنتها الثالثة في كلية الآداب، كنت أحضر حينها لرسالة الماجستير، وكان زميل لي محاضر في الجامعة دائماً ما يتحدث عنها وعن تميزها في الكتابة الأدبية، و بعد أن شاركني بعضاً من كتاباتها أصررت عليه مراراً أن يعرفني عليها.

أسرت بطريقة سردها الأدبي، كانت تكتب بطريقة خلابة ومغايرة عن المعتاد، جمعت بين الواقع والخيال بطريقة معاصرة وجذابة.

قابلتها، كانت كأنها فتاة من عالم آخر لا يشبه هذا العالم إطلاقا، وجهها يمتلك من الجمال والبهاء ما يمكن توزيعه على كافة الوجوه في هذه الأرض، وقامتها المنتصبة تسكن فيها الكثير من شموخ هذه المدينة. حين نظرت لي لأول مرة بعينيها المخمليتين، شعرت بها تسكن داخلي، تحوط روحي بحب وسكينة.

مشيت كثيراً بداخل هذه المدينة العتيقة، أتأمل كل زواياها، أبواب المنازل ونوافذها، الأطفال الذين يلعبون في أزقتها والباعة المتجولين، شيء ما فيها لا يشبه باقي تفاصيل مدينة صنعاء، شعرت وأنا بداخلها بأن روحي التي فقدتها تمشي بجانبي، وفي كل مرة أضع قدمي في الأماكن التي زرتها أنا وهي أشعر بها ممسكة بيدي تحدثني عن كل شيء يقع تحت ناظرها ومن هول الموقف وجدتني أحدثها، أتجاوب معها ونضحك سوياً مع قهقهات الأطفال الذين يلعبون من حولنا.

أخرجني من غياهب ذكرياتي صوت رجل يطلب مني شراء كوب من عصير التوت، طاوعته واشتريت منه وشربته أروي به ريقي الذي اجتاحه الجفاف. في طريق عودتي إلى الفندق، تلقيت اتصالاً من صديقي أمين الذي أخبرني أنه قد جمع لي كل المعلومات التي طلبتها منه، أعطيته عنوان الفندق وأكد لي أنه آتٍ ليراني بعد ساعة من الآن.

رجعت إلى غرفتي، حاولت أن أغتسل وأبدل ملابسي التي أنهكتها طوال اليوم، بللت شعري وسرحته كي أسترجع شيئاً من هندامي المعتاد، ثم نزلت إلى استراحة الفندق لكي أقابله.

لم يتأخر دقيقة واحد عن الموعد الذي أعطاني إياه، وقفت كي أحييه لكنه أخذني دفعة واحدة إليه واحتضنني بقوة، شعرت به يواسيني عن جميع السنين التي مضت، خيل لي أنه قال يا إلهي يا عادل كيف استطعت أن تصمد كل هذه المدة..

-»أنا سعيد جداً لرؤيتك يا صديقي، صنعاء نورت».

جلسنا، وعم الصمت للحظات، بدا لي أنه يفكر بالكلمات التي سيختارها ليبدأ بالحديث، وعوضاً عن ذلك حاولت أن أكسر هذا الحاجز.

-»كيف حال أسرتك يا عزيزي ؟».

نظر لي وكأن أحدهم يخنقه، أجابني بشيء من الحسرة:

-» نحن بخير، لا شيء يؤذينا سوى هذه الحرب التي ما عدنا نحتمل وطأتها».

-»هذه الحرب لن تنتهي بسهولة، جميع الأطراف مستفيدون من طول أمدها، نحن فقط من تعصرنا تبعاتها و تسلب منا كل شيء».

وبعد حديث قصير عن كل ما حصل ويحصل، نظر لي أمين ثم أخرج من حقيبته الصغيرة ملفاً أبيض ووضعه على الطاولة التي أمامنا.

- «هل أنت متأكد يا عادل مما ستفعله؟ أقصد، من حقك أن ترى ابنتك وتخبرها حقيقة ما حصل، لكن لماذا الآن يا عزيزي، خصوصاً وأنت تعلم أن حسين يملك من النفوذ الكثير».

لم أجبه عن سؤاله هذا، فمعه حق في استغرابه وخوفه، وكأنه كانت بيدي أي حيلة تذكر.

أخذت الملف ووضعته على ركبتيّ بحذر، مررت يدي عليه للحظة، ثم فتحته.كانت صورتها موضوعة في الجزء العلوي منه، بعد أن تأملتها لفترة أحسست بدموع حارقة تسري فوق خدي وتسقط على الأوراق التي على ركبتيّ.

كانت مشرقة، تشبه أمها تماماً ولو أن أحداً لا يعلم أنها ابنتنا لقال إنها نادية الصغيرة.

كانت تمسك بطفلة تصغرها بأعوام قلائل، نظرت إلى أمين وأجابني دون تردد:

-»هذه أختها الوسطى».

قلت بداخلي «الوسطى!! كم أخاً لديها غيرها! يا الله كم مرت من السنوات لكي يصبح لديها أخوة».

لم يقتلني شيء سوى أن هؤلاء جميعاً ليسوا أبنائي، ليسوا من دمي.. أعدت ظهري للوراء كي أسند تعبي ووجعي الذي أصبح أكثر عمقا.

ولحظتها، تذكرت أخي وهو يخبرني أن ما فعله والد نادية لم يقتصر على حرماني منهن، بل قد محا جميع الأوراق الثبوتية في المحكمة والسجلات المدنية التي تثبت زواجي منها وحقيقة أن ثريا ابنتي..
-»لقد محا كل شيء يا عادل».
حاولت كثيراً أن أثبت عكس ذلك بالأوراق التي أملكها، عينت عشرات المحامين لكن دون فائدة، اتهمني الكثير منهم بالجنون، ولم يقتصر الأمر على ذلك، فقد حبست عدة أشهر بتهمة تزوير وثائق حكومية، يا للمفارقة..
لم تكن محاولة ذهابي إلى صنعاء هي الأولى، حاولت السفر مرات عديدة لكن دون جدوى، كانت النقاط الأمنية تعيدني في كل مرة أدخل فيها إلى محافظة تعز، وبعد اندلاع الحرب وتغير الظروف السابقة، انتظرت عدة سنوات، استطعت تزوير بطاقة شخصية باسم آخر ومن محافظة أخرى كي أتمكن من العبور، ونجحت.. هاأنذا، أبحث عن ابنتي التي لم تعد ابنتي أمام الجميع، ابنتي التي احتضنتها لعام واحد فقط وسلبها مني هؤلاء الوحوش. عندما أتذكر كل ما حصل، أدخل في دوامة حارقة من الضحك والبكاء.
كانت بضع سطور كفيلة بأن تحرمني أعز ما أملك في حياتي، كان مقال واحد عن هذا الحاكم الذي كان والد نادية مخلصاً له حد الموت، سبباً مقنعاً له أن يسلبني زوجتي وابنتي، ولم يقتصر عنده الأمر فقط على حرماني منهن، بل إنه وبكل برود و ثقة أهداهم لشخص آخر غيري ومحا كل ما يربطني بهما.
لم أستطع حينها أن أستوعب أن البشر من حولي هم حفنة من العبيد والجنود المخلصين لهذا العرش القاتم، لكن وبعد كل ما حصل أدركت تماماً أني مجرد واحدة من قطع الشطرنج التي يتلاعب بها هؤلاء كيفما شاءوا وبالطريقة التي يحبون على هذه الرقعة من الأرض.
لم أستطع أن أكمل مقابلتي مع صديقي، اعتذرت منه وهممت بالعودة إلى غرفتي، و قبل أن أصعد الدرج إلى الأعلى قاطعني أمين:
-»أرجوك يا عادل، فكر جيداً قبل أن تقبل على اتخاذ أي قرار، فكر بثريا فهي الوحيدة التي ستذوق المعاناة نفسها التي ذقتها أنت».
رنت تلك الكلمات في رأسي لساعات، لم أستطع النوم ليلتها، كنت أتقلب فوق الفراش كمن احترق جسده بالكامل. كان كل شبر فيّ يشتعل، لم يستطع برد صنعاء إخماد هذه اللهيب الذي اتقد دفعة واحدة في داخل جسدي، تمنيت لو أن روحي تغادر جسدي كي ينتهي كل شيء لكن دون فائدة.
نهضت من فراشي وبقيت واقفاً أمام النافذة بقية ساعات الليل الطويل هذا، وعند طلوع أول خيط لصباح اليوم التالي، تركت كل شيء وغادرت إلى وجهتي.
انتظرت لساعات حتى بدأ الطلاب يتوافدون إلى المدرسة التي تقصدها ابنتي ثريا. كان التعب قد اجتاحني ولكنني قاومته بكل قوتي. جلست تحت الشجرة المقابلة للمدرسة أنظر لجميع الطالبات بتمعن

خوفاً من أن يفوتني حضور ابنتي، لكنني لمحتها بوضوح بين عشرات الفتيات من حولها.
كانت تمسك أختها تماماً مثل الصورة التي أحضرها لي أمين، تعتني بكل خطواتها وتداريها بحب. ومن بين كل هذا الشبه الذي امتلكته عن أمها، استشعرتها تشبهني كثيراً، ذلك الاهتمام الذي تبادر به لأختها وحبها الكبير لها الذي ظهر جلياً لكل ناظر.
-»آه يا عزيزتي، تمنيت لو أحضنك الآن وأضمك بين ذراعيّ وأعوضك عن كل البعد والمسافة التي خلقها الأوغاد بيننا، لو أني آخذك من يدك الآن وأهرب بكِ دون عودة، لكن من أنا لأفعل هذا! ستنظرين إليّ وكأنني عدو، أتيت لآخذكِ من أحضان أسرتكِ التي تعرفينها».
مسحت وجهي من كل الدموع التي غطته، وتشجعت للاقتراب منها بضعة أمتار، لم أقصد أن تراني، لكنها رأتني.. رأت رجلاً غريباً لا تعرفه يقترب منها ومن أختها.. لكنها ومن غير مقدمات شدت يد أختها واقتربت مني أكثر:

- «صباح الخير، هل أعرفك؟».

كانت شجاعة ووائقة من نفسها، لم تذعر لأن رجلاً غريباً قد اقترب منها. وأنا الذي من المفترض أن أكون السباق، شعرت بلساني قد ذاب بداخل فمي، حاولت أن أتفوه بأي كلمة، أن أنطق بكل ما جئت من أجله، لكنني أصبحت عاجزاً، وجاءت كلمات صديقي تباعاً في رأسي»ستذوق المعاناة نفسها التي ذقتها أنت» لتسكتني بشكل نهائي.
نظرت لي بشيء من الاستغراب وكأنها هي الأخرى أرادت أن تخبرني شيئاً لم تستطع البوح به.
-»هل أعرفك يا سيد؟».
كررت سؤالها وشعرت للحظة أنها فعلاً تعرفني، أن ذاكرتها الصغيرة لم تمح ذكرياتي معها.. ثم أبعدت عن رأسي تلك الأفكار الخيالية وحاولت أن أستجمع قوتي لأتكلم معها:
- «أنا مجرد عابر يا عزيزتي، لا تقلقي لن أتسبب لكِ بأي أذى».
- «أعلم أنك لن تؤذيني، لا يمكن أن يؤذي الأب ابنته، أليس كذلك؟ لقد انتظرتك كثيراً لتأتي، وهاأنت الآن أمامي تشبه الصورة التي رسمتها أمي».

ريم الفضلي.

ومضة

يملؤني الآن الشعور بالخفة، تلك التي لم أشعر بها قط وأنا على قيد الحياة. كل الاحتمالات التي كانت ممكنة وغريبة، صعبة التجاوز أو غير متوقعة قد تلاشت جميعها الآن.

كانت اللحظات تبدو متخمة وثقيلة، بدا وكأن أحدهم قد عبث بعداد الوقت وكل الأمور التي كانت تُسير هذا العالم.. حتى الخوف الذي كان يسكنني في حياتي تبدد هو الآخر.

لا أعلم لماذا يواجه الإنسان الموت بالخوف لأنني لم أستحضره على الإطلاق، لم أخف حينها وكأني قد دربت على هذه الواقعة «واقعة موتي»،

في الوقت الذي نظرت فيه إلى ذاك الرجل الملثم ورفاقه شعرت بشيء ما يمسك جسدي ويثبته بلطف، يمسح على روحي ويتهيأ كي يقبض كفها ليخرجها منه.

بدا لي المكان في اللحظة الأولى التي استقرت بها الرصاصات في جسدي، مملوءً بالسواد الذي تعجبت كيف تحول إلى شعاع يمكن أن أبصر من خلاله.

كان بإمكاني أن أنظر من خلاله إلى جميع الوجوه المسكونة بالخوف، لم يكن بمقدوري سوى رؤية وجوههم، خيل لي أن أجسادهم قد اختبأت في مكان لم يستطع نظري الوصول إليه.. نظرت إليهم جميعاً، كانت تفاصيلها غريبة ومغايرة، كأنها ومضات من الضوء بأشكال مختلفة ولون واحد يشبه لون الفاجعة. تأملتها بروية وحين وصلت إلى وجه رفيقي الذي كان بجانبي قبل الواقعة، كانت ومضته مألوفة و بلون مختلف عن البقية، لون يقبع بين الوجع والانكسار، وشعرت به يحدث نفسه:

«ريتني انا».

تمنيت أن أضع لكمة على وجهه كي يصحو من الهراء الذي يفكر فيه، لكنني ما عدت أملك يديّ اللتين تعودت على استخدامهما وأنا على قيد الحياة، وتذكرت أن ملامحه أصبحت مجرد بقعة ضوء شفافة، حاولت أن أصرخ لكني أيضاً عجزت أن أنبس ببنت شفة.

عدت إلى حيث يقبع جسدي في مدخل المكان المكتظ بالسواد، رحت أتأمل ومضة قاتلي وهي تراقب جسدي الجالس أمامه. كانت هي الأخرى مملوءة بالخوف، نظرت إليها، أحسست بي ابتسم ثم توجهت نحو جسدي الذي مازلت أراه. اقتربت ببطء شديد، ما يزال الخيط الواصل بيني وجسدي معقد بأحكام، عرفت حينها أن الوقت ما يزال أمامي قبل أن ينتهي كل شيء.

لبثت قبالي أتمعن لطخات الدم التي اعترتني شاقة طريقها من الثقوب التي وضعها ذلك الشخص الذي أمره مالكه بتنفيذ مهمة اغتيالي، وظهرت لي جلياً مهارته في القتل، ولم تكن مهمة اغتيالي هي الأولى التي ينفذها، وكان يعرف تماماً أين يضع طلقته، كأنه يضع عملة معدنية في صندوق الهاتف.

لم يتعامل مع جسدي بتلك الرهبة التي يشعر بها المرء حين يقدم على فعل جريمة القتل الأولى، بكل اليسر الممكن في هذا العالم أطلق الرصاصة الأولى في عيني، والثانية في عنقي توقف لبرهة، وكأنه لا يرغب في تفويت مشهد موتي، بدا مستمتعاً بمشهد الدماء وهي تتقافز من عنقي، أخذ نفسا عميقاً، ذاك النفس الذي يطلقه المرء حين يشعر بنشوة الانتصار، ثم التفت مشهراً سلاحه ناحية الجموع المتكدسة بجانب بعضها في داخل المكان وأمرهم:

- ليبقى الجميع في مكانه.

قالها بلا اكتراث وعاد إليّ حتى يطلق رصاصته الأخيرة، منهياً تنفيذ عمليته. وبرغم كل ذلك لم تكن لحظتي يشوبها أي نوع من العذاب على الإطلاق.

التفت خلفي، رأيت المسلحين يغادرون بسرعة خاطفة، تبعهم كل من كان بداخل المكان، هربوا مهرولين بومضاتهم الخائفة تاركين جسدي الذي ينزف خلفهم.

شعرت بشيء يمسك يدي، يد الجسد الذي غادرته، التفت لأنظر إذ بصديقي يجلس أمامي، يتأمل وجهي بحرقة، لمسته يهز يدي آملاً أن أستيقظ من هذا السبات.

حدثني برجاء:

-استيقظ يا رفيق هيا، لقد غادر جميع الأوغاد.

- لكني لا أستطيع.

- إنها تسال عنك، ماذا أقول لها؟ كيف سأخبرهم بذلك يا صديقي أرجوك أخبرني!

- لا تقلق سأكون معك، أعدك بذلك.

- لقد وعدتني أننا سنكمل المشوار معا، نسلك الطريق ذاته ونحارب كي نزرع بذرة التغيير في خاصرة هذه المدينة، قلت لك مرة إنني يائس من كل شيء ولا أعلم من أين تأتي بكل هذا العزم للاستمرار، كان ردك علي حينها أنك لن تتركها لهم، وأنه من المستحيل السماح لحفنة من الأوغاد أن تحكم قبضتها على الجميع ومن غير المنطقي الوقوف والصمت، وتقبل كل هذا الفكر الشاذ الذي يغرسه هؤلاء في مدينتنا، أدركت الآن يا رفيقي أن الحياة مهزلة متخمة بالقبح، وما أن نراها على حقيقتها حتى نتحرر من السجن الذي حبسنا فيه أنفسنا بداخلها، داخل هذا الفراغ الشاسع الذي لا حصر له.

ها أنت الآن تتحرر من سجنك، لا أعلم ما تشعر به الآن، لكني مدرك تماماً أن روحك ستخلد في السكينة.

- يقيناً يا صاحبي، أشعر وكأن كل تلك المشاعر التي تختلج في كياننا ونحن بشر ما عاد لها أي وجود، ثم إنني لم أتركك، مازلت هنا أنصت.

اقتربت من ومضة صديقي، لامستها، شعرت بحزنه والحقد الذي بداخله، وبالوجع.. الكثير من الوجع.

اكتشفت أن بمقدوري الولوج داخل أجساد من أحب، خيم الصمت

على صديقي طيلة مدة اتصالي به. لامسته بعمق شديد، امتزجت به، كان يتنهد، وكأنني قد أزحت الثقل عن عاتقه.

بدت ملامح روحه تعود بتأن ولم أكن أعلم إلى متى سيستمر كل ذلك.

تمنيت لو أقبض على الوقت، أن أبقي سكون تنهيدته مدى الحياة، أن أعوض عدم مقدرتي على البقاء معه وعدم استطاعتي البقاء معه، حيث أوشك الوقت المتاح لي قبل الاتصال الكبير بالانتهاء.

انتقلت إلى بقعة لا يوجد فيها أي شيء سواي، كنت أراقب الخواء بصمت لم أعهده. شلال من الذكريات ينسكب عليّ تباعاً، كل اللحظات التي عشتها كإنسان مرت أمام ناظري ببطء ورتابة.

تجمد الشريط أمام وجهها، ضحكتها الدافئة، لون الليل في عينيها الواسعتين وجنون القبلة الأولى و تواليها.

جلوسنا معا ساعات من الزمن نتحدث بإسهاب دون توقف، وأمواج البحر تعزف لنا معزوفتها الأثيرة. شجارات الطرقات الطويلة والمواقف المضحكة مع المارة، ونظرة السعادة في وجهها كل مرة أمسك بيدها في الشارع وبكل مكان نجلس فيه معا.

-في كل مرة أكون فيها معك يجول في مخيلتي سؤال واحد، من أي كوكب جئت أنت أو أن الناس حولنا هم الغرباء عن هذه المدينة؟

- نحن لا نختلف عن بعضنا بشيء، أنا، أنتِ وهم جميعنا أبناء هذه الأرض، لكن الأفكار التي تُحشى في عقول البعض هي من تجعل الاختلاف يبدو جليا بيننا.

أحسست أني أستعيد شيئاً من بشريتي برفقتها، لم يكن الشعور هكذا مطلقاً بكل السنين التي قضيناها معاً، وجميع الأحاسيس التي اجتاحتني الآن بدت مجنونة و متعاظمة، وكان شيء ما فيها يدفعني برغبة منكسر للعودة إلى دهاليز الحياة.

حاولت التوقف عن التدبر في وجه حبيبتي وبكل تفاصيلنا الشغوفة، ركزت انتباهي نحو ما حصل، وفجأة برزت في مخيلتي عبارة أنطون تشيخوف «ملاحظتك أن العالم أصبح سرباً من الأوغاد و الأشرار هي صحيحة».

تيقنت أنه لا يقدم على هذا الفعل الجبان إلا هؤلاء.

تراءت لي ومضة قاتلي تراقبني مثل مفترس ينتظر انقطاع آخر أنفاس فريسته. ثمة شيء بداخلي يدفعني إليه، لمحاولة فهم الغاية من كل هذا، فورها قررت مواجهته.

هممت بالانتقال وفجأة سيطرت أصوات غريبة ومزعجة على البقعة التي أجلس فيها. شعرت بتلك الأصوات تستنزف ما تبقى مني، كانت مرعبة وحادة، حاولت تتبعها حتى وصلت إلى مصدرها.

كانت أصواتهم (أمي، أبي، أخوتي، رفاقي وحبيبتي) كانوا يبكون بحرقة، يصرخون بفجع.. كاد صراخهم أن يفجر ماهيتي.

حاولت استيعاب كل ذلك الحزن الذي سكنهم، أن أمدهم بالقليل من السكينة لكني لم أستطع، كان الأسى الذي سقط عليهم أكبر من قدرتي.

هذا الكم من الحزن يؤذيني الآن، يعجزني عن تدارك اللحظة ولم يعد بمقدوري أن أمكث عاجزاً هكذا لفترة أطول. حاولت أن أنفرد بكل واحد منهم على حدة قدر المستطاع، أن أتصل بهم لكن كل محاولاتي باءت بالفشل..

«أرجوكم توقفوا، أنا آسف حقيقةً لكن ما من شيء باستطاعتي فعله الآن، فقد انتهى وجودي بينكم؛ أعلم أن هذا الجرح لن يبرى، وأن هذه المأساة ستخلد بداخل كل واحد فيكم أبد الدهر..آه لو تعلمون مقدار الحب الذي أحمله لكم، كل شيء عشناه معاً كان منارة السلام التي أوصلتني إلى ما أنا عليه الآن، أنتم من أمددتموني بكل تلك القوة التي احتجتها في مواجهة الحياة، كل ما قمت به وعشته وكنته كان لكم الفضل الكبير فيه، رجاءً ابقوا أقوياء لا تضعفوا أمام كل هذه المهازل التي أوصلتنا إلى هذا المفترق».

تتبعتهم بكل خطواتهم حتى وصلوا إلى المستشفى الذي وضعت فيه جثتي. والداي المكلومين يقفان أمامها، أخي الأصغر هو الآخر كان يداري حزنه ووجعه من أجلهم، وكل عضو فيه يئن ويرتجف.

لم أستطع الاقتراب منهم، كانت الفجيعة التي أحاطت بهم اكبر من أن أستوعبها، اقتربت كثيراً لكن شعرت بحرقة قد اجتاحتني لم أعرف سببها.

بقيت أراقب كل واحد منهم، أبي الذي كان سندي و قدوتي في حياتي قد كسره فقدي، وأمي التي لطالما تحدثت عن الضرر الذي سيطال ابنها هاهي اليوم تعيش نبوءتها والخوف من فقدي قد أصبح الحقيقة الواضحة أمامها.

-تمنيت لو أني لم أجرك إلى هذا المنحنى الذي لطالما تخوفت منه، كم كنت أحمقاً وأنانياً! أعلم أنك ستغفرين لي وإن كان ما فعلته بك لا يغتفر، لو أن هؤلاء الأوغاد يستشعرون هذا الحزن الذي سكبوه بداخل قلبك الطاهر لخجلوا مما اقترفته أيديهم يا كل الحياة، لكنك تعلمين جيداً أن ما عاد هناك أحد يضع حسباناً لأوجاع غيره، الكل يتصرف بهواه ويمضي مصعراً وجهه عن الآخر، وكأن هذه الأرض ملك لهم ولا أحد غيرهم يستحق العيش فيها.

تقدمت بعد أن تركت عائلتي في ثلاجة المشفى، ناح رفاقي المرصوصين على أرضية المشفى، يتكئون على حائط الخذلان والهوان، لم أشاهدهم يوماً مهزومين هكذا، أبداً لم أعهدهم بكل هذا الضعف ولسان حال كل واحد منهم يفكر كيف يكمل طريق النضال دوني.

تمر أمامهم لحظاتنا الكثيرة، كل تلك الجلسات التي احتضنت آراءنا المختلفة، بالرغم من الخلافات التي كانت تنشب كل مرة نتناقش فيها بسخونة حادة، ثم نمضي، نلتقي بعدها وكأن شيئاً لم يحدث، نعاود الحديث مراراً وتكراراً دون أن نمل، نقوي رباط صداقتنا كل مرة، تلك الصداقة التي جمعت أرواحنا الشغوفة بالحياة والتغيير، والتي لم ترضَ يوماً بأن تلحق بركب العبيد وظل صوت الحرية هو المبتغى السامي دوما.

كنت محظوظا جداً واليوم وإن بدوت كجثة بينهم، لا يزال لدي رفاقي.. ومن يمتلك الرفاق لا يموت.

أشحت بناظري إلى وجه حبيبتي، البلسم الذي جعل الحياة محتملة ويسيرة عليّ رغم كل البشاعة، المرأة التي كلما ارتميت بحضنها

أنستني كل الهموم والمخاوف مهما كان مقدار الثقل بداخلي، الجدار الذي تحتمي به روحي، واستند عليه كل مرة أشعر فيها أن حوائطي مكسورة.
أنظر إليها الآن وقلبها مفطور، تفكر بكل الوعود والأحلام التي نسجناها معاً، تحاول أن تتماسك وأن تحتمل كل ما يحدث.
لم يتحملني أحد قط مثلما فعلت، كنت أنانياً معها هي الأخرى، ولم أستوعب ذاك الجزع الذي لطالما وصفته لها بالمبالغ فيه.
اقتربت منها، لامستها، امتزجنا كومضة واحدة، حينها عصفت بي كل تلك المشاعر والرغبات التي عشناها معا، مرت لحظاتنا أمامي مملوءة بكل الجنون والعشق، غزتني رعدة مخيفة تتعلق بشعورها لحظة تلقي خبر رحيلي، خبر الفاجعة!
-آه يا معشوقتي، لو تعلمين كم يضعفني هذا الوجع بداخلك.
أرجوه أن يتلاشى، لكنه عصي.. وأنا لم يعد لدي أي حيلة.
شيء ما الآن يجول بداخلي، شيء يتمنى لو أنني لم أعرفك يوماً حتى لا ينتهي بك المطاف ثكلى لهذا العشق..
تمنيت لو أن بإمكاني أن أمسح الدموع التي ذرفها لجميع لرحيلي، أن أفتح عيونهم حتى يشاهدوا السلام الذي أنا فيه الآن، لو أني أمتلك القدرة لجعلهم يمضوا في الحياة، بكل اطمئنان العالم، بلا خوف.
لكنني غادرت وإن بت الآن أكثر خفة إلا أن كل ما بي مقيد، مقيد بكل ذلك العجز عن تحقيق ما أرغب به.
طفت فوق المدينة، احتضنت سماءها كما لم أفعل قط، لكنها بدت شاحبة، ذاك الشحوب الذي عجزت عن فهم ماهيته، أتراها هي الأخرى حزينة على رحيلي أم أنها كانت هكذا دائما بكل هذا السواد؟
لا يزال السواد يغشى كل شيء، بالكاد أستطيع أن ألمح ومضات البشر التي تجوب المدينة، كل ما يبرز لناظري طغى عليه الشحوب والتعب، فقط ومضات الأطفال وحدها من كانت تشع بالبهجة والأمل، غير مكترثة بأسوار الظلم التي تحيطها.

- ماذا لو كنا جميعاً محض أطفال؟ لا نكبر ما حيينا! هل ستندلع الحروب العبثية؟ أو يخيم الفقر على بعض أجزاء المعمورة؟ أكنا سنعرف وقتها معنى الأحقاد التي امتلأت بها قلوب البالغين؟ ماذا لو لم يكن للبلوغ أي حقيقة؟

كدت أن لا أخرج من دوامة الأسئلة الغفيرة التي تقافزت في ذهني، وأسجن بداخلي بحثاً عن الحقيقة لولا أن ومضات الأطفال تلك أعادتني. الملائكة الصغار وحدهم من يعرفون المعنى الحقيقي للحياة، للغفران، للحب بلا أدنى شروط، يدركون جيداً قيمة الوجود، تمدهم فطرتهم بالقدرة على الشعور بالهبة، بقيمة العيش ومدى أهمية عدم التفريط بالوقت، لذا تراهم يستمرون في إعطاء كل لحظة حقها بشغف كبي،ر ويلهثون للتجربة مهما كانت بنظر البشر ضئيلة أو بلا قيمة.
وصلت إلى حيث يقطن قاتلي، صادفته متسمراً أمام المرآة، لمحت انعكاس ومضته الخافتة وهو يتحدث في سره، يفتش عن المبررات للواجب السامي الذي يعتقد أنه قام به، يكرر بتجبر:
-لم أرتكب أي خطأ يذكر، كان لابد أن يحدث ذلك، كونه يقتضي المصلحة العامة، ثم ما المختلف هذه المرة حتى أحدث نفسي في المرآة!
كل من أمرت بقتلهم فيما مضى كانت ملفاتهم تحوي الكثير من الخطايا والفواحش، وهذا سبب كاف يجعل الرغبة في التخلص منهم منطقية، خاصة وأنها تصب في اتجاه مصلحة الجهة الأخرى..
هناك شيء ما يتعلق بذلك الشاب، لم يكف عن إدخالي في دائرة كبيرة من الحيرة.. ثم إني حين سألتهم أن يعطوني ملفه، رفضوا و اكتفوا بالقول أن وجوده خطر يتربص بالمجتمع بكل لحظة، وأن حياة أمثالهم بيننا هي سبب كل البلاء الذي نعيشه.. هل فعلا كان وجوده خطراً يتربص بمبادئ المجتمع وعقيدته! لماذا أُحدث نفسي الآن بكل هذا، لقد قمت بدوري بالشكل الصحيح، سألت كل من له علاقة بهذه الأمور، وجميعهم كانت تبدو على ملامحهم السعادة والفخر مما أنا على وشك القيام به، بل إن احدهم ربت على كتفي والدموع تسيل منه متمنياً لو أنه في مكاني، ولكن تلك مهمتي وذلك قدري الإلهي..
-»لماذا أنت متشكك، قم بواجبك، هؤلاء يدعون بكل مكر أن غايتهم إخراج المجتمعات من جهلهم وغمامة عقولهم ولكنهم زنادقة يريدون إغواء الناس بفكرهم المنحرف، نحن في حرب، وهم من بدؤوا ذلك، يحاربون أفكارنا التي تربينا عليها بأخرى دخيلة وباطلة، ثم إنهم لا ينفكون عن أخذ الكثير من العلماء والكتاب والمثقفين من منبوذي عصورهم قدوة لهم».
قاطعته كي أجعله يؤكد لي جواز قتله، أجابني بعد تنهيدة ممتعضة:
-»إباحة دم مثل هكذا أشخاص ليس عليه أي حرمة بل أن جزاءه عظيم وجلي».
-لكن لماذا لا يزال الخوف يسكنني اليوم وصورته بالكاد تغيب عن مخيلتي.. أنا لم ارتكب أي خطأ، كان يستحق ما حصل له.. قمت بواجبي تجاه أحد أمواج الطوفان الذي اجتاح مدينتنا كما وضحوا لي، وقفت سداً منيعاً أمام كل من يهدد مستقبل شبابنا.. هو من سلك هذا الطريق وجعل من أفكاره قرباناً لموته..
تنهد قاتلي للحظات عله يمسح عن كاهله شيئاً من هذه الرعدة، لكن شيئاً لم يتغير.
سألت نفسي منذ متى كانت الأفكار سبباً لإزهاق روح إنسان، وتذكرت أن البشرية لطالما ارتجفت خوفاً من أفكار أبنائها وضحت بالكثير منهم لترضي البقية.
اتفقت معه فيما قال، وسلمت بأني أحد هؤلاء الضحايا، وتيقنت بأني لن أكون الأخير، وأن الخوف من الأفكار سيستمر ما عاش الإنسان.
التغيير هو أكبر المخاوف التي عاشتها البشرية على مر تاريخها.
كنت أراقبه وأنا أبتسم، وبت متأكداً من كل الشكوك التي ساورتني بأنه ضحية لحفنة من القادة الذين أملوا عليه ما يفعله من أجل أن يصلوا

لغايتهم.
هكذا هم المغيبون، تحشى أفكارهم بأشياء لا يعرفونها، ويصدقون كل ما يدخل عقولهم دون أدنى انتقاد، ويصبحون عبيداً لأفكار غيرهم، متناسين أن أجمل هبات الإنسان هي العقل والتدبر، وأن أعظم ما يمكن التماسه هو قوة السؤال والنقد.
تركته وهو منغمس في هوة الخوف وتأنيب الضمير وعدت إلى بقعتي.
جلست وحيداً من جديد استرجع كل المواقف التي حضرتها بعد خروجي من جسدي البشري، مرت كلها أمامي ببطء شديد، انغمست فيها بتجل وإمعان لأفتح بعدها عينيّ استعداداً للحظة المنتظرة.
تحول كل السواد إلى شعاع ناصع وخلاب، رغم قوته إلا أنني لم أنفك من التمتع فيه بكل ما بي. بدأ وكأنني اقتربت من ضالتي الأخيرة، هناك حيث كل الاحتمالات ممكنة وحقيقية. تهيأت للاتصال بهذا الشعاع الهائل..
رأيتني أتسرب إليه.. شعور السكينة غدا هو الحقيقة المطلقة، بعدها انتهى كل شيء.. كل شيء بلا رجعة.

ريم الفضلي.

حياة

حشد من الأطباء يتحركون بكثرة حولها، صافرات الأجهزة تتفاعل بصخب يكسوني بالفزع، كنت سأتمكن من معرفة وضعها من خلال قراءة تعابير وجوههم لولا أن الكمامات تحول بيني وبين ذلك.. حتى نظرات عيونهم متشابهة بلا أية تعابير، وأمي على السرير لا حراك بها ولا صوت. كم هو مرعب أن يعيش المرء هذا الموقف، أراقبها من خلف زجاج غرفة العناية المركزة بقلب واجف لا يتوقف عن الابتهال إلى الله أن يشفيها ويطيل في عمرها، أعجز تماماً عن تخيل لحظة واحدة من عمري بدون وجودها وحبها ودعواتها لي.

منذ دخلت حياتها انقلب عليها من حولها، وتغيرت حياتها رأساً على عقب.

لكنها مع ذلك ما زالت تسترسل في أحلامها بأن تحتضن أبنائي..

تحكي لي كيف ستجهز لي بخور «القشيفات»[1] والفتة والقهوة و و و وفي كل ولادة سألدها.

أمي التي تتخيل كل هذه المواقف بشغف أكثر مني وحب وراحة، هل تراها ستغادر الحياة قبل أن أتزوج وتطمئن علي؟!

إذا صدق الأطباء وتوفيت خلال أيام كيف سأعيش؟ أين سأذهب؟ هل سيسمح لي أخوالي بالسكن في بيتها كما وعدوها حين تنازلت لهم عن كل نصيبها من ورث أبيها؟ بالتأكيد سيفرضون أفكارهم وسلطاتهم على أدق تفاصيل حياتي..

لست الفتاة الوحيدة التي تتربى يتيمة الأب لأمر مطلقة، لكن تعامل الناس معي شيء مختلف، فقد وجدت الكثير من الاهتمام الزائف المرصع بشيء من الشفقة، كما أني رأيت بعض الاشمئزاز مني وكأني «نجاسة» أو مرض معدٍ!

كنت أستغرب كثيراً في طفولتي حينما أقترب من بعض الفتيات المقاربات لي في العمر وسرعان ما يتجنبن اللعب معي!

لماذا أنا الودودة التي أشارك الجميع ألعابي وقصصي وحلوياتي يتركني الجميع، بالرغم من أني لم أكن أتلفظ بأي ألفاظ نابية مثل سعاد، ولم أكن طماعة مثل ريم ولا بكَّاية مثل هند!! أتراني مصابة بتشوه مخيف لا أراه؟!

حتى جاء اليوم الذي سمعت فيه ماما نضيرة تحكي قصتي الغريبة، وتحدثت بأهم يوم في حياتها وحياتي أيضاً! وفسرت لي كل الألغاز التي من حولي!

***

منذ سنوات كانت الخالة نضيرة تحكي لصديقتها أم سارة التي عادت من الغربة قصتها المثيرة قائلة:

لم أشاهد طوال حياتي التي قضيتها في القبالة امرأة ترى مولودها بذلك الشغف، الأمل، الفرح والحزن معاً.. حبها الشديد الذي كان يترقرق من عينيها وهي تقول: «ليت أباها يراها.. انظريها يا أختي»، كانت كطفلة تحتضن طفلتها، وكانت أختها أشبه بملاك يضم الاثنتين بجناحيه، حتى انهارت باكية مع أختها وظلت تواسيها، يبدو أن أبا الطفلة متوفٍ، لم أسمع ما كانت توشوش لأختها به، وفهمت أنها تتحرج لوجودي..

استأذنتهما لصنع «قهوة النفساء»[2] التي لا تخلو من مطبخي، وأحرص أن أضيِّف بها كل امرأة تلد عندي، كانت أطول فترة أحضِّر فيها القهوة، فقد كنت أبكي عليهما وعلى نفسي معاً!!

وحينما هدأ صوت بكاء المرأتين مسحت دموعي، وغسلت وجهي ودخلت لأقدم القهوة للنفساء الصغيرة. رتبت في رأسي حواراً خارجاً عن البكاء، سأشرح لها عن فوائد هذه القهوة بما أنها بكرية.. حالياً بدأت بعض النساء في التخلي عنها، لكنني أؤمن بأن عادات جداتنا هي خبرة سنين تراكمية لا يجدر بنا الاستخفاف بها، طرقت باب الغرفة لكنهما لم تجيباني، هل تراهما دخلتا في غفوة بعد أن أنهكهما البكاء؟ وحينما دخلتُ تلفتُّ في الغرفة وناديت فلم يجبني غير صوت بكاء المولودة الذي علا.. أخذتها إلى حضني وذهبت أبحث عنهما ربما تكونا دخلتا الحمام، حقائبهن ما زالت موجودة، لكن انتظاري طال..

احترت مع الطفلة، يا قلبي عليها، مرت ببالي كل التوقعات بمنطقيتها وخرافيتها، اضطررت لفتح الحقائب للبحث عن هويتهما أو ما يوصلني لعنوانهما أو أي شيء عنهما، لكني لم أجد سوى بعض المال وورقة مكتوب فيها «طرحت لك حاجات البنية في الحوش حقك، اخرجي شوفيها قبلما أحد يأخذها، بنتنا أمانة في رقبتك يا دكتورة نضيرة!!

ذهبت ووجدت الحقيبة مغطاة بملاءة بها حليب أطفال وملابس ومستلزمات أخرى. قلت في نفسي: «يا ربي كيف بافعل بالبنت دي؟؟».

لست أنسى الرجفة التي تملكت قلبي، كان بكاؤها يزداد وأنا أبكي معها، يا حبيبة قلبي وروحي أنا، فلتنك يا ويلهم من الله! لا تخافي يا حبيبتي والله لأقديك بروحي وأربيك بعيوني. ناديت زوجة أخي:

يا قدرية تعالي بسرعة أنقذيني.

أيش فيك من صباح الصبح تزعجينا؟!

تعالي بسرعة تعاااالي ما عد عرفت كيف أسوي الحليب ولا حتى كيف أفك الرضاعة.

- رضاعة أيش انتي التانية؟!

فتحت قدرية باب شقتها بتكاسل وبعين مغمضة وبتثاؤب سألتني:

أيش معك يا جنية من الصبح ابن من هذا ازعجتينا به من صباح العالمين؟

مدري يا قدرية مدري، أمها خلصت تولدها وهربت!

وما أتممت جملتي حتى انفتحت عيناها الناعستين حتى كادتا تطفوان على حاجبيها وصرخت:

كيييييييييييف شجعل لها ربي قاصف، كيف هربا؟ شجعل لها الساحق والماحق والبلى المتلاحق، شجعل لها ربي صنفور.

مله خلاص خلاص خلاااااااص مش وقته، دحين وريني كيف أصلح رضاعة للجاهلة اشتموت جوع مسكينة.

كان يوماً مليئاً بالتفاصيل والدهشة والحزن والتعاطف والسخط. سمعت من جاراتي من الشتائم و الدعاء على أمها ما لم أسمعه في حياتي كلها.

لم تكن أول طفلة أعتني بها في حياتي فكل أولاد إخوتي وأخواتي شاركت في العناية بهم؛ لكن أن تظل مولودة في حجري وفي أماني طوال الوقت تجربة مثيرة جداً. امتلأت كل ثوانيَ بالتفاصيل العجيبة، وأحسست لوقتي وحياتي قيمة ورسالة، لذلك أسميتها «حياة».

كيف مرت السنوات بهذه السرعة، وصارت «حياة» شابة كالورد المتفتح، ورغم هذا ما زالت في قلبي طفلة كأول لحظة من ولادتها.

***

ما زلتُ أمام باب غرفة العناية المركزة وصافرات الأجهزة لا تهدأ، والدكاترة من حولها يتحركون كنحل في خليتهم، لست أدري من الذي سيقف بجانبي أنا وماما نضيرة.

من بعيد تلوح لي جارتنا أم عبد الله يسبقها بكاؤها وهمهماتها إليَّ، تتنهد من أعماقها وتقول لي:

- الله يطول في عمرها عشانك!!

وتقف من وراء الزجاج ترى أمي، وتتمتم بدعواتها لها.

تلتفت إليَّ أم عبد الله وتقول:

- طبيعي تبكي عليها هي الي ضمنتك ولمنتك من يوم ما وصلتي على الدنيا ما فلتنك.. أووو يا حياتي لو تشوفي كيف فرحت بك، يمكن لو كنتي بنت بطنها ما كانت فرحت بك واهتمت بك كذا.. رحت لها يوم ولادتك وشفتها بنفسي كيف كانت.. انتي عارفة إني كمان شفت أمك الحقيقية؟؟

- بالله! فين؟!

- قدام باب بيتكم.. أجت بعد أسبوع من ولادتك، وأني واجية لا عندكم لقيتها جنب البيت، قالت لي إعطي خالة نضيرة ذي الأوراق وراحت، لمن دخلت اكتشفنا إنها رسالة من أمك.. بالله يا حياة ما عد وصلتكم أي رسالة جديدة من أمك الحقيقية؟؟

أعادت لي أم عبد الله الشجن في هذه اللحظة، لقد كانت رسالة أمي الحقيقية حزينة كتبت فيها:

«الخالة نضيرة..

ترى هل يحق لي أن أكتب رسالتي هذه لأوصيك بابنتي؟! فأنا التي رميتها لك، وأنتِ التي تراعي الله فيها، بإمكاني أن أتخيل إلى أي حد سأكون مدانة في نظرك، وربما تندمين لأنك استقبلتني لألد في بيتك، وقد تلوميني أنني احتفظت بهذه الطفلة أصلاً، لو أنني أجهضتها لكان أرحم بها من زجها في هذا العالم القاتم القاتل للإناث، وسأخبرك أنني بالفعل قد فكرت هكذا تماماً، وسألت نفسي أي الخيارين أهون ذنباً عند الله أن أقتلها وهي ما تزال جنيناً في أحشائي أم أن أتركها تعيش وألفظها إلى هذا العالم الموحش! قمت بشرب كمية كبيرة من مغلي الشذاب وعسل النحل والسمسم، ومغلي القرفة والزنجبيل، وكل ما يساعد على الإجهاض، بل إني تمكنت من الحصول على أقراص cytotec كي أتخلص من الحمل، وحين لم أجد نتيجة بحثت عن طبيبة لأحاول إقناعها بأن تجهض حملي، لكني بمجرد أن رأيت الجنين في جهاز السونار شهقت روحي، رأيت أصغر قلب في العالم يتحرك وينبض.. نبض قلبها الذي كان ينبض في داخلي كطبول صمت أذني عن كل الضوضاء في هذا العالم التي تدفعني لإجهاضها، هل يعقل أن بمقدوري أن أقتل هذا النبض عمداً؟! يصعب على الإنسان أن يقتل نفسه لكن الأصعب عليه أن يقتل نفساً داخل نفسه، روحاً داخل روحه. بكيت بحرقة وكانت المرة الأولى التي تحن علي أختي فيها منذ علمت بفعلتي، تفهمت أن ما أمر به أصعب موقف يمكن لامرأة أن تعيشه في حياتها، وجع يهز كيانها وإحساسها بإنسانيتها وأمومتها وأنوثتها، يظل عذاباً يجلدها إلى آخر لحظة في عمرها، وقالت لي «هذه إرادة الله يا أختي.. الطفل هذا جاء رغم استخدامك لمانع حمل، وإجهاضه الآن يعني قتل نفس ولسنا قد هذا الذنب كفاية معارضة إرادة الله.. إذا مكتوب للجنين هذا يعيش بايعيش، وإذا مكتوب له ينزل أو يولد ميت فربنا بايكون رحم بحالنا وخارجنا برحمته وعفوه». اخرجي إلى الشارع واختاري قطة أو كلباً أو ماعز وحاولي قتلهم هل ستستطيعين؟ جربي أن تقتلي دجاجة أو عصفوراً

هل ستستطيعين؟ كيف لو أن ذاك العصفور بداخلك وقطعة منك؟ والله ما هان علي.. ابنتي إنسانة ربي أرسلها للحياة لرسالة لابد أن تعرفها وتفهمها وتؤديها! لقد اختار الله أن يهبها الحياة ليخلد إحساسي بالذنب، فأتممت شهور حملي متخفية.. لو أن بإمكاني أن أحتضنها وأقبلها دوماً ثم أرجعها تختبئ في أحشائي من هذه الحياة الموحشة! وأكتفي بهذا من كل ما في الدنيا.. تمنيت لو أني أظل حاملاً بها طوال العمر ولا ألدها!

أخبري ابنتي أني أحببتها حباً عميقاً من اللحظة التي رأيتها في أعماقي، وكم تمنيت لو استطعت أن أحتفظ بها معي. يقال «غلطة الشاطر بألف» لكن هذا «الشاطر» المحظوظ؛ أما أنا فغلطتي كانت «بعمر» بل بأعمار.. عمري وعمر ابنتي وعمرك معنا! ستظل وجعاً ينبض بداخلي لآخر نفس في عمري، تأنيب ضمير وإحساس بالذنب ولهذا أسميتها «خلود».

***

كم هي غريبة تلك الأم تحبني وتريد الخلود لهذا الحب من خلالي وقذفتني بعيداً عنها ورحلت!

لم تكن تلك الرسالة الوحيدة منها، فقد كانت بين فترة وأخرى ترمي لنا برسائل أكثر غرابة من سابقاتها لدرجة كنت أشك فيها أنها إحدى جاراتي!

تزورني خالتي «أم ياسر»:

لا تخافي حبيبتي.

أبكي في حضنها، رائحتها جميلة بالفعل، لكن بخور ماما نضيرة لا مثيل له. يأتي من خلفها أولادها ياسر وسامي،نظرة التسلط خفتت وتبدلت إلى إشفاق.. لكنهم ما زالوا يتنزهون عن مصافحتي! مسكينة ماما نضيرة كم تألمت لأجلي.

حينما لم تتقبل معدتي الصغيرة كثيراً من أنواع الحليب الصناعي، ترجت خالة قدرية أن ترضعني مع ابنها لكنها رفضت بشدة.. تحججت في البداية بأن حليبها بالكاد يكفي لابنها، وبعد إلحاح ورجاء من ماما نضيرة أجابتها بصراحة فجة:

- ما تستحيش تطلبي مني أرضع ابني الطاهر مع بنت الحرام هاذي؟!

وكأنني سأنجس الحليب على ابنها! كم كانت أمي تتمنى حدوث هذا كي أكون ابنة خالي من الرضاعة، ويكون كل أخوالي محارم لي ولا تشعر زوجاتهم بالغيرة مني، وأكون فعلاً بنت العائلة.. حتى سخَّر الله لي خالتي أم ياسر وأرضعتني وصار لي أربعة إخوة من الرضاعة، وأم ثالثة وأب.. أليس هذا ترفاً ؟!

وكأن أم ياسر عرفت من نبضات قلبي الذي تحتضنه من الذي خطر على بالي:

- أجت قدرية تزور أمك أو عادها؟

- لا عادها.

- أعوذ بالله من قلة الأصل!

ليست أم ياسر فقط من تنفر من قدرية، فحربها عليَّ أثارت حفيظة الكثير.

حكت لي أمي كيف أنها حين ذهبت بي للتطعيم طلبوا منها اسمي الكامل، فاختارت لي أسماء محايدة «حياة عبد الله»، وحينما أصروا على طلب الجد واللقب أضافت اسم عائلتها «فلان الفلاني»، لأنها تجدني أنتمي لها، وحينما عادت بي وكرت التطعيم في يدها ثارت زوبعة عظيمة.

تتذكر أمي كيف وزَّت خالة قدرية خالي محمد ليكلا تمنحني لقب العائلة.

كان يوماً صعباً، كانت تحاسب أمي على لقبها، وهي التي تنتمي لأسرة أخرى، وكأن لها الحق في اسم عائلة أمي أكثر من أمي ذاتها لمجرد أنها زوجة خالي!

- كيف تسموها على اسمنا وهي مش بنتنا؟

باستغراب ردت أمي:

- أقل شيء لو ضاعت أحد يسألها بنت من انتي تقول بنت فلان الفلاني ويعرفوا بيتنا ويرجعوها لنا، والا أيش تشتيني أسميها؟

رد خالي:

سميها العدني نسبة لعدن، اليمني نسبة لليمن، السماوي نسبة للسماء، البحري نسبة للبحر.

تقاطع خالة قدرية ببجاحة:

- الطي.. نسبة للـ..

ينهرها خالي محمد:

- بس يا مرة!!

ثم يلتفت لأمي:

دبري لبنتك اسم تاني، مش معنى إن إحنا سمحنا لك تربيها في بيت العائلة إنك تنسبيها لاسمنا كمان!

لا عجب، فمن يظن أنني سأنجس حليبه لابد أن يخشى من أن أدنس اسم العائلة!

يقطع حبل ذكرياتي قدوم «رجل الثلج» الطبيب المسئول عن حالة أمي الحبيبة.

دخل بهدوئه وبروده المعتادين إلى غرفة العناية المركزة. لا أدري ما الذي يراه في كل هذه الأجهزة من حول أمي، أتمنى لو أن أمي تفتح عينيها لكنها لا تفعل.

يخرج الدكتور بتعابير وجه بلاستيكية لا تختلف عن التعابير التي دخل بها.

تسأله أم ياسر:

- طمنا يا دكتور.. نضيرة بتتحسن؟

- ادعوا لها.

وينصرف بالبرود نفسه الذي لو بخخناه على سماء عدن الحارقة لتحولت إلى قطب متجمد!

أرجع إلى مرابطتي أمام الزجاج. أفيقي يا أمي أرجوك.. غداً جمعة، يوم راحتك المقدس، هيا لنحيي طقوسه، سنعمل لنا «شاي ملبن» ونذهب سوياً إلى سوق صيرة[٣] .. نأخذ «صيد» و«مخبازة» و«شتني»[٤] ونتغدا أمام البحر.

وبعدين نشرب قلصين شاي مع الحلاوى ونعدل أمر المزاج.. بعدين نسبح زي كل مرة.. المرة هاذي باتسبقيني أو أسبقك؟؟ يا أمه أنا مشتاقة أسمع صوتك.. نظرة عيونك.. مشتاقة أمسك يداتك وأبوسهن.. يكفيكي غيبوبة أني فدالك..

تتساقط دمعات حياة، تخرج من حقيبتها ملابس أمها، تتشممها بعمق عظيم كما لو كانت مدمناً يستنشق إفيونه! يعلو صوتها الممزوج ببكاء مخنوق:

- أفدي الريحة دي.. ياااا رب لا تحرمني من دي الريحة يااا رب!

***

كثير من الزائرات يأتين ويرين «حياة» واهتمامها بأمها نضيرة وحزنها عليها ومرابطتها في المستشفى.. يثنين على برها ووفائها لأمها، تأتي أم غادة، تحتضن حياة وتقول لها:

- والله إنك بنت حلال، الله أرسلك للحياة رحمة بنضيرة، اعتنت بك في صغرها لتعتني بها في كبرها.

تكظم حياة أنينها في داخلها: كل شخص من هؤلاء رسم في قدري صفحة ومضى، ثم عاد يواسيني بكلماته وكأن شيئاً لم يكن!

تذكرت كيف كنت مميزة جداً في عرس بنت «عاقل الحارة»، وحين لاحظت أم غادة أن الخطَّابات يتفحصني بأعينهن، ذهبت لتخبرهن بأنها مجرد فتاة «بلا أصل ومجهولة النسب» ليلتفتن إلى ابنتها غادة وبنات أخريات أحق منها بوقتهن، ففتاة «لقيطة» بالتأكيد لن يكون عليها الطلب! حتى جمالي لم يسلم من قبحهن؛ فكثيراً ما فاحت نتانة همسهن «طبيعي تكون أمها حلوة!»، وجعلوا من الجمال الذي حباني به المولى تهمة تطاردني في كل حركاتي وسكناتي! ومبرراً لهم بالتشكك فيني خصوصاً إذا مهروه بعبارة «العرق دساس»، وكأنهم خلقوا طاهري العروق لا تشوب عروقهم شائبة! هل ترى والديَّ كانا قبحاً خالصاً أم كان بهم صفات جينية أخرى تنبض في عروقي؟

ترى هل كان والديَّ أولاد أصل حين فعلوا فعلتهم؟ أم كان آباؤهم وأجدادهم لقطاء؟! كم جلدني هذا المجتمع بسياط «العرق دساس» وكأنهم طاهري الضمائر لا يشوبهم إلا عرقي أنا! لكن كوني لقيطة يترتب عليه قلق مضاعف، فالأعين تركز عليَّ بعدسات مكبرة، لابد أن أزن كل حركاتي ونظراتي ولفتاتي بالميزان الحساس، فمن السهل أن يشتمني أي أحد في أي وقت حتى بدون مناسبة «يا لقيطة» يا «بنت الحرام».

أغفو قليلاً على المقعد الذي أجلس عليه، ثم أفيق من نومي على صوت خفيض يناديني إنها أمي.. أفز بسرعة لأجيبها.. لا تزال أمي الحبيبة غارقة في غيبوبتها.. للأسف.. كان مجرد حلم أيقظني! يا رب قوها واشفها وأعنها وارفع ألمها بحق كل لحظة تألمت فيها لأجلي وتعبت فيها معي.. بحق كل فلس أنفقته على احتياجاتي وكمالياتي وإسعادي.. بحق كل حلوى أذاقتنيها.. بحق كل حرف علمتني إياه وكل سورة قرآنية حفظتني.. وكل دعاء علمتني معناه واستشعاره..

يا رب لتبقها لي أو فلتأخذ روحي معها.

أشعر بالخوف والرهبة من الدنيا ومن فيها، كنت أظن أن أكبر مصائبي هي عدم معرفتي لأبي وأمي الحقيقيين، لكن مصيبتي الحقيقية فيما لو غادرت ماما نضيرة الحياة! أين سأذهب؟ كيف سأعيش؟ هل سيستدعيني خالي محمد وأعيش تحت رحمة خالة قدرية؟ أم أمي أم ياسر؟ وهل سيتقبلني أبناؤها؟ هل ستتقبلني هذه البلد بأسرها؟ وأمي نضيرة هي التي فرضتني عليها فرضاً؟ أنا التائهة في هذه البلاد وبوصلة روحي لا تشير إلا إلى أمي نضيرة.

كلما مررت بالناس تساءلت من منهم أهلي الحقيقيون؟ كلما ابتسمت لي امرأة تساءلت هل تراها والدتي؟ كلما شبهني أحد بأي شخص أتساءل هل تراه يقرب لي؟

***

تنصرف جميع الزائرات وهن يدعون لأمي بالشفاء، ويعدنني بالمزيد منه في صلواتهن! من بعيد ألمح خالي محمد وزوجته قدرية، وفي مشهد مفاجئ تحتضني خالة قدرية وتهمس في أذني:

- ولا يهمك والله ما نتركك!

جاء خالي محمد ليحل مكاني ليلاً وأذهب أنا للبيت، كيف سأقضي ليلتي هذه عند خالة قدرية وعيالها؟!

***

استيقظت مبكراً من نومي المضطرب، صليت الفجر وناجيت ربي أن يشفي أمي الحبيبة، وظللت أقرأ القرآن حتى اكتست سماء المعلا بضوء الصباح، قمت أرتدي ملابسي لأعود إلى المستشفى، وقبل أن أخرج لحقت بي خالة قدرية ونادتني:

- تعالي يا حياة الفطور جاهز!

لست أصدق!! اقتربت مني:

- تعالي نفطر سوا باكلمك بموضوع!

إذن فقد خططت لمبيتي عندها ونادتني للإفطار معها لحاجة في نفس يعقوب!

ذهبت لأتناول الإفطار معها وأنا أحاول تخمين المصلحة التي تريدها مني وأمي على فراش المرض؛ لقد خططت مسبقاً لتنازل أمي لزوجها وأبنائها عن ميراثها ما الذي تبقى الآن.

تبدأ حديثها:

لو في حرامي أجا يسرق منك أغلى حاجة عندك في حياتك ممكن تحبيه وتعيشي معاه عادي؟

باغتتني بسؤالها الغريب، وأجبتها بتلقائية:

طبعاً مستحيل.

تنفست بارتياحٍ أثار استغرابي، وواصلت حديثها:

أنا عارفة يا حياة إن الكلام الذي باقوله غريب ومش حلو بحقي بس لي فترة طويلة نفسي أقوله لك.

هززت رأسي متسائلة:

أيش يا خالة خير؟!

واصلت حديثها:

باتكلم معك من الآخر.. أنا من أول ما اتزوجت محد وقف جنبي غير نضيرة، كانت أختي وصديقتي وكل حاجة، كانت تتنبه لأولادي أكثر مني، وتحبهم وتصرف عليهم أكثر مني، وكنت في نفسي أقول يمكن ربي خلقها عقيم وما استمرت في زواجتها رحمة بي عشان تتفرغ لي ولأولادي! لمن انتي أجيتي حسيت كذا كأنك شليتيها مني ومن أولادي فما عد قدرت أتقبلك، كنت أفكر كيف تجي واحدة غريبة تأخذ كل هذا مني ومن عيالي!! لم أتفوه بشيء، فهذا ما يقال عنه عذر أقبح من ذنب!

واصلت خالتي قدرية حديثها:

أني والله من فترة تغيرتو ونفسي أكفر عن ذنوبي، وعارفة إني لو قلت لك سامحيني باحرجك وما باتقدريش تسامحيني من قلبك، بس أوعدك ما عد باعمل معك أي تصرف مش مليح.

أجبتها:

الله يسامحك يا خالة مقدماً، أني والله ما ببالي شيء الآن غير صحة أمي.

ترد:

الله يشافيها يااارب.. لا تنسي تمري لأم سارة.

بالرغم من جمال أحياء المعلا ورقيها لكنها فقدت روحها ومذاقها بلا أنفاس أمي.

أمشي كعادتي من شارع حافون، تستوقفني كنيسته « كنيسة الحمل الطاهر»، أقف أمامها وأتأملها كثيراً، فكرت للحظة.. ماذا لو أني ولدت في عالم مسيحي.. بلا تعقيدات وخطب التبني والأصول والأنساب والإرث.. لا ينقص من قيمتي ذنب والديَّ، ولا يعيقني من الحياة الطبيعية ذنب أي أحد غيري، مجتمع يقدر كيف أن فتاة بمثل وضعي تحلت بأخلاق فاضلة، واجتهدت في دراستها وحافظت على نفسها برغم كل

النقص الذي يحفها، والقبح الذي يحوم من حولها..

تذكرت انهيار أمي في السجل المدني يوم ذهبت لنقطع لي البطاقة.. كانت أمي ما تزال بصحتها حتى تلك اللحظة..لم يذهب من بالي ذلك الضابط الأشعث بلحيته الحمراء المقززة وهو يستجوب أمي:

- أين أبوها؟

- مات.

- طيب ادعي لي عمها أو جدها أو ابن عمها.

- بادعي خالها يجي.

- ما ينفعش ضروري أحد من أهل أبوها عشان نطابق اسم العائلة.

هنا تأملت أمي في لحيته ومسبحته خيراً ودنت منه ووشوشته:

- أصلا أنا تبنيتها وألفت لها اسم بس هكذا عشان أعمل لها شهادة تطعيم تدرس.

هنا انتفض الرجل كأن حية رقطاء عضته!

- استغفر الله العظيم! عملتي لها اسم من نفسك؟؟

- أيوة مش أنا تبنيتها.. من بايسميها غيري؟؟

- هذا حرام.. المفروض تبلغي القسم وتروحي للقاضي هو يعمل لها اسم بحكم محكمة!

- وأني أيش عرفني يا أخي إنهم يعملوا كذا؟!

وقف الرجل من كرسيه بغضب عارم وصاح بصوت سمعه سكان الحي بأكمله:

- انتي الآن مزورة ومرتكبة إثم كبير.

واحتجز أوراقي لديه وصرخ بكل عنجهية:

تحال إلى التحقيق! ثم التفت إليها.

- انتي عارفة إنك عملتي جريمة عقوبتها السجن!

ومن تلك اللحظة تسلل الخوف إلى أمي وفتك بكبدها! لا سامح الله تلك اللحى!

كيف ترى تبني طفلاً عاجزاً جريمة.. ورميه أمراً يغض القانون طرفه عنه! بدلاً من أن تكرم أمي على إنسانيتها ويتكاتف المجتمع بأسره معها ليساعدونها على فعل الخير يجازونها هكذا!!

كيف يعيش والدي الحقيقيان حياة اجتماعية طبيعية لا يعرف أحد فعلتهم، ومن يدري قد يكونا شخصيتين اعتباريتين تقود البلاد وتنحني لها الجباه إجلالاً، وأنا وأمي المتبنية نعاقب بدلاً عنهم!

واصلت مشي وحينما وصلت للقلوعة تسرب شيء من الإحساس بالحنان إلى قلبي.. كم كانت أمي تحب هذا الحي وتتمنى لو بإمكانها العيش في منزل من هذه المنازل المرتبة، كلها بيضاء بأحجام شبه متساوية، وأسطحها صفراء جميلة كأنها قوالب حلوى أو آيسكريم..

وصلت لبيت خالة أم سارة، استقبلتني بمرحها المعتاد:

أهلا أهلا بالحبيبة بنت الحبيبة.. أووو ليش تبكي يا بنتي صلي على رسول الله! هاذي نضيرة نضيرة انتي ما تعرفيها بلا بكا بلا هبالة! مله عاد نحنا بانجي نسهر عندكم وانتي بنفسك بتسوي لنا «ساكت»[٥] ..

تحرك يديها بخفة أثناء حديثها:

اووو كم تحب نضيرة حقي العشار والزربيان.. عاد انا باطبخ لها بيداتي واجي نتغدا سوا وبعدين نلبس حقنا الدروع ونتبخر اووو لو تعرفي أيش على زباد ومعشوقة وبخور صلحتو دي المرة.. بتجنن عليهم نضيرة جونان تعالي اوري لك هم.

تدخلني إلى غرفة نومها وتفتح دولابها وتريني أقراص البخور التي طبختها مع علب الأخضرين وزجاجات المعشوقة[٦].. تخاطبني بحماس:

شوفي عادهم مالهمش إلا عشرة أيام من يوم ما طبختهم، بازيد اصبر عليهم شوية يتخمروا مليح وشوفي أيش على ريحة بيكون فيهم عرايسي درجة أولى.. باتبخر أني ونضيرة وباوصي لنا على فل ونفتح الإم بي ثري ورقصنا لنا لحجي.. وتمسك بيدي لتراقصني وتغني بمرح:

يا ورد يا كاذي

ألا يا موز يا مشمش

يا عمبرود

يا قمري الوادي

الله الله

من علمك لما
خلفت الوعوود
ثم تغير مزاجها بالكامل وقالت: وبعدين نرقص الشرح[٧]
عاد احنا بانرقص لمن ترقص أرواحنا.. شوفي دي المرة باترقصي معانا انتي وبناتي كلكم كله رقص عدني مش تصرعوا نحنا بتامر حسني!!
وجدت نفسي أضحك وأعيش تفاصيل خفة دمها.. شوفي محلا ضحكتك يا بنتي أيوة كذا أني فدالك انتظري باسمعك نكتة!
كعادتها أم سارة تنجح في إدخال البهجة إليَّ مهما حاصرتني الكآبة.
روحها طائر يحلق ولا يعرف الهبوط! ترتفع بنفسياتنا بجمالها، ترتدي عباءتها وطرحتها وهي تتحدث:
شوفي يا بنتي قبلما نروح المستشفى معانا مشوار.
فين يا خالة؟
بنروح للبحر.
البحر وأمي بذي الحالة!!
أقل لك يا بنتي بلا نكد.. بنجيب لامك هدية من هناك.
نخرج من منزلها ونتمشى وهي تؤكد على نصائحها:
اضحكي قريب من أمك هي تسمع صوتك، مازحيها وقلي لها نكتة كلميها كلام كذا يرد لها الروح انتي عارفة إنها بتحس بك حتى لو هي بغيبوبة!! دا قلب الأم مش لعبة!!
لم أشعر بالوقت معها حتى وصلنا إلى الساحل الذهبي، أحبّ سواحل عدن إلى قلب أمي.
تقطع شرودي أم سارة:
تعرفي يا حياة أمك من كتر ما تحب البحر مرة قالت لي (أتمنى لو أنني حين أموت بدلاً من أن يدفنوني أن يرموني في البحر.. لألتصق به إلى يوم الدين!).
رأيت فتاة في مثل عمري يبدو عليها الترف وصل إليها شاب أكبر منا قليلاً كانا يتلفتان حولهما بريبة.. يبدو من تلفتهما أنهما قد يكونا مشروع والدين جديدين لـ «حياة» جديدة مثلي! لكن أصولهما بالتأكيد ستشفع لهما بأن يعيشا حياة طبيعية، وتدفع هي ثمن لحظاتهم هذه وما سيليها!
هكذا هو مجتمعنا يعاني من الحَوَل الأخلاقي فيعاقب الضحية نيابةً عن الجاني، وفاعل الخير نيابة عن فاعل الشر!
انتبهت لهم خالة أم سارة:
شوفي يا بنتي انتي أطهر وأنظف منهم ومن الذي ربوهم! والذي يقل لك غير دا الكلام اديلو بالشبشب! نعم إنك أو احنا الذي بنختار آباءنا وأمهاتنا عشان نتعير بهم؟ ربي الذي كتب لكل واحد فينا من أمه ومن أبوه وبأي طريقة بيجي لذي الدنيا
احنا علينا نختار أفعالنا وتصرفاتنا وهذا بس الذي ربنا بيحاسبنا عليه.
تلعب حياة بالرمل بعشوائية، تنعكس أشعة الشمس على دموع بدأت تتسرب من عينيها فتعطيها بريقاً لؤلؤياً، فهذه أول مرة تزور البحر بلا أمها نضيرة.. تحكي لأم سارة عن تلك الرسالة التي كتبتها لها أمها البيولوجية:
«حبيبتي خلود، كان الأمس بالنسبة لي أسعد يوم منذ ولدتك، رأيتك البارحة تلهين على الشاطئ، أرسلت صديقتي وأخواتها ليتسلين مع الخالة نضيرة، وتوليت أنا مهمة اللعب مع الأطفال لأحتال وألاعبك معهم، وأتمكن من التقاط صور لك معي ومع إخوتك!! حينما التقطت تلك الصور استعدت بها حياتي القديمة.. سبحان من جعل منك مزيجاً عجيباً من ملامحي وملامح أبيك.. لكأنك نصفه ونصفي معاً.. بل نحن الاثنان مكتملين فيك!! يا قطعة الألم في روحي.. كم أتمنى لو أن بإمكاني أن آخذك معي وأربيك مع إخوتك فكلاكما ولدي! بالرغم من أني لست متأكدة من أنك تريدين التعرف علي من الأساس.. لكن كيف لي أن أفعل هذا في مجتمع لن يتقبل حفاظي عليك، بل يجبرني على اقتراف ذنب على ذنب كي نتمكن من مواصلة الحياة!
قضيتُ ما مضى من سنوات عمرك أحتال على الحياة كلص لأسترق نظرة إليك، أتضور ألماً وأنا أراقبك من بعيد، تارة أتنكر في ثوب ممرضة تأتي للمدرسة تتفقد الطالبات لأراك، ومرة أنتحل شخصية موجهة تربوية لأدخل فصلك وأتحدث إليك! وأخرى أستدرجك إلى جواري في مناسبة اجتماعية لأشتم عبيرك، أتمنى أن أحادثك حديثاً حقيقياً كأم وابنتها ولو لمرة واحدة.. أن تسمعيني.. وأن أستمع لعتبك وسخطك عليّ.. أن أعانقك لتحسي بحبك الذي يضطرم داخلي.. أن أسمع منك كلمة ماما ولو لمرة واحدة.. أن تري وجهي وتحفظين تعابيره.. أن أرتوي من لقاك.. لكأن الله حرمني من إنجاب بنت غيرك تؤنسني.. يا خلود ألمي.. وخلود حبي.. وخلود روحي.. يا حياتي التي عجزت عن الحفاظ عليها.. عيناك بالنسبة لي هما مرافئ أماني.. لست أدري من منا تحتاج إلى الثانية أكثر.. فأنا لم أجد لا في أمومتي الجديدة ولا في أي من البشر حولي

ما يعوضني عنك! إياك أن تقترفي نفس خطئي.. فالذكور كل ذنوبهم مغفورة.. ونحن فقط من ندفع الفواتير.. ابحثي في حقيبتك جيداً.. لقد وضعت لك حرزاً من القرآن أتمنى أن لا تتركيه.. أحبك كثيراً.. حتما سنلتقي أكثر».
تسألني أم سارة:
نفسك تشوفيها؟
الصدق أني ما أحبهاش خاالص، ولا ممكن أسامحها إنها جدلت بي، لكن فيبي فضول كبير.. نفسي أعرف من هي؟ وكيف شكلها ؟ وكيف تعرف أخباري؟ وكيف تقدر تحدد مكاني وتلعب معي دون ما أحد يحس فيبها!! وكيف تعرف أخباري كأنها جارتي؟!
هي معذورة.. من حيسمح لها تخليك معاها؟! لو كانت أمك نضيرة تحبل كانوا اتهمنا أنها خلفنك وهي مطلقة!
مشت أم سارة نحو البحر وملأت قارورة كبيرة من مائه، ثم أمسكت بيد حياة واستقلتا تاكسي إلى المستشفى.
سُمِحَ لحياة - أخيراً - أن تدخل إلى ماما نضيرة فغسلت وجهها بماء البحر، تتنفس ماما نضيرة رائحة البحر فتئن وكأن شرراً من الحياة توهج في داخلها!

ابتسام القاسمي.

[١] القشيفات : بخور خاص بالنفساء في عدن ، وفتة النفساء في عدن هي عبارة عن نوع محدد من الحبوب مع التمر.
[٢] قهوة خاصة بالنفساء في عدن.
[٣] صيرة: من أشهر أسواق السمك في عدن.
[٤] صيد : يطلق على أنواع الأسماك ، مخبازة : نوع من الخبز يتناولونه عادة مع السمك، شتني: نوع من المقبلات يصنع من الطماطم والكزبرة وبعض البهارات ويعصر في العصارة ويقدم بدون طباخة.
[٥] ساكت : بلهجة عدن أي : فشار.
[٦] الأخضرين والمعشوقة كريمات عطرية بها روائح أخرى تصنعها العدنيات منزلياً لتعطير الجسم وتثبت البخور عليه وهذا ما يميز رائحة النساء العدنيات الساحرة.
[٧] يا ورد يا كاذي أشهر أغاني الفنان فيصل علوي وهي من أجمل الأغاني للرقص اللحجي، "الشرح" إحدى أرق الرقصات العدنية.

لأنها أنثـــى

«غزال»

رجل بجانبه بنت وولدان توأمان، وولد ثالث أصغر من الجميع؛ تبدو أعمارهم بين الثانية عشرة والثالثة، يرتدون ملابس محلية، وفي حضنه مولودة صغيرة، يقفون في منتصف صورة قديمة تحتل قلب الحائط.

تمتد يد رقيقة منقوشة بالخضاب لتتلمس ملامح كل شخص في الصورة، ثم تقترب شفتان جميلتان لتقبيل كل واحد منهم.

تشع لمعة في هاتين العينين العسليتين، ربما من الشجن أو من الامتنان؛ فهذا الحضن ممتد طوال حياتها، لم تحس يوماً أنه انتهى..

تتناول مذكرة بغلاف بنفسجي وتكتب:

شكراً لك يا الله فقد رزقتني أحن أب في الدنيا، وإخوة هم سندي في الحياة، وقلب أم يزن الدنيا بأكملها، لولاهم - بكل بساطتهم - لما تمكنت من التماسك حتى هذا اليوم.

خالتي التي أرسلتها إليَّ كنبيٍ؛ فبقدومها في ذلك التوقيت خلقت في داخلي طموحاً ونجاحاً لم أكن لأفكر به من دونها.

أحب أبناء إخوتي كقطع متناثرة من روحي، فلولا وجودهم - جميعاً- حولي لكانت حياتي قاحلة جدباء!

صحيح أنني قبلت بقدري الذي كتبته لي.. أضحك وأسخر كثيراً منه ومني، إلا أنني كثيراً ما أشتاق للحياة البسيطة ولأحلامي الساذجة.

تأخذ "غزال" نفساً طويلاً، وتنظر ليدها اليمنى، تقبلها وكأنها تواسيها، تفتح درجاً لتخرج منه علبة قديمة بها "دبلة"، تبتسم لها بنصرٍ، ترميها من النافذة لأبعد مكان وهي تقول:

"صدقة على الذي سيجدها".

تبتسم "غزال" تلمع عيناها وكأن دمعة همت بمشاكستها، تتذكر كيف هي الآن مختلفة كثيراً عما كان وضعها قبل سنوات، تتذكر الفترة التي قلبت حياتها رأساً على عقب بكثير من تفاصيلها..

***

دخان حطب التنور يتصاعد من أعلى بيت ريفي بسيط أقرب إلى الحداثة، وصوت خالة وهبية يعلو قليلاً:

- هيا غزال كملتي تخبزي؟ الآن يوصلوا الضيوف.

- أيش[1] يا أمه دوشتينا، أول وآخر أخت في الدنيا عتوصل من سفر!

- والله لا اطلع لش يا "صياد"[2] انتي واللقافة من الصبح.

تنزل فتاة مراهقة ممشوقة نضرة، زادت حمرة خديها حرارة التنور، ترتدي روباً مزموماً إلى خصرها يملؤه الطحين المتناثر، وشعرها مغطىً بـ طرحة كان لها نصيب وافر من الطحين، وتحمل على رأسها غطى[3] يحوي قرابة ثلاثين خبزة، ومطروح فوقه قوَّارة[4]، تخاطب أمها:

- هيا مه يا روحي.. هولا الخبز يكفين أو أزيد أخبز ثاني؟

تبتسم الأم:

- تظني ليش تأخروا؟!

تبتسم غزال بشقاوة وهي تقشر بقايا العجين الملتصق بيديها وتتأكد من أن الدبلة التي في يمينها نظفت تماماً:

- عاد هو أحسن! يعني عجبش استقبلهم بعد سنين فرقة وشمي سوخار[5]؟ خليني أنزل أتغسل واتعطر وافعل لي مناكير والبس جينز و..

تقاطعها الأم:

- قسما بالله لا أسحبش من الضفيرة هاذي لوما تجمعي حسش[6].

- لا يا أمه أنا فدا لش، أصلاً هي أحلى حاجة ورثتها منش!

تضحك بغنج وشقاوة وتقول:

- الآن أبخر البيت.

تتقافز في مشيتها وهي تدندن بأغانٍ من تخريفها:

"يا بقرة صبي مطيط[7]

صبي مطيط

ومحمد يشتي عصيط

يشتي عصيط[8]".

***

تجلس غزال مقابل نافذة غرفتها المفتوحة، تقذف نافذة البيت المقابل لها ببعض الحصى حتى تظهر فتاة حنطية مقاربة لها في العمر وتفتح نافذتها وهي تبتسم، فتبادر غزال:

- وينش يا لطيفة؟ من أول بيناراجم لش قد عداكسر الزجاج وانتي ولا لش حس!

- سهل الطاقة بكلها فداش.

تغني غزال بفكاهة:

- اننننن شباكي.. اننننن يفداكي..[9] ، المهم جي شوفي خالتي كم أدت لي مجلات فيهن إيلي صعب.

تعلق لطيفة بابتسامة مشاكسة:

- صح انهو وسيم جبر قلبه! لكن مش لدرجة تخليش تلتذعي وتشتي[10] تقلديه.

- أنا التذعت؟!

- وانتي من حين شفتيه في التلفزيون وانتي كودش بتلفلفي القصاقص[11] تشتي تخيطي! والمشكلة انهن بيوقعين فساتين مثل القوارات.

- شلووووش[12] يا خبلاااااا.

تتعالى ضحكاتهن.

تستأنف لطيفة الحديث:

- كيف هي خالتش الذي جت من مصر؟

- أيش جت من مصر.. قلي مصر بنفسها جت عندنا ! ما شاء الله والحلى والأناقة والثقافة فيها وما كأنها أكبر من أمي! تعالي شوفيها، وشوفي كم جابت معاها هدايا لعرسي.

****

تجلس الخالة وهبية في غرفة المعيشة مع أختها شفيقة التي ترتدي بلوزة مكممة سوداء من قماش القطيفة، وتنورة طويلة من القماش نفسه لكن بلون أحمر قانٍ، يداها صافيتان لا يبدو عليهما أثر العمر، وأظافرها مصبوغة بنفس لون تنورتها، رأسها ملفوف بطرحة سوداء شفافة، تنسدل حول جبينها خصلة صغيرة مصبوغة بلون أحمر مائل إلى البنفسجي، فتضفى عليها المزيد من المظهر الشاب المميز، يفرزن بعض الأكياس المحتوية على الهدايا حولهن، وتدور بينهن وشوشة:

- يا أختي ما يصلحش تزوجوها وهي هكذا ضروري تأخذيها لعند دكتورة أكيد عندها مشكلة!

- كم يا بنات تزوجين وهن أصغر منها.

- بس غزال مش صغيرة، الذي أصغر منها اتكلفين[13] وهي متأخرة، جارتنا في مصر مسكينة حصل لبنتها هكذا وبعدين كانت بطنها دايماً توجعها لوما أخذوها للدكتورة وعملت لها جراحة بسيطة وارتاحت، هي حالة يسموها "احتباس الدورة الشهرية الأولى".

- كيف يعني احتباس؟

- يعني البنت تكون قد تكلفت أصلاً بس تجلس النجاسة تتجمع داخل المحبلة[14] حقها وتضرها، وليلة عرسها تتعب وتتوجع وتتبهذل ويسعفوها المستشفى وكلام وسماع ناس وأكثر الرجال ما يفهموش! أحسن لها تروح ذلحين[15] للدكتورة تشوف إذا عتدي لها علاج أو تعمل لها جراحة بسيطة وتتزوج وقلبش مرتاح!

- والله يا أختي انني خايفة، كيف بنت عزبة[16] وتروح للدكتورة!

- أنا عداخذها للدكتورة واتكلم معاها طبيعي ولا يهمش الموضوع عيكون أسهل، كلما تأخرنا كلما تضررت البنت أكثر.. انتي متخيلة أصلاً إن النجاسة حق سنين تجلس تتجمع داخلها!!

- يووووه يا ويلي على بنتي!

***

بجانب جهاز السونار.. تتمدد غزال بجسمها الرشيق على السرير، تفحصها دكتورة ضخمة الجثة في بداية العقد الخامس من العمر؛ يبدو من بطنها الكبير أنها في أشهر حملها الأخيرة، في وجهها بعض الشعيرات حول فمها وفي ذقنها، تنظر إلى الشاشة القديمة بانبهار وتفتح عينيها أكثر، تخلع النظارة التي ترتديها وتمسحها ثم تلبسها مرة أخرى, تقول لغزال:

- انتقلي للسرير الثاني اشتي أكشف عليش من تحت!

تنظر غزال لخالتها باستنكار:

- ليش اديتيني يا خالة لا هانا؟ يا عيباه أو قصدش تكشفي عليا قبل العرس؟؟![17]

تقاطعها الدكتورة:

- عرس أيش انتي أصلاً مش بنت!!

- احترمي نفسش زيدتي فيها أنا أشرف منش ومن الذي خلفوش يا داشرة!!

وتهم غزال بصفع الدكتورة لولا أن تدخلت خالتها.

- فهميني يا دكتورة أيش فيه بجاه النبي!!

***

في صباح اليوم التالي تتجمع أربع فتيات في المرعى، ويتناولن وجبة الإفطار المكونة من اللبن الرائب والزحاوق[18]، والبسباس المطحون واللحوح، وحولهن المواشي، ويحلو إفطارهن بالأخبار الساخنة.

تبادر إحداهن:

- انتن داريات إنهم فسخوا خطوبة غزال؟؟

تؤيدها الثانية بشماتة واضحة في تعابير وجهها:

- أيوة.. وقد عيخطبوا له بنت ثانية عشان يلحق يتزوج مع أخوه وعيال عمه في نفس الموعد!!

تفاجأ إحداهن:

- يو يو للمة؟؟

فترد الأولى:

- شافوا غزال خرجت من عند الدكتورة حليمة وهي بتبكي؟؟ يعلم الله أيش قد فعلت من فعلة[19] ؟

***

الخالة شفيقة تحتضن غزال في غرفة المعيشة، وصوت بكاء غزال وأمها يتقطع، فيما تحاول لطيفة والخالة شفيقة تهدئة الموقف.

تخاطب الخالة وهبية أختها شفيقة:

- الله يسامحش لو زوجناها نسترها من كلام الناس وكما قدي عند زوجها يعالجها أو كيفما اشتى.

- وأيش ضمنش إنه ما يطلعش حمار وما يفهم شيء ويطلقها ليلة عرسها ويفعل لها فضيحة سوا ويكسر قلبها؟؟

- يسعر ما ذلحين إن قلبها مجبور!

- أحسن مما يكتسر بعدين كسر أكبر!! عاد هي بنتنا وسط بيتنا في حضننا، بكرة سيد سيده يجي لها.

ترد الخالة وهبية باستغراب:

- كيف يجي لها والدكتورة قالت إنهي عتتحول ولد؟!

- يا أختي هاذي الدكتورة شكلها بغلة وأنا مش مصدقة كلامها، أيش من ولد بسم الله علينا، هي الولد هي، أمانة إن شنبها أكبر من شنب زوجي!

تمسك خالة شفيقة بيد غزال وترفع الكم عن ساعدها وتقول:

- بتشوفيها على صفاء في جسمها ولا فيه شعرة، بتشوفي شعر راسها كيف طويل وناعم؟ بتسمعي صوتها ما أحلاه وما أرقه؟! ولد أيييش؟! الذي بيتحولين أولاد يكون جسمهن ملان شعر ومعاهن شنبات وجسمهن عريض وجلف مثل العيال؛ ما غزالي شوفي كيف هي.. احنا كلنا شكلنا رجال أكثر منها، أكيد هاذك الدكتورة والله ما شافت سواء؛ هو عمل النظارة المذحلة[20] حقها.

ترد غزال:

- يمكن من كبر كرشها ماعد شافت محبلتي هي متعودة على حوامل وبس، شكلها أول مرة تشوف محبلة[21] بنت عزبة!

تتدخل لطيفة لتروق الجو:

- بس الصدق إنهي فكرة ضخمة.. ليت والله وهو ينفع أتحول ولد واتخلص من المطبخ والوحام والولاد والبزا.

تقوم لطيفة وتتناول دلة القهوة لتصب في الفناجين قهوة القشر والزنجبيل وتقول لهن:

- أمانة قومين نصلي على النبي من هاذي المجابرة لا أول ولا آخر واحدة تفتسخ خطوبتها، وبعدين حتى لو تحولتي ولد ما فيها؟! هاذي القصص الواحد كم بيسمع منها هاذي الأيام ويتعجب، ومن عارف يمكن الذي كان خطيبش يرجع يتحول بنت، وانتي روحي اتزوجيه وشبعيه حياة!!

يضحكن من غرابة الفكرة. تبدأ لطيفة بتوزيع فناجين القهوة عليهن فترد غزال بتهكم:

- ما ناقص إلا اتحول رجال عشان أجلس أشقى وأهم الصرفة وأطير زلطي[22] كل عيد وأنا بينعسب المكالف!

تخاطبها خالتها شفيقة بدعابة:

- هو صدق، ما عتشتغلي لو تحولتي لرجال؟ أيش تعرفي تسوي مثلاً عشان تشتغلي فيه؟

ترد غزال:

- أطبخ، ما رأيكن افتح لكن مطعم! أو مخبز حطب!

تتدخل لطيفة:

- لو تواصلي الخياطة؟

- أيوة أخيط لكن قوارات!

تتحمس الخالة شفيقة:

- لا لا كوني مصممة أزياء مثل إيلي صعب.

تتهكم غزال:

- ما هو يا صعبة! قد عداوقع رجال وازيد أوقع مخيطة حتى وأنا رجال!!

تغير لطيفة الموضوع:

- أيش رأيش أفسخ خطوبتي وتتزوجيني؟!

تواصل غزال أجوبتها الفكاهية:

- لا انتي قد نفقتي، أنا عداخلي نفسي وقف ذرية! أي بنت تبور سواء عنست أو تطلقت أو ترملت أتزوجها!

تشارك أمها في الحديث:

- مش انتي حلم حياتش تسوقي متر؟؟ خلاص فرصة اشتري متر واشتغلي به، وعتخليني أطلع قفاش؟!

- لا، إذا تحولت رجال عداشتري لي شيول![23]

- وليش شيول بكله ما تفعلي به؟!

- أجرفكن كلكن مرة واحدة وارجمكن من راس الحيد!![24]

تتسرب الضحكات إليهن ويبدأن بشرب القهوة.

***

يمتد الليل بسكونه ويتسرب إلى أعماق غزال، فتهرب منه إلى غرفتها، تنظر لدولابها، تتأمل ملابسها الجميلة، عطورها النسائية، وتمر بخيالها جلسات العصرية مع صديقاتها، رقصهن كالفراشات، تندرهن ومزاحهن وضحكهن، التباهي بأطباقهن.. أين ستذهب من كل هذا العالم؟!

وحين تخنقها غصة عظيمة، تنسل من خيالاتها فتقوم بجمع ملابس أسرتها إلى غرفتها وتبدأ بكيها، وأثناء كيها لثوب أبيها تقرر فجأة أن تأخذ جنبيته[25]، تتأكد من إحكام غلق باب غرفتها وتلبس ثوب أبيها وجنبيته! تقف أمام المرآة وتأخذ "الشال" وتحاول ربطه على رأسها كما يفعل أبوها، بعد أن لمت شعرها الطويل إلى الخلف على شكل كعكة! تلبس الكوت لكي يخفي تفاصيل صدرها الناهد ويصير مظهرها أكثر ذكورة! لكنه لا يروقها أبداً.

تتأكد مجدداً من قفل باب غرفتها جيداً بالمفتاح، وتقوم بخلع الملابس حامدة ربها أنها أنثى جميلة! يحاصرها القلق أثناء تأملها لجسمها الممشوق أمام المرآة وتفحصها لتفاصيله الصغيرة!

يحوم السؤال في داخلها:

ما الفرق بين جسدي وأجساد باقي الفتيات؟؟

يرن كلام خالتها في رأسها "بتشوفيها على صفاء في جسمها ولا فيه شعرة "، وتحتضن جسدها بامتنان، تتخيل لو أنه امتلأ بالشعر وتشعر بالاشمئزاز!

ترى وجهها القَمَريَّ في المرآة، تتخيل لو زحف إليه شارب ولحية؟ سيخنق الشارب حتماً شامتها المحببة إلى قلبها.

تتذكر مخططاتها لحفل زفافها فيقشعر بدنها، تموج بها مشاعر الحب التي ينبض بها قلبها، تضع كفها على فمها، وتغشى القشعريرة جسدها فتخجل حتى من نفسها بمجرد تخيلها لمواقف حميمية مع عريسها الذي لم تستوعب حتى اللحظة أنه تخلى عنها! تفكر ما الذي يعنيه أن تتحول إلى رجل؟ وما الذي يشعر به الرجال حينما يرون النساء وحينما يخطرن على بالهم؟؟ إنه سلخ من تكوينها، تحول من كائن إلى كائن آخر! إنها تحتاج إلى عملية تحويل مماثلة لعقلها ومشاعرها وذاكرتها!

مجرد تفكيرها بأن تخرج للشارع كاشفة عن وجهها وشعرها يشعرها بالسوء والخجل.

لا تروقها أبداً حياة الرجال ولا جلساتهم ولا مناسباتهم.. يا لها من حياة تفتقر للأنس الذي يعم جلسات النساء.. حياتهم جافة، لا نقش بالحناء ولا الخضاب، ولا مناكير! حتى ملابسهم محدودة الألوان!

تعود للبس بجامتها، تحتضن غطاء شعرها وتشمه بحميمية، تقول في نفسها "وع لست أتخيل أبداً أن يصير شم ملابسي كريهاً كالرجال"!

لا لا لا إنها ترفض بتاتاً الخضوع لهذه العملية. كيف سيتقبلها المجتمع الذكوري؟؟ ماذا سيكون اسمها؟؟ بالتأكيد ستكون محل سخرية من كل الأولاد!!

تتخيل نفسها تخرج في الشارع بلبس رجل والأولاد يدعونها يا بنت يا غزال.. ثم يجري وراءها الغلمان ويصرخون: "خرنثى خرنثى"!!

تصاب بالفزع حد الصداع، ترتجف من أعماقها وتبكي:

"لا يا رب لاااااا مشتيش أتحول ولد يا رب يطلع كلام الدكتورة غلط يا رب تطلع غلطانة يااارب أنا مشتيييش".

وتستمر في دعائها وابتهالاتها حتى تستلم لنعاس مضطرب.

وفي الصباح تأتي إليها صديقتها لطيفة، تقول:

- كيف حالش اليوم؟ قلبي بيقل لي إنش ما رقدتيش سوا.

- أعوذ بالله كلما أتخيل إني ممكن أتحول ولد أرتعب!

ترد لطيفة ببراءة:

- طيب أيش فيها لو وقعتي ولد؟ بالعكس والله إن الرجال مرتاحين، في أيش تفرق بنت أو ولد؟؟

ترد غزال باستياء:[٢٦]

- أنا أعرف نفسي غزال البنت لو أتحول ولد من عداكون؟ مخلوق جديد معرفش نفسي، أقل لش تخيلي لو شخص غريب فجأة دخل بيتكم وسكن معش في نفس غرفتش؟ كيف عتقدري تتقبليه فجأة؟ كيف أنا أتحول لمخلوق جديد داخل جسمي وعقلي؟! حياة العيال غريبة بالنسبة لي معرفهاش، اتخيلي بس كيف أكون كلما أخرج أتحمل آلي[٢٧] أثقل مني!

تسألها لطيفة:

- أمانة ما خورتيش[٢٨] تهربي من المطبخ والتنور؟

ترد غزال:

- إلا خورت؛ لكن في بلادنا هاذي والله لا يخلوني مسخرة وعار، إذا في ولد رقيق شوية كيف يضحكوا عليه كيف عاد لو كان من البداية بنت؟؟

- ما هذا صدق عيبهذلوا بش بهذلة يااا رب ما توقعي ولد!

بكل حزن ورجاء تردد غزال:

- يااااااارب.

***

تلاحظ أم غزال ابنتها ذابلة منذ صباح هذا اليوم، فتحاول بدء حوار قلق مع أبي غزال، فتبادره :

- شفيقة بتقول نأخذ غزال عند الدكتور الذي كانت تتعالج عنده في صنعاء، هو دكتور شاطر، والأجهزة حقه متطورات مش مثل هولا حق البلاد.

- خلي بنتي عندي تعيش وتموت مستورة ولا يتكشفوها الرجال.

- بس الناس كلهم يتكلموا على بنتنا.

- ولو سافرنا بها ذلحين عيتحاكوا أكثر.

- بس أنا قلبي بيقل لي إن بنتي مش ولد ابسر على حلى ورقة فيها.

يراها بتكشيرة صارمة، فتصمت!

***

بعد أن تنتهي غزال من تنظيف المطبخ تنزل إلى غرفتها، وتبدأ كعادتها برمي نافذة لطيفة بالأحجار لتتبادل معها أطراف الحديث، تهتز الستارة لكن النافذة لم تفتح.

تلبس غزال عباءتها وتخرج بسرعة إلى بيت لطيفة وتفتح الباب بالمجر[٢٩] وتدخل مباشرة إلى غرفة لطيفة، تخاطبها غزال:

- حتى انتي صدقتي عليا الكلام الوسخ وقاطعتيني؟؟

لكن لطيفة اللطيفة تنهار:

- أصدق على نفسي ولا أصدق عليش.

- لا تكذبيش ولا تتعذري، انتي بتتهربي مني!

تواصل غزال بغضب:

- اتكلمي بغير كذذذذب.

قولي الصدق وإلا والله لا أحرم صورتش.

- الصدق الصدق، أبي قال لنا نتلثر منش كلنا لأنش عتوقعي ولد!! قد الناس كلهم بيتحاكوا على هذا الخبر وكلهم قالوا عيمنعوا بناتهم يجلسين معش!

تلطم غزال خديها وتغادر بحنق، تمشي بسرعة وتوتر وتقرع الأرض بشدة وتردد:

- استغفر الله العظيم، استغفر الله العظيم، اللهم إني أمتك ابنة عبدك، ناصيتي بيدك.

ترتبك:

- يا الله أنا أمتك أو عبدك؟ ما عاد أنا عارفة!

وفور وصولها لبيتها تراها أمها وهي تدخل بمشيتها الحانقة، تناديها أمها "غزال"، لكن غزال لا ترد!

تخاطبها:

- جي هكذا يا صياد، مالش بتتقارحي؟!

فتنفجر غزال:

- شوفي كيف طول عمرش بتدعيني صياد ليش ما اخترتيش اسم مرة؟ ليش ما تقولي صيادة والا شذابة والا أمر العذران[٣٠]!! شوفي كيف كلكن أساميكن أسامي نسوان وهبية شفيقة لطيفة وأنا كان عينكعين[٣١] أسنانكم لو سميتوني غزالة؟؟ حنبتوا[٣٢] بالهاء يعني؟ خليتوني هكذا ولد !! ماعد تشتوا مني؟!

تدخل غرفتها و تغلق بابها بقوة.

يأتي الأب:

- أيش فيه يا مرة؟!

تشير الأم إلى غرفة غزال، صوت نشيج غزال يعلو، ينظر إليها الأب مستفسراً بنظرة عينيه.

تتحدث الأم بصوت متهدج حزين:

- أكيد عرفت إن أهل البلاد كلهم منعوا بناتهم يصاحبنها، لأن هي مش بنت!

يطلق الأب تنهيدة عميقة، وينكس رأسه إلى الأرض ثم يقول:

- حسبنا الله ونعم الوكيل! والله لو يكلفني الأمر أبيع حقي البيجو[٣٣]، والذي فوقي والذي تحتي وأزيد أشحت في الجوامع وأسافر بها للمريخ بس ما تجلس بنتي محروقة باقي عمرها، اتصلي بشفيقة قلي لها الليلة عنكون عندها في صنعاء عشان نودي البنت للدكتور، رجّال رجّال قد هي ضرورة الله يغفر لنا، حسبنا الله ونعم الوكيل، إنا لله وإنا إليه راجعون!

****

أثناء انتظار الخالة شفيقة مع غزال دورها للدخول إلى الدكتور في صالة الانتظار المزدحمة، تبعث الخالة شفيقة رسالة اس امر اس من موبايلها لمحل جاتوه لتؤكد عليهم أن التورتة التي طلبتها لا بد أن تكون محشوة بالفراولة، وأن يُكتب عليها "غزال أجمل أنثى"، فيما غزال تتجرع قارورة كبيرة من الماء، ثم التفتت لخالتها وسألتها:

- تظني يا خالة لو الدكتور قال اتحول ولد أبي عيوافق أعمل عملية؟ قد أخي أنور قال والله لا أقبرها وهي حية ولا بعد هاذي السنين تخرج اختي تخزن وسط الرجال!
- لو أنا منش لو اتحول رجال أول شيء عد اصاحب أصحاب أنور كلهم وأقلع النخيط من نخره[٣٤]!!

تمسح خالة شفيقة بيدها على ظهر غزال:

- يا غزالتي الحبيبة كم مرة قلت لش إنش أنثى أكثر مني، لا تخافي ولا تقلقي بإذن الله اليوم عنروح بالبشارة.

فور نطق الممرضة اسم غزال جرت الخالة شفيقة لباب العيادة، ثم انتبهت أن غزال ما تزال متسمرة في مكانها على كرسي الانتظار، خاطبتها:

- ما لش يا بنت بسرعة!

تلحق بها غزال، وتصطحب الممرضة غزال إلى غرفة جهاز السونار، فيما تسرع الخالة شفيقة إلى الدكتور.

- يا دكتور شوف بنتنا، البنات الذي من بعدها كبرين وتكلفين وتزوجين وهي عاد هي لليوم ما تكلفت.

يستمع إليها الدكتور باهتمام، ويتقدم إلى غرفة السونار، تتبعه الخالة شفيقة لكن الممرضة تمنعها:

- يا أستاذة ممنوع، المريضة فقط!

يزداد توتر الخالة شفيقة فتقرع أصابعها، تقضم أظافرها، تختنق بريقها، حاولت التلصص من خلف الستارة لكنها لم تكن تسمع سوى أسئلة بلا إجابات، من نوع:

- المنطقة هاذي فيها شعر؟
- تحسي بألم هنا؟

يخرج الطبيب بوجه ممتقع.

- أيش يا دكتور طمني ما لها؟
- إنا لله وإنا إليه راجعون.
- يا دكتور أيش في لا تفجعني!
- باكلمش كلام بس مش ضروري إن البنت تعرفه الآن.

عجزت الخالة شفيقة عن النطق تماماً ولم تقوَ قدماها على حملها، فسقطت على الكرسي وأحست بدوران الأرض بما فيها حولها.

واصل الدكتور كلامه بصوت خافت فيما غزال لا تزال مع الممرضة في غرفة السونار:

- بنتكم، أوتلدت بلا رحم!
- كيف؟!
- ولا مبايض!

اصطكت أسنان خالة شفيقة وبدأت دموعها بالانهمار وقالت:

- بغير جناااااان.

وبلا وعي قامت وأمسكت بيد الدكتور وسحبته باتجاه غرفة السونار قائلة:

- تعال دوِّر سوى أين عيروحين؟ يمكن رحمها صغير ما قدرت تشوفه؟ أو يمكن يكون ضامر؟

تنزل دمعة من عين الدكتور.

- متأكد.
- للأسف قد هي عارفة! بس ما صدقنا، قالت لنا الدكتورة في القرية إنهي عتتحول لولد وصدرها مجرد ورم يجب استئصاله!

تنفرج عينا الدكتور من الاستغراب، ويقول:

- لا الكلام هذا غلط من فين جبتوه؟! هي أنثى طبيعية.
- كيف أنثى وبدون رحم ولا مبايض؟!
- هو مجرد تشوه خلقي! حالة جينية وراثية نادرة تحصل لامرأة من كل خمسة ألف امرأة تقريباً واسمها العلمي متلازمة روكيتانسي أو متلازمة MRKH، وتكون هرمونات الأنوثة عند البنت طبيعية، ولها كل مشاعر وطبائع الإناث لكن ما عندها رحم أو مبايض، وللأسف في حالات كثيرة يكون عندها عيوب خلقية أخرى في أجهزتهن الداخلية مثل الكلى.

سحابة دموع تفرغ حمولتها من عيني الخالة شفيقة، وتتساءل باستنكار:

- يا الله! أمها وأختها مخلفات توائم! وهي بدون رحم نهائياً؟!
- ضروري تعملوا لها هذا الفحص، هو موجود في مختبر واحد فقط في المدينة كلها، ويأخذ شهر على الأقل لحد ما تطلع نتيجته.

انهارت جبال الصبر وانخرطت شفيقة في بكاء طويل.

خرجت غزال من غرفة السونار، وفور أن رأتها الخالة شفيقة أمسكت بورقة الفحص ومشت نحوها لتخرجا من العيادة، ودموع خالة شفيقة تزداد غزارة وصوت نشيجها يعلو تدريجياً، فيما غزال تذرف دموعها بصمت هذه المرة! لم يعلق أبو غزال – الذي كان يقلهما في سيارته البيجو- على بكائهما حتى وصلتا إلى المنزل، وحين استقبلتهما الخالة وهبية ورأت أختها شفيقة تبكي بحرقة احتضنتها، وظلت تمسح على ظهرها وهي تردد صلواتها وتقول:

- بسم الله عليش من قهرش؟ بسم الله على أختي وشقيقة ظهري، قل أعوذ برب الفلق، قل أعوذ برب الفلق، قل أعوذ برب الفلق.

بينما غزال كانت في صمت مطبق، تمسك بيد أختها ويذهبن نحو الغرفة وغزال خلفهما تلملم دموعها. تنظر الخالة وهبية إلى غزال وشفيقة الباكيتان، تهز رأسها متسائلة:

- أيش الخبر؟؟

ترد شفيقة:

- غزال بنت مش ولد لكن بالفعل ما معاها محبلة!
- كيف يعني ؟
- يعني تشوه خلقي، أوتلدت بدون محبلة مثلما بعضهم يولدوا بدون يد أو رجل أو بست أصابع أو بكلية واحدة أو أو.
- كيف هذا الخبر؟! أول مرة أسمع هكذا.
- حتى أنا أول مرة أسمع، الدكتور قال إنهي حالة نادرة جداً.
- طيب أيش الحل ينفع يركبوا لها محبلة؟
- كيف يركبوا ؟!
- كم ناس يحصل لهم فشل كلوي ويركبوا لهم كلية وأنا عددي لها حقي المحبلة أنا خلاص قد شبعت جهال!!
- يا أختي زراعة الكلى غير!

***

بقلب منكسر وأمل مخذول عادت غزال إلى قريتها بعد أن ذهبت لإجراء الفحص، وظلت تتواصل مع خالتها حتى مر الشهر ولم تظهر النتيجة، مر أسبوع إضافي يحكم القلق سطوته على غزال، فتلح في سؤال خالتها:

- أمانتش يا خالة هاتي لي الحقيقة أيش طلع في الفحص وانتي مخبية عليا؟ أنا طلعت ولد؟ أو فيني ورم؟
- لا يا بنتي!
- طيب أيش فايدة هذا الفحص خلاص أنا مرة ناقصة قد عرفنا، ليش عاد التعب والفحص؟ أمانة قلي لي انتي أيش مخبية عليا؟!
- ولا شيء بس نتطمن من قصة الورم الذي قالت عليه الدكتورة.

تدخل الخالة شفيقة في حالة شرود وتتذكر أنها بعد أن خرجت مع غزال من عند الدكتور طلبت من غزال أن تنتظر لحظة وعادت إلى الدكتور لتسأله: "يا دكتور يعني الآن إحنا نتعامل معاها على إنها امرأة عقيم؟ أو إنها امرأة غير صالحة للزواج أصلاً؟".

لكن الطبيب لم يطمئنها أبداً بقوله "كل أسئلتك ما أقدر أجاوب عليها قبلما تعملوا الفحص وأشوف نتيجته".

تستوي الخالة شفيقة على الكنبة، وتتصفح من موبايلها مواقع عدة لتبحث باهتمام وقلق بادٍ على ملامح وجهها.

فتاة بدون رحم

عمليات زراعة الرحم

عملية تجميلية تساعد على الزواج

هل بإمكان فتاة بدون رحم أن تتزوج؟

متلازمة روكيتانسي

متلازمة MRKH

***

حينما ظهرت – أخيراً – نتيجة الفحص، ذهبت الخالة شفيقة بنفسها إلى القرية، لتجتمع بغزال وأمها وأبيها:

- البنت هرموناتها الأنثوية طبيعية.

يرد الأب:

- كيف هرمونات الأنوثة مرتفعة وما فيش معاها رحم ومبايض؟!

- مجرد تشوه خلقي!

بشيء من الخجل يواصل الأب استفساره:

- طيب أيش قال لش الدكتور ما يحتاج تتحول ولد أو في داخلها أي أعضاء ذكورية ؟

- إطلاقا، قلت لكم أنثى طبيعية تماماً وتعيش حياتها كأنثى زي كل الإناث، فقط ما عندهاش رحم ومبايض، وبالنسبة لوضعها هي معرضة لهشاشة العظام مثل النساء في مرحلة سن اليأس، وهي تحتاج فحص للكلى وفحوصات طبية ثانية عشان صحتها فقط.

- الحمد لله، أمانة كنت أتمنى تموت وأقبرها بيدي ولا تتحول ولد وتفضحنا وتخرج وسط الرجال وهي كانت طول عمرها بنت! مادام هي بنت خلاص ما فيش داعي للقلق إرادة الله إنهي ما تقدرش تخلف.

- أيوه، بس الموضوع مش بهاذي البساطة، تخيل لو أي ولد مراهق يكتشف فجأة إنه مولود بدون بروستات!!

***

في ذات المطبخ القديم تغسل الخالة وهبية الطماطم ثم تقوم بسحقه بالمسحقة[٣٥]، وفي الجانب الآخر من المطبخ يوجد تنور الحطب الذي تخبز فيه غزال وهي عائمة في حالة شرود كبير، تدمع بصمت، تمسح عينها وأنفها بطرف كمها، تواصل الخبز، تنظر إلى السقف، تتنهد بصمت، تواصل الخبز، تصاب يدها بحرق في التنور تصرخ:

- يووووووف.

- سهل يا بنتي سهل، ما تحرق إلا الكاملة.

ترمي المخبزة بعصبية إلى وسط التنور، وتلتفت إلى أمها بعينين متورمتين من البكاء، وشفتين ترتعشان.

تصدم الأم وتقول:

- بسم الله عليش يا بنتي مالش؟؟

تنفجر غزال بعصبية وصوت عالٍ للغاية:

- أنا ناقصة نااااااقصة أنا مرة نااااااقصة يكفي تضحكوا عليا، التنور والمطبخ ماعيخليونيش أكون مرة كاملة، خلوا لي حالي[٣٦] ..

يهتز صدرها من شدة البكاء الذي يزداد، تنزل مسرعة في السلالم وتهرب إلى غرفتها وتغلق الباب بعنف، وأمها تلحقها باكية صامتة تعجز عن خلق أي حوار لمواساتها.

تدخل إليهن الخالة شفيقة وتسأل:

- ما لكن أيش فيه؟

- غزال جننتنا جالسة تقول انهي ناقصة.

- كلامها صح، هي بالفعل ناقصة.

ينظرن إليها بأفواه مفتوحة، تواصل الخالة شفيقة:

- ناقصة عقل.

تعقب وهبية:

- صح ناقصة عقل ودين!

ترد شفيقة:

- لا لا مش هذا القصد، أقصد ناقصة تفكير، ناقصة ثقافة، ناقصة طموح، ناقصة صبر، ناقصة حلم.

تلتفت إلى غزال:

- قلي لي بأيش بتحلمي؟ أيش تشتي تسوي في الحياة؟ اتخيلي حياتش بعد سنة بعد عشر سنين بعد عشرين سنة.. أيش عتكوني بتسوي؟؟ كيف عتكملي حياتش؟ عتجلسي هكذا تبكي وتصيحي وترزوعي الأبواب؟ وبعدين.. أمش عتجلس تراشيش لوما يقرح قلبها وتموت؟ وأبوش يلحقها؟ طيب وبعدين من عيجلس يراضيش ويداريش؟؟

يتبادل الكل النظرات بصمت.

تواصل شفيقة:

- يا إما تقرري إنش تفعلي حاجة تستفيدي منها وتملأ عليش حياتش، أو تخلي حياتش ناقصة وفاضية لحد ما تقبرينا كلنا أو نقبرش!

تنسحب غزال إلى غرفة مجاورة، تغلق الباب، لكنها هذه المرة تغلقه بتمهل، ثم تتكور على نفسها كجنين في رحم أمه وتبكي بهدوء متخلية عن النشيج. تقف أمها للحاق بها لكن الخالة شفيقة تمنعها:

- خليها تجلس مع نفسها تراجع نفسها شوية.

- أكيد إنهي جالسة تبكي.

- سهل خليها تبكي! هاذي المرة أكيد عتراجع نفسها.

***

في الصباح الباكر تطرق الخالة شفيقة الباب على غزال، وبيدها صحن عليه كوبي قهوة فارغين، و"جزوة" مليئة بن يمني طازج تفوح رائحته الزكية إلى مسافة بعيدة.

- اتفضلي يا خالة.

- سمعتي عن الحرب العالمية؟

تفتح غزال عينيها للآخر:

- درستها في المدرسة، بس ماعد اذكر منها شيء إلا الاسم.

- في الحرب العالمية يا غزالتي الحلوة "تتنهد الخالة شفيقة ثم تواصل" في مدن في اليابان قذفوهن بالقنبلة النووية، طبعا المدن هاذي إلى اليوم ما يقدروش يزرعوا فيهن أي شيء، والزراعة هي أساس الحياة، لو جلست اليابان يومها تبكي وتلطم وتقول عنموت جوع واستسلمت انهي اليوم بتشحت مساعدات مننا، بس اليابان ذكية شغلت مخها واهتمت بالعلم والاختراعات والتكنولوجيا والصناعة والتجارة، وأنتجت للعالم حاجات وباعتها بأضعاف قيمة المحاصيل الزراعية، والعالم كله اليوم بيحتاجها ولا أي دولة زراعية في العالم تقدر تستغني عنها ورجعنا احنا المزارعين ولا شيء مقارنة بها، انتي الآن في موقف اليابان، يا إما تشتغلي على نفسش، وتشوفي جانب في الحياة تلقي نفسش فيه وتنتجي وتتميزي وتثبتي ذاتش والكل يحتاجش، أو تعيشي خدامة تحت أرجل النسوان الذي بيحملين ويولدين، تخدمي هاذي وتربي لهاذي عيالها وتعيشي تحت رحمتهن وتنتظري الشفقة منهن.. أبوش وأمش ما بيتخلدوا لش العمر كله، بكرة تلاقي نفسش خدامة لأخوتش وزوجاتهم وتطلبي الرضا من كل واحد فيهم، وتجلسي حاسة بالنقص والفراغ طول عمرش، وتعيشي محتاجة لهم وعالة عليهم!

ترد غزال:

- يا خالة أنا خايفة قوي قوي، جالسة أفكر كيف عتكون آخرتي؟ أمي تقل دايماً الإنسان يدي له جاهل من قوته لضعفه، أنا من عيسندني في ضعفي لو عجَّزت ومرضت؟ لو خرَّفت؟ لو وقع فيني جلطة أو شلل؟ احنا ما فيش عندنا حتى دار عجزة؟

وتترقرق الدموع في عينيها.

- فلوسش؟

- ليش من أين لي فلوس؟ أنا باورث من ملك قارون؟

- وأنا أيش بيناقل لش من الصبح؟؟ ضروري ندور على حاجة تنجحي فيها وتشتغلي بها، ويكون معش فلوس تنفعي نفسش وتعاوني أهلش، ارجعي كملي دراستش وتعالي عندي المدينة وادخلي جامعة.

- بس أبي ما يعجبه الجامعات والدراسة مع الرجال!

- في جامعات خاصة بالبنات.

تخيم سحابة حزن جديدة على غزال:

- بس أنا ما بيننجح في المدرسة؛ لمن أمي قالت لي ابطل الدراسة عشان أعاونها بشغل البيت أنا فرحت، ما حبيت عمل البيت أصلاً إلا عشان

أهرب من المدرسة!! "يزداد بكاؤها" شكلي يا خالة عد اعيش عمري كله عالة على أهلي!
تحتضن شفيقة غزال وتطبطب عليها:
- مش كل شيء في الحياة دراسة، ولا ضروري عشان ننجح يكون معانا شهادات جامعية،كل بني آدم خلق ربي في داخله طاقة وحلم وشغف ضروري يكتشفه ويشتغل عليه ويثبت قيمته في المجتمع.
تواصل الخالة شفيقة اقتراحاتها:
- طيب، مش انتي تحبي المكياج وكنتي منتظرة تتزوجي عشان تكوني تتمكيجي؟ جربي تشتغلي كوافير؟ أكيد عتبدعي.
- أبي ما تعجبه هاذي الشغلة، وأصلاً نسوان البلاد نادر ما يتمكيجن!
- طيب مش انتي تحبي الرسم؟ اشتغلي منقشة.
- نفسها.
- ممرضة؟
- يا لطيف أنا ما أقدرش أتحمل منظر الدم!
تسبح نظرات غزال في اللاشيء، تلخص درس وجودها ببساطة:
- أنا أعرف إن البنت تتعلم عمل البيت عشان تتزوج وتوحم وتولد وبس!
تحتضنها خالتها كاتمة مجرى البكاء في داخلها:
- يووو يا غزال حيرتيني، قفلتي بوجهي كل الأبواب.
- والله يا خالة ما أنا عارفة هل أنا بيناغلقها أو ما بش أبواب من الأصل!
تربت عليها خالتها، ثم تقول:
- أنا عد استأذن من أبوش أشلش معي صنعاء تجلسي فترة، تغيري جو، ونفكر برواق.

***

مرت أيام على وصول غزال إلى صنعاء مع خالتها، لكن نفسيتها ما تزال متعبة.
تذهب الخالة شفيقة إلى المطبخ، وما أن تدخل حتى تراها غزال وتسقط السكين من يدها، والخوف والارتباك مرسوم في كل تعابيرها ولغة جسدها!
تفهم خالتها أنها كانت تحاول أذية نفسها فتنفعل:
- يا مجنونة، أيش بتسوي؟!
تتأثئ غزال وتحاول الهرب.
تسحبها خالتها من يدها إلى الغرفة، تجلسها وتجلس أمامها مباشرة، تنكس غزال رأسها، تمسك خالتها بذقنها وترفع وجهها مخاطبة لها:
- ارفعي وجهش وحطي عينش بعيني وكلميني، ضروري أسمع منش.
ترد غزال بخجل وصوت مضطرب:
- كيف أشرح لش؟ لا قادرة أفهم ولا قادرة أشرح.
- قولي أي شيء جربي.
- مستحيل أحد في الدنيا يحس بي أو يفهمني.
ترد خالتها بحزم:
- جربي.
تطلق غزال تنهيدة تكابد بها دموعها:
- أنا معلقة في الحياة لا أنا مرة ولا أنا رجال! أشوف البنات كل شهر يشترين لهن حاجات خاصة ويستخدمنها، وأتشوق متى أكون زيهن؟ كنت دايماً أتخيل نفسي متزوجة عشان أوحم وأولد ويكون معي أطفال كثير يوانسوني، فجأة اكتشفت إني مش بنت مثلهن ولا ينفع أتحول رجال، لا بنت ولا ولد، أنا ماعد دريت أيش أنا بالضبط؟ أيش أصلي؟ أحس إني مخلوق ماله لزمة في الحياة ما فيش مني أي فايدة تعرفي يا خالة يعني أيش تكوني إنسانة ناقصة؟! ليش عاد ربي خلقني مدري؟
تحتضنها الخالة شفيقة وتواسيها:
- هذا قدرش! ما خلقتي هكذا إلا لحكمة يمكن رحمش ربي من خلفة أولاد عاقين؟ يمكن ربي أعفاش من مسؤولية الإنجاب عشان تلتفتي لنفسش وتتفرغي لها.. فكري أيش الحاجة الذي عتقدري تفعليها وتغير حياتش وتحسن حياة الناس من حولش؟

- يا خالة أنا مش قادرة أفكر والله، شكلي عد اعيش طول عمري عالة.
تأخذ الخالة شفيقة نفساً طويلاً وتقول:
- ممكن مثلاً نفتح لش تجارة بسيطة، أكون أشتري بالإنترنت ملابس حلوة ورخيصة من الخارج وأرسل لش تبيعيهن في البلاد ونقتسم الربح؟
لكن غزال لم تتحمس!
تواصل الخالة اقتراحاتها:
- أيش رأيش تتعلمي التصوير ونفتح لش أستوديو خاص بالعوائل في البلاد عتكوني أول بنت تعمل هاذي الفكرة؟؟
تطلق غزال ضحكة ذابلة وترد بدهشة:
- يا فضيحتاه!! والله لا أهل القرية يصلبوني! الرجال عاد نصهم ما بيتصوروا لأنهم بيظنوا إن الصور حرام وأنا أزيد أصور النسوان؟؟ والله لا يخرجوني من ملة الإسلام، خلينا نشوف لنا شغلة ثانية،
ثم تواصل الخالة شفيقة حديثها قائلة:
- ممكن تتعلمي من النت أشغال يدوية، مثلاً كيف تعملي باقات الورد للعرايس وو.
تلمح نظرة حزن طفت على عيني غزال، ثم تواصل:
- خلاص انسي العرايس والأعراس، ممكن اممم أقل لش، صدقيني مالش إلا إيلي صعب يجي يقنعش تتعلمي الخياطة وتصميم الأزياء!
تعجز غزال عن تصنع ابتسامة!
تواصل الخالة حديثها:
- يا بنتي عتقضي حياتش وانتي بتتفرجي الفساتين والخياط من بعيد؟ اتعلمي الخياطة.
ترد غزال بروح ذابلة:
- أحسها صعبة قوي وما عد افلحش فيها.
ترد خالتها بحماس ورجاء:
- والله ما هو أصعب من الخبز في التنور الحطب وطبخ الولايم الذي بتصلحوها! جربي ادرسي دورتين أو ثلاث بعدين قرري تواصلي أو تبطلي وتشوفي حاجة ثانية، ما تجلسي هكذا مشلولة في زاوية لحد ما تذبل نفسش، عتجنني.

***

تعود غزال لقريتها بعد أن ظلت فترة طويلة في المدينة درست فيها الخياطة باجتهاد بالغ، وحصدت شهادة تميز تلو أخرى.
تكبر وتفتح لها مشغلاً خاصاً وتصنع لها اسماً تجارياً، فيما يستمر الناس من حولها في التزاوج والتوالد والحياة المتشابهة.
مرت على مشغلها نساء يتعذبن بكثرة الإنجاب والاهتمام بأطفالهن فقط لإرضاء أزواج أنانيين لا يعبئون لمعاناتهن.
تعاطفت مع نساء اضطررن لعمل عمليات تلو عمليات انتهت باستئصال أرحامهن أو مبايضهن.
رأت نساء عانين في العلاج لأجل الإنجاب، وضاعت فيها سنوات طويلة من أعمارهن انتهت بالفشل وزواج أزواجهن عليهن بأخريات.
كما تعمدت بعض النساء استعراض قصص الزيجات التعيسة أمامها مواساة لها!
أكد لها البعض أنها محظوظة وعليها أن تحمد الله أنه أعفاها من تلك الدوامات والمعاناة والآلام!
لكن غزال بعد أن تنمق أظافرها الجميلة وتصبغها باللون الوردي، تمسك الآن بدفتر مذكراتها ذي الغلاف البنفسجي وتكتب:
لقد اقتنعت أن لكل إنسان جانب ناقص في حياته، ورأيت الكمال في موهبتي ونجاحي وتقدمي المستمر، في استقلالي المادي في عمر مبكر، في قدرتي على إدخال البهجة على كل النساء حولي، في تقديمي لخدمات مجانية للنساء المحتاجات، بعدم استسلامي للإحساس بالنقص البيولوجي فيّ لأنني أنثى في مجتمع ما يزال يرى المرأة مجرد وعاء! فلست أنا من خلق جسمي ولا اختاره! ببحثي عن سلوى في حياتي مع أسرتي، ومشاريعي ونجاحاتي التي أختارها لنفسي.
كل هذا لم يمنعني من الحزن الذي يزورني -كثيراً- ومنبعه الجزء الناقص في جسدي وحياتي، تمنيت لو أني كنت مصابة بأي مرض آخر؛ فمن المؤكد أن من حولي كانوا سيتحمسون لتسفيري وإجراء أي عملية أو علاج من أجلي، فبمجرد تأكدهم من أنني أنثى لم يهتموا حتى بإجراء الفحوصات الطبية التي أوصى الطبيب بها لأجل صحتي، حتى خالتي شفيقة بالرغم من ثقافتها وانفتاحها لم تفكر يوماً بضجيج الأنوثة داخلي، حكت لي أنها قرأت عن وجود حالات حول العالم مثلي قمن بعمليات تساعدهن على الزواج وممارسة حياة زوجية طبيعية، لكنها لم تطرح

البتة فكرة تسفيري لإجراء هذه العملية ربما لأنني أنثى لا ذكر!
فرحت بشدة بهرموناتي الأنثوية العالية وتفاخرت بها، لكنها لم تفكر بالظمأ الذي يغشى هذا الجسد المؤنث!! بل اتجهت بي نحو الطموح والكمال لأن لا أحتاج مادياً لأحد، سمت بي نحو الملائكية.. وكأن الغرض من زواجي عبثي طالما لستُ وعاء قادراً على الإنجاب!
لكن هذا لم يخرس صراخ الفطرة في أعماقي..لم يمحُ إحساسي العميق بالنقص الذي تمنيت لو أنه اقتصر على الحرمان من الإنجاب لا من الحب والسكينة والزواج!
النظرات التي تصطادني ببعض الشفقة وكثير من الاستنقاص! قصص الحب التي تتهامس من حولي، والبريق الذي أراه في عيني كل عروس جديدة، فساتين الزفاف التي أنسج بياضها من الجزء المعتم في قلبي..
كل هذا يستفز إحساسي بالوحدة الموحشة كلما أوصدت الأبواب وأويت إلى غرفتي لوحدي..

ابتسام القاسمي.

[١] أيش: ماذا.
[٢] صياد: اسم عفريتة في التراث الشعبي.
[٣] غطى: صحن كبير مصنوع من عسف النخيل يوضع عليه الخبز.
[٤] قوارة: غطاء قماشي يستخدم لتغطية الخبز عادة، وهو عبارة عن قطع كثيرة مخيطة إلى جانب بعضها من ألوان وأشكال غير متجانسة تماماً.
[٥] سوخار: دخان التنور.
[٦] تجمعي حسش: بمعنى تعقلي!
[٧] المطيط : نوع من الحساء يصنع من الطحين والزبادي وبعض البهارات، وأصل الأغنية (يا بقرة صبي لبن، ومحمد سافر عدن!).
[٨] عصيط : عصيد.
[٩] تحريف لأغنية شعبية اشتهر بها "تمباكي".
[١٠] تلتذعي: تجنني ، تشتي: تريدي.
[١١] كودش: دائما ، بتلفلفي: تجمعي ، القصائقص: قطع القماش الصغيرة
[١٢] شلوش: أخذوك، وتستخدم بمعنى فلتأخذك العفاريت!
[١٣] اتكلفين: أي بلغن وجاءهن الحيض.
[١٤] المحبلة: الرحم.
[١٥] ذلحين: بمعنى الآن
[١٦] عزبة: عذراء
[١٧] عادة عند القليل من الأسر أخذ بناتهم للدكتورة النسائية للاطمئنان على عذريتهن قبل العرس!
[١٨] مقبلات عبارة عن طماطم وثوم وكزبرة وبهارات تعصر بالعصارة وتؤكل مع الخبز.
[١٩] فعلة بمعنى مصيبة.
[٢٠] / المذحلة: الصدئة.
[٢١] محبلة: رحم.
[٢٢] زلطي: فلوسي ، أعسب: أي أقدم العيدية ، المكالف: أي النساء.
[٢٣] شيول: جرافة كبيرة.
[٢٤] الحيد : أعلى الهاوية.
[٢٥] الجنبية: الخنجر اليماني الذي يلبس بكل يومي.
[٢٦]
[٢٧] آلي: بندقية.
[٢٨] خورتي: اشتهيتي.
[٢٩] المجر: حبل يربط بيد المغلقة الخاصة بالباب ويصل إلى خارج الباب من خلال ثقب صغير، ويستخدمه أهل البيت لفتح بابهم دون الحاجة لدق الباب.
[٣٠] كلها أسماء عفريتات في التراث الشعبي.
[٣١] عينكعين: يسقطين.
[٣٢] حنبتوا: عجزتوا.
[٣٣] تطلق على موديل مغين من سيارات البيجوا وتستخدم لنقل الركاب بين المحافظات.
[٣٤] النخيط: الغطرسة، نخره: أنفه.
[٣٥] المسحقة: أداة حجرية تستخدم لسحق الطماطم بدلاً عن العصارة.
[٣٦] خلوا لي حالي: اتركوني وشأني.

نبوءة الفجرية

مساء يوم بارد، شاحب اللون، حزين المعالم، كان العالم مقبلاً على توديع أحدهم، لفظ أنفاسه الأخيرة في مُستشفى بعيد عن المدينة ثم دُفن في مقبرة مجاورة، كأنه لم يكن.

ساد صمت قُبيل غروب الشمس، بدت المدينة مُنهكة، متعجلة على التحاف الظلام، كأنما فقدت جزءً أصيلاً منها، لا يكتمل وجودها إلا به، فهي تُريد أن تختبئ، اختباء الأرملة التي فقدت زوجها في غياهب الليل، لتنوح بصمت.

عدتُ أنا وأبي من جنازة الدفن، لم يحضر الجنازة أناس كُثر، ولم يكن فيها نساء يذرفن الدموع، ينحن ويلطمن حزناً لفراق الميت، ولا أبناء يكتمون الحُزن و يرجئون ذرف الدموع إلى وقت آخر يكونون فيه وحيدين.

تلك المظاهر التي أعتدت رؤيتها في مُعظم الجنازات التي أحضرها، لكني لم أجدها في جنازة العم نعمان، كان هُناك صمت قاسٍ يكتنف المكان، لا تجد فيه تلك المشاعر المُفرطة حيزاً، فقط بضعة أشخاص ممن حداهم الأجر لتلبية واجب دفن جثمان، لم يجد من يشيعه إلى مثواه الأخير.

كان لذلك الرجل قصة مليئة بالشغف، عرف الكثير من الناس.

لكم تمنيت أن أكون هو، لكني لم أكن لأتمنى نهاية كتلك، أن تكتنف جنازتي تلك الرهبة من الصمت و الوحدة، أن تمحو الحياة ذكرى بطولاتي، فأصبح فجأة في حسبان اللاشيء.

هذه المدينة تفعل هذا بقاطنيها، تبتلع موتاها بصمت، لذلك لم ينصب تمثال واحد في شوارعها، فلا يعدوا لوجوده أهمية تُذكر، ولا لأفعاله مهما بلغت عظمتها فضلاً يتذكره الناس بها.

عدتُ أنا وأبي صامتين، لربما لم يكن حزننا سوى انعكاس لشكوك تراودنا حول النهاية التي قد تغدوا بائسة بشكل مبهم.

كانت الشوارع خالية، فالموت قد أناخ في هذه المدينة بعد ترحال طويل، يحسوا من أرواح البشر ما استطاع إلى ذلك سبيلا، لم يكن يوماً يمر إلا ونسمع فيه صدى لأخبار مخيفة لم نكن لنصدق أنها تمت للواقع بصلة.. كان التلفاز سخياً، فأخبارنا باتت تتصدر القنوات الفضائية، وكأننا نعيش الحدث مرتين، أحدهما نعايشه ونعيشه، والآخر نراه في تلك الشاشة الصغيرة كخبر مكتوب يذيل أسفل شاشات التلفاز.

«توفي شخصان إثر اشتباكات حدثت بين مُسلحين في مدينة المنصورة».

- لقد بات الأمر اعتيادياً، بحيث أنه لم يعد بأهمية أن تلقيه إحدى المذيعات الجميلات.

يُعلق العم نُعمان وهو يُحدق من وراء نظارته في شاشة التلفاز ليتبين الخبر المكتوب. ثم يردف بنبرة ساخر لا تخلو من استياء:

- يتعود الناس على كُل شيء، فإذ ألقي الخبر مراراً فقد أهميته، إن أعظم ردة فعل يمكن أن يحدثها مثل ذلك الخبر في العالم الآن بعد مرور ست سنوات من الحرب أن يقول أحدهم إن العالم مكان بائس، ثم ينتقل إلى محطة أخرى، كأن شيئاً لم يكن.

أجيب بالنبرة الساخرة نفسها:

- هكذا تدور رحى العالم، تطحن تسعة أعشار البشرية ليعيش العُشر العاشر.

ترتسم ابتسامة إعجاب على وجه العم نُعمان، بينما هو يطالع أحد الكتب، ثم يقول:

- لم أكن أعلم أن فيلسوفاً يعيش في العمارة المُقابلة لمكتبتي.

أجيب باللكنة الساخرة نفسها وأنا أنظف الغبار من كُتب المكتبة العتيقة:

- في هذا الوطن الفلاسفة في كُل مكان، لكنك ستجد مُعظمهم يعيش على الأرصفة، لذلك امتهان الفلسفة على ذيل قائمة رغباتي المستقبلية.

يضحك العم نُعمان بصوت عالٍ لدعابتي عن الفلاسفة في وطننا، ثم يعود لقراءة الكتاب الذي بين يديه، كان ذلك قبل شهرين من وفاته.

سرد لي العم نعمان عدة مرات حكاية العرافة الغجرية، كان يتلذذ بإعادة سردها كُل مرة، كأنما يخفي بإعادة سردها خوفه من أن تكون حقيقية..

وهي حكاية العرافة الغجرية التي مرت بمكتبة (دار الكتب) قبل أكثر من مائة عام، ربما في عام ١٨٩١ م بُعيد افتتاح الجد الأكبر إسماعيل المكتبة بسبع سنين.

تقول تلك الحكاية إن عرافة غجرية جميلة تقرأ طالع الناس بالودع والحجر، كانت تجلس على ناصية الشارع المُقابل للمكتبة تقرأ للمارين ما يرسمه لهم القدر من خطط مبهمة مُقابل عُملة معدنية واحدة، بلغ صيتها في مدينة كريتر مبلغاً عظيماً لصدق مُعظم تنبؤاتها أو لقدرتها على إيهام الناس بصدق تنبؤاتها، فأصبح يأتيها كثير من علية القوم بالمدينة لتقرأ لهم طالعهم.

أرق موضوع الغجرية الهندية الجميلة الشاب المُثقف إسماعيل، فقد وجد ذلك التناقض الذي يحدثه وجود الغجرية على الناصية المُقابلة لمكتبته مُزعجاً لدرجة لا تُطاق، فكيف يجتمع العلم والأدب والحداثة والتقدم الذي تُقدمه المكتبة التي أنشأها، مع تكهنات العرافين والمُشعوذين الذي تقدمة تلك العرافة الغجرية، بدأ له أن تلك المفارقة تلخص الصراع الأزلي بين المعرفة والجهل في صورة واحدة، رغم أن مُعظم من يرتادون المكتبة كانوا يمرون بالغجرية أولاً.

فقرر أن يذهب إليها ليسألها عن الوقت التي ستغلق فيه المكتبة أبوابها، وجد أن ذلك السؤال سيعجز حسها التنبؤي، إضافة إلى فضول كبير اعتراه لمعرفة إجابة ذلك السؤال، حتى وإن كان على

شكل نبوءة.

حينما ذهب إليها وجدها قاعدة على ناصية الشارع المُقابل للمكتبة، تقرأ الطالع لزوجة كولونيل إنجليزي بعد أن ترمي بالودع الأحجار، ثم قرأت الطالع لتاجر هندي كبير في المدينة كان ينتظر دوره، كان الجميع يُغادر من عندها مبتسماً برضا كأنما نبوءات تلك الأحجار تزيح من على ظهورهم جبالاً من الهموم.

نظرت العرافة الغجرية الجميلة إلى العم إسماعيل باستغراب، لم تكن تتوقع قدوم صاحب المكتبة المُثقف الذي يناصبها العداء لمعرفة تكهناتها الخرافية عن مُستقبله.

باشرته بنبرة ساخرة:

- أهلاً ببائع الأوهام.

- أهلاً ببائعة الحقائق.

أجاب إسماعيل بنبرة ساخرة.

- هل لديك سؤال؟

قالت المرأة بنبرة رسمية، وهي تنظر مباشرة في عيني إسماعيل، دون أن يطرف لها جفن، كأنما تُريد أن تسبر أغوار روحه.

- نعم.

أجاب إسماعيل وقد اعتراه بعض الخوف، من إجابة السؤال الذي سيلقيه.

- ضع قطعة النقود في هذا الوعاء، كي أقرأ طالعك.

قالت العرافة الغجرية مشيرة إلى الوعاء المعدني الذي أمامها، وضع إسماعيل قطعة النقود المعدنية في الوعاء.

- ما الذي تُريد معرفته؟

سألت الغجرية دون أن ترفع بصرها.

- متى سينتهي عمر المكتبة وتغلق أبوابها؟

خرج السؤال من فم إسماعيل بنبرة وجلة، نظرت إليه الغجرية باستغراب ساخر، ثم راحت تهز الأحجار بواسطة الودع.

رمت الأحجار على قطعة القُماش التي أمامها، ظلت تُحدق فيها بإمعان.

- إن طالعك يقول..

حدقت الغجرية في الأحجار المتناثرة، ثم استطردت:

«عندما يتسلل الكره والغل إلى القلوب فتنشب الحروب، وتنهمر من السماء أمطار الدماء والدموع، سيخبو نور الحكمة الذي تؤويه الكتب، وستنبذ القلوب المسودة المعرفة، رغم حاجتها لها، فتهب ألف عاصفة وعاصفة لتوصد أبواب تلك المكتبة، وتطفئ ما تحويه رفوفها من شموع».

أنهت العرافة الغجرية كلامها دون أن تبدي أي تفسير، عاد إسماعيل إلى المكتبة وهو يفكر بمعنى تلك النبوءة، إلا أنه سُرعان ما نسيها مع صباح اليوم التالي، لأنه دوماً ما أعتقد أن ما يقوله العرافين مجرد خزعبلات.

يبقى سؤال مُعلق داخلي حينما يُنهي العم نُعمان سرد القصة في كل مرة.. هل يؤمن العم نُعمان بأن تلك النبوءة ستتحقق؟! أو أنها تتحقق فعلاً في ظل الظروف الراهنة التي نعيشها.

كُنت أتردد دوماً على مكتبة العم نعمان وأنا طفل برفقة أبي، آنذاك كانت المكتبة ما تزال محتفظة بوهجها العريق، ولم تكن تخلو من الزبائن الذين يعرفون العم نُعمان جيداً.

بلغتُ السابعة عشر من عُمري، لم يكن للعم نُعمان أولاد، ولم يعد يستطيع العمل لوحده بعد أن تجاوز الستين من عمره.

آنذاك كانت علاقتي بالعم نُعمان والمكتبة تشبه علاقة طفل ببائع الآيس كريم ودكانه، كُنت أتردد على المكتبة بشكل شبة يومي أساعد العم نُعمان في بيع الكُتب و ترتيبها، أظل إلى أن يحين الغروب فأذهب ممسكاً بيدي إحدى الروايات الأدبية لأظل عاكفاً على قراءتها إلى أن أنهيها في عدة أيام ثم أعود الكرة لأستعير كتاباً آخر.

وكانت مكتبة العم نُعمان تحتوي كُل أصناف الكُتب القديم منها والجديد، أنهيتُ مُعظم الكتب الأدبية المشهورة وأنا في السادسة عشرة من عُمري، بداية بأليس في بلاد العجائب ومغامرات جينفر، ومُعظم الأعمال الأدبية العالمية لكبار الكُتاب العالميين.

لم أكن أتوانى عن قراءة كُل رواية عالمية بنهم مستمتعاً بتقليب صفحاتها، كان ذلك هو التوقيت الذي شعر فيه العم نُعمان أنه بحاجة لمساعد،كما شعر أبي بأني مهووس بالكتب، فوافق مباشرة على طلب العم نُعمان بتوظيفي كمساعد له بعد أن أنهي المدرسة براتب شهري كان مُجزياً بالنسبة لشاب في السابعة عشرة من عُمره بدوام يبدأ في الثانية مساء وينتهي في التاسعة.

كان يزور المكتبة كثير من المُثقفين الذين يهوون الكُتب والكتاب، أناس مُحددين، أولئك الذين بات التردد على مكتبة عُبادي إدماناً لديهم، كانت الصحفية فاطمة أحد هؤلاء الزبائن، سمراء جميلة عيونها الواسعة ذات اللون العسلية التي تُحدق بعمق خطفت قلبي من أول مرة دخلت فيها المكتبة، كانت في الثالثة والعشرين، وتدرس في كلية الإعلام، وتعمل صحفية في إحدى الصحف المشهورة.

أولعت عشقاً بها فكنت أنتظر موعد قدومها بفارغ الصبر، الأربعاء من كُل أسبوع كان ذلك موعد قدومها، و كان العم نُعمان يعرفها جيداً، إذ أن والدها كان ذات يوم كاتباً صحفياً مشهوراً وزعيماً مناضلاً في الحزب الاشتراكي، توفي قبل سنوات طويلة في حادثة اغتيال نفذها مجهولون.

أضفت تلك الحادثة مسحه كئيبة على وجه فاطمة، إلا أنها كانت تواري ذلك الحُزن العميق الذي خلفته تلك الحادثة، بطبيعتها البشوشة وجرأتها الخلابة.

كان العم نُعمان يُلبي طلبها ما أن تدخل المكتبة، إذ كانت تهوى كتابات مشاهير الكُتاب العالميين، خاصة الكُتاب الذين يكتبون بالإسبانية.

كانت تنتظر وصول إحدى الروايات الأدبية بفارغ الصبر، رواية لاتينية كُنت أعشق كاتبها أنا الآخر.

كانت الطبعة المترجمة من الرواية قد صدرت في الخارج. فكانت تأتي يوم الأربعاء من كُل أسبوع، ثم لا تجد الرواية التي لم نستطع جلبها آنذاك لصعوبات جمة اكتنفت استيراد الكُتب في تلك الفترة.. تردي الأوضاع الأمنية والسياسية والقيود التي فُرضت على استيراد الكُتب، فتطلب مني شخصياً، أن أختار لها رواية جيدة لتقرأها، فكنت أحلق نحو رفوف المكتبة بتوتر وخجل فرحاً بذلك الامتياز الذي كلفتني به، اختار رواية قرأتها حديثاً، ثم أسأل بنبرة يكتنفها الخجل:

- أستاذة فاطمة، هل قرأتِ رواية..؟
- لا لم اقرأها يا حسام، هل هي رواية رائعة؟

تسأل مستفسرة بحماس.

- نعم من أفضل الروايات التي قرأتها مؤخراً.

أجيب مُتحمساً أنا الآخر.

- حسام لو كنت في سني لطلبتُ يدك للزواج.

تُعلق ممازحة، أصمت من الخجل، فأتمنى لو ابتلعتني الأرض في تلك اللحظة، إذ لا أجد الرد المناسب.

يتدخل العمر نُعمان لينقذني فيقول:

- وما رأيك بهذا الرجل العجوز؟!
- لست من نوعي المُفضل عمر نُعمان، فأنا أكره كبار السن الذين يتزوجون الصغيرات.

تجيب بنبرة الصحفية المُثقفة.

- لقد كسرتِ قلب هذا العجوز المتيم بك، أيتها العصفورة الجميلة.

يُعلق العمر نعمان ثم يقهقهان ضاحكين.

- لو أردت لخطبتُ لك أمي، إنها امرأة جميلة، وتكن لك كُل المودة والاحترام.

تقول فاطمة مقترحة، إذ أن والدتها تبلغ السبعين من العُمر، ومقعدة بسبب المرض.

- السيدة عائشة.. سأفكر بالأمر.

يجيب العمر نُعمان متوتراً كمن وقع في مصيدة.

تجلجل ضحكتها الجميلة في أرجاء المكتبة فيرفرف قلبي من سحرها، تأخذ فاطمة الكتاب الذي أكون قد أودعته بعناية في كيس، ثم تقول وهي تنظر

لعيني بجرأة كأنها تعرف سحر تأثيرها عليّ:

- إلى اللقاء أيها الصبي الوسيم.

تُردف موجهة الكلام للعمر نُعمان بينما تفتح باب سيارتها الصغيرة:

- لا تنس أن تُحضر الرواية الأسبوع القادم.
- سأفعل متى ما قررت الدولة أن استيراد الكُتب بأهمية استيراد عُلب العصائر الفاخرة.

يجيب العمر نعمان بنبرة ساخرة.

تصعد فاطمة سيارتها، وقد لاحت ابتسامة جميلة على وجهها، من تعليق العمر نُعمان الأخير.

- إنها تطلب منك الزواج أيها المُغفل، لابد أن تعترف لها بغرامك.

يقول العمر نعمان هامساً بينما تدير هي مُحرك السيارة، ثم تنجلي ابتسامة على وجهه ويلوح بيديه لها قبل مُغادرتها.

- أيها العجوز، كم مرة قلتُ لك أنني لستُ مهتماً بالسيدة فاطمة.
- العاشق لا يستطيع أن يكذب على شخص مثلي يا حُسام، أتظنني غبياً.

أتنهد بحسرة، ثم أقول متعذراً بنبرة حزينة:

- إنها تكبرني بخمس سنوات على الأقل.
- إن العمر ليس مُشكلة، الرسول (ص) تزوج بالسيدة خديجة وهي تكبره بخمس عشر سنة.

يجيب العمر نُعمان كفيلسوف.

- ذلك كلام كُتب الجميع يهذر به، لكن لا محل له في أرض الواقع، أظن أن فرصتك بالزواج منها أكبر من فرصتي.

أجيب بنبرة ساخرة:

- لن أمانع لو وافقت.

يقول العمر نُعمان ليغيظني:

- هنيئاً لك، فقد رفضتك عدة مرات من قبل.
- على الأقل لقد حاولت، ذلك أفضل من أن أعيش في ندم لبقية حياتي.

آثرت الصمت حينها وعدم مواصلة الحديث، وقد أثارتني فكرة مُصارحتها بما أكنه لها من مشاعر، وبالخجل الذي قد أشعر به إذا هي سخرت مني..

انقضت الأيام وبدأت أتعرف على مُعظم زبائن العمر نُعمان، منهم الحاج علي باعوم.

كان ذلك الرجل المُهيب يدير سلسلة متاجر لبيع البهارات ورثها عن والده، حيث بدأت تلك الإمبراطورية التجارية في بيع البهارات المستوردة مُنذ مائة وخمسين عاما، كان أول محل أفتتحه جده الفقيه عُمر باعوم عام ١٨٧٢ في ركن شارع الطويلة بمدينة كريتر، ازدهرت تلك التجارة على مدى الأعوام على يد أبنائه لتصبح تلك الإمبراطورية المعروفة من محلات بيع البهارات والمواد الغذائية.

كان الحاج علي باعوم الوريث الأخير لسلسلة المتاجر تلك ثرياً لدرجة كبيرة، كما أخبرني العمر نُعمان، إلا أن مظهره لم يكن يوحي بذلك بأي حال من الأحوال، فقد كان يزورنا بشكل شبة يومي يرتدي بنطلوناً ذا حمالات وقميصاً، يمسك بيده عصاً خشبية، كان مظهره يُذكرني بشكل أو بآخر بشارلي شابلن ممثل الأفلام الصامتة الشهير في بداية القرن العشرين.

يدخل المكتبة يُلقي التحية على العمر نُعمان، يجلس على الكُرسي ويطلب كأس من القهوة، ثم يطلب جميع الصحف اليومية، ويظل يتصفح الأخبار والمقالات فيها بصمت، وقبل أن يذهب كان يتوجه نحوي ليطلب كتاباً بهذا السؤال:

- هل لديك كتاب يتحدث عن الفيزياء؟
- نعم حاج علي.
- جميل، جميل، وكان يُردد تلك الكلمتين في نهاية كُل جملة في حديثه تقريباً.
- أعطيني واحداً من الكتب التي تتحدث عن الفيزياء.

أدخل إلى المكتبة أختار أحد الكُتب التي تتحدث عن الفيزياء، ثم أعطيه له.

- عن ماذا يتحدث هذا الكتاب في الفيزياء بالضبط؟
- النظرية النسبية حاج علي.
- جميل جميل.

يقول وهو يقلب صفحات الكتاب، ثم يسأل:

- وما هي النظرية النسبية أو عن ماذا تتحدث هذه النظرية؟
- إنها نظرية فيزيائية للعالم آينشتاين تتحدث عن نسبية الزمان والمكان.

أجيب مبتسما.

- جميل، جميل يا ابني، سآخذ هذا الكتاب.

ثم يتوجه إلى العمر نُعمان ليسأله عن ثمن الكتاب، فيدفع ثمن الكتاب والصحف ثم يمضي في حال سبيله.

و هكذا كان الأمر يومياً، يدخل الحاج علي يُقلب الصحف اليومية وهو يشرب قهوته، ثم يطلب مني أحد الكتب ويدفع ثمنه.

باتت تربطني علاقة وثيقة به لكني لم أجرؤ يوماً على سؤاله أين يذهب بتلك الكتب.. رغم تحرقي الكبير لمعرفة ما إذا كان يقرأها أم لا، فقراءة كتاب من تلك الكتب التخصصية الثقيلة في يوم واحد كان مُستحيلاً بأي حال من الأحول.

عرفتُ من العمر نُعمان أنه رغم ثرائه شديد الحرص، بل إنه يكاد يكون من أبخل الناس الذي عرفهم قط، وكان صديقاً مُقرباً لوالده إبراهيم مُنذ زمن بعيد، فتلك الملابس التي يرتديها ربما ظلت معه دهراً من الزمان، فهو لم يره يرتدي غيرها منذ رآه في المرة الأولى، إلا أن عادة شراء الكتاب والصحف اليومية ظلت تُراوده مُنذ أن توفيت زوجته قبل عشر سنين، في كل يوم كان يزور المكتبة ويتصفح الجرائد ثم يأخذ معه أحد الكتب، ولم يكن يتردد في دفع المبلغ الذي يتطلبه شراء الكتاب مهما كان مرتفعاً.

كان الشوق لمعرفة مصير تلك الكُتب يقض مضجعي، فما عساه أن يفعل بكتاب يتحدث عن النسبية، أو بكتاب يتحدث عن وظائف الأعضاء، أو كتاب يتحدث عن الهندسة الإسلامية في عصر الدولة العباسية، أو كتاب يتحدث عن استراتيجيات المعارك في الحرب الأهلية الأميركية..

كانت فكرة أنه يقوم بقراءة كُل تلك الكتب تُرعبني بالقدر نفسه الذي تبعث في داخلي هالة من الاحترام حول شخصية الحاج المعقدة، لكن متى كان يجد الوقت للقراءة، إذ هو يظل في المحل التجاري الرئيسي القريب من المكتبة طيلة اليوم، يُراجع حسابات إمبراطوريته التجارية كما أخبرني أحد العاملين عنده «إنه لا يترك صغيرة أو كبيرة إلا وأطلع عليها في دفاتر السجلات».

ظل ذلك السؤال معلقاً لأجل غير مسمى؟!

بات أمر المكتبة مُعقداً في الأيام الأخيرة، كان ذلك يظهر جلياً على ملامح العمر نُعمان، لم يكن جرس الباب الذي كان يرن مراراً وتكراراً ينبه بقدوم الزبائن في الأيام الخوالي يرن إلا نادراً، فيلقي الصمت بشباكه على الجو، ويظهر الحُزن على وجه العمر نعمان بارزاً، إلا أنه كان يجد في ذلك الوقت متسعاً لسرد حكايات الماضي، عن عدن الأمس، تلك المدينة التي تعبق بروائح البحر وبعبق التاريخ إذ كانت يوماً من الأيام حضناً حانياً لجميع البشر أياً كانت لغتهم أو لونهم أو ديانتهم، احتوت الجميع بحب وتركت أثرها في قلوب جميع من زاروها، لا يسعك إن كُنت من سُكان تلك المدينة ألا أن تلمح ذلك جلياً في معالمها كريتر القديمة تصطف على شوارعها بنايات قديمة تعكس وهج التاريخ الأثير للمدينة، إذ يمتزج فيها الحديث مع القديم، الحضارة الآسيوية الشرقية مع الإسلامية العربية والأوروبية الحديثة، لن ترى ذلك التمازج في أي مدينة أخرى، لطالما أبهرتني رقصات أمواج شواطئها مع أثير أشعة شمس الغروب التي تتوارى بجمال خلف قمة جبل شمسان، إن الغواية بالجمال فن تُجيد المدينة ممارسته على قاطنيها وزائريها على حد سواء، إلا أني مُنذ اندلعت الحرب كُنت أرى انعكاسا باهتاً لمدينة تذوي حزناً وقد غمرها شعور جارف بالحنين إلى الماضي، ينبثق ذلك الحنين الحزين من كُل شيء فيها: بناياتها، عيون قاطنيها الذين أرهقتهم الحرب.

شواطئها الذي باتت مُقفرة، شوارع أسواقها القديمة التي لم تعد مكتظة بالناس كُل ليلة يلقون التحية حتى على الغُرباء بابتسامة تنبع من قلوب أهلها الطيبين الذي اعتادوا الترحاب بزوارها، لم تعد المدينة كما كانت، ولم نعد نحن كما كنا، أكثر ما كُنت أرى ذلك الانعكاس جلياً كُنت أراه في عيون واحدة، شفافة زجاجية مُتعبة تشربت جمال هذه المدينة وها هي تراها تغدو شبحاً مُنكسراً دون أن يستطيع إنقاذها، كُل الذي بات بيده هو حفظ ذكرياتها الجميلة بحفظ هذه المكتبة، ألقى العمر نُعمان على كاهله جعل أبواب المكتبة مفتوحة حتى في أصعب الأوقات، لكأنها تذكار حي للمدينة الذي يعرفها والذي يُدرك أنها ستعود كما كانت، وسيعود إليها رونقها بعد أزمة مرضية لابد أنها طارئة، وأن المدينة ستبرأ منها غداً أو بعد غد، إلا أنها لن تموت، كان عصياً على فهم ذلك الإيمان الذي يساور العمر نُعمان في أصعب الأوقات الذي تتكبد فيه المكتبة خسائر فادحة، و لا يكون استمرارها إلا عبئاً يزيد من الخسائر، ولكم تمنيت أن أملك ذلك الإيمان الذي يملكه لأظل واقفاً.

في إحدى زيارات فاطمة للمكتبة، طلبت من العمر نعمان أن أصحبها لأسواق المدينة، فرحتُ لطلبها ذاك أشد الفرح، غمز لي العمر نُعمان بإشارة مفهومة وأنا أتبعها خارجاً من المكتبة لنبدأ جولتنا في شوارع المدينة.

رحتُ أعرفها بأسواق مدينة عدن القديمة وكأنها لا تعرفها، طفنا بشوارع المدينة ورحنا نتحدث عن الأدب والكتب، فبرزت في هذا المضمار وأسهبت بالشرح عن الروايات والكتب التي أحبها، كما أسهبت هي بالحديث مطولاً عن أشياء كثيرة، شعرتُ أنني أسرق من الحياة دقائق تمنيتُ لو تمضي طيلة الدهر. تضحك فاطمة كُلما أطلقت العنان لنفسي بإبداء شخصيتي الساخرة من الحياة وأطلقتُ دعابة بعد أخرى.

تُثملني ضحكتها الجميلة، لقد خُلقت لإسعاد تلك الفتاة، لربما كانت المقولة التي تتحدث عن أن مفتاح امتلاك قلب المرأة في جعلها تضحك صحيحة، منيت نفسي بتلك المقولة طيلة الطريق، انتهى بنا المطاف للجلوس في أحد مقاهي الشاي العدنية المشهورة، جلستُ هناك أتأمل عينيها بصمت، إلى أن باغتتني بسؤال لم أطرحه على نفسي من قبل:

- ماذا تُريد أن تصبح في المستقبل يا حسام؟

نظرتُ في فنجان الشاي، أخذت رشفة منه، ثم لأول مره جعلتُ مشاعري العميقة تتحدث بدلاً عني:

- كاتب.

ضحكت فاطمة كأنما ألقيت دعابة:

- كاتباً روائياً مشهوراً؟

أكدت بنبرة حازمة.

توقفت فاطمة عن الضحك حينما رأت مدى جديتي:

- هل ترغب في أن تصبح كاتباً روائياً؟؟

سألت بعد برهة من الصمت.

- نعم، وما المشكلة في ذلك؟

أجبتُ بنبرة جدية.

- لا لا مشكلة في ذلك، لكن من يعرفك يعتقد أن الكتابة لا تناسبك.

أجابت وهي تأخذ رشفة من فنجانها.

«وهل تعتقدين أنك تعرفينني؟»، أردت أن أقول ذلك لكني آثرت أن أقفل مجرى الحديث عن مستقبلي لأن الأمر بات يزعجني، فقلتُ مبتسماً:

- كلٌ منا له أحلامه.

طفقنا عائدين إلى المكتبة، دخلتُ المكتبة فأشار العم نُعمان بعينيه خفية، كأنما أراد أن يقول:

- هل سار كُل شيء على ما يرام؟

أدرك الإجابة من نظرتي المُنكسرة، شعرتُ حينها أنني تافه حينما حسبت أن فاطمة يُمكن أن تبادلني مشاعر الحب التي أكنها لها يوماً، وكم آلمني ذلك الشعور، فدلفت إلى مخزن الكتب بعد أن اعتذرت بتكلف متعذراً بأعمال تنظرني في المخزن يجب علي إنهاؤها.

لم تظل فاطمة كثيراً، تبادلت حديثاً عابراً مع العم نُعمان ثم مضت في حال سبيلها.

لم يسألني العم نُعمان عما حدث ذلك اليوم حين رأى الغم الذي اعتراني، وألمح بإشارات عابرة أن الحياة ليست رواية، وأن الحُب دائماً ما يُخلف قلباً مكسوراً وموجوعاً.

مضت الأيام، أثناء ذلك وصل إلينا خبر وفاة الحاج علي باعوم صاحب إمبراطورية تجارة البهارات والمواد الغذائية، إذ انتشر خبر وفاته سريعاً، فعلمنا في اليوم نفسه الذي لم يمر فيه لزيارة المكتبة. أقفل العم نُعمان المكتبة وذهب للصلاة على جنازة الميت، و تشييع جثمان الحاج علي باعوم، كما فعل أصحاب مُعظم المحلات في شارع الطويلة وفي كريتر القديمة.

فرغم طبيعته التي كانت توصف بالبخل إلا أن الجميع كانوا يكنون له المودة والاحترام، بعد عودتنا من الجنازة بأيام وصلنا خبر من عائلة المُتوفى، إذ طلبت العائلة من العم نعمان الحضور لأخذ الكتب التي أوصى بها الحاج علي لمكتبة (دار الكتاب) في وصيته.

ذهبنا لشقة الحاج الفقيه علي باعوم، كان يسكن شقة متواضعة في بناية يمتلكها في كريتر، مكونة من أربع غُرف، أثاثها بسيط وعتيق ، إلا أنها مُرتبة على أحسن ما يكون بشكل يوحي لمن يدخلها أنه يعبر الزمن إلى بداية القرن العشرين.

كانت المكتبة في إحدى الغرف، حينما دخلناها شعرنا أننا ندخل مغارة علي بابا للكتب، كُتب مكدسة من كُل نوع ولون جديدة لم يُقرأ أيّ منها، قال لنا الابن الأكبر أن والده كان يهوى جمع الكُتب، رغم أنه لم يكن يعرف القراءة والكتابة لما كان للكتاب من شأن رفيع في قلبه، و كان يحرص على تنظيفها من الغبار كُل ليلة قبل أن ينام كتاباً كتاباً.

كتب في الوصية: «تعود الكتب إلى (دار الكتاب) لصاحبها نعمان إبراهيم عثمان، وتبقى تحت تصرفه».

عدنا بأكثر من ألف كتاب تقريباً، دفع ثمنها مُقدماً، كنت سعيداً كما لم أكن من قبل، كانت تلك ثروة ستدعم بقاء المكتبة مفتوحة لوقت طويل. بينما كُنت أصنف الكتب أنا والعم نُعمان في المخزن، رأيتُ في عينيّ العم نُعمان حزناً لم أستطع تفسيره، كان يبتسم ابتسامة متكلفة كُلما رآني أبتهج لرؤية كتاب جديد.

حاولت أن أكبح جماح فرحتي قليلاً..سألتُ العم نعمان، حينما أرخى الليل بصمت موحش لا يعرفه إلا من مكث في ذلك المخزن الذي يختزل دهراً من الثقافة المنسية لبلاد شهد فيها الكتاب كُل أنواع النبذ:

- لماذا فعلها؟!

سألتُ قاطعاً شباك الصمت الخانقة.

أجاب العم نعمان وهو يحدق بالكتب:

- لا أعرف، لقد كان صديقاً لأبي، أعرفه مُنذ الطفولة، الجميع كان يصفه بالبخيل، لكن والدي كان يعتبره صديقاً مُقرباً، صدقتُ ذلك الادعاء ولم أصدق والدي.

ثم أردف:

- أشعر بالذنب لأني اعتقدت أنه إنسان بخيل، كيف يكون الإنسان بخيلاً وهو يدفع مبالغ طائلة لشراء كُتب لم يكن

يستطيع قراءتها؟! ثم يعتني بها ذلك الاعتناء كُله، الأجدر بي الخزي من نفسي، لم أعتني بكتب المكتبة ولم أقدر كتبها كما فعل الحاج علي.

كانت الكلمات تخرج من جوف العم نعمان بحسرة لم أستطع فهمها آنذاك.

- هون عليك يا عم نُعمان، أراد الرجل أن يفعل شيئاً خيراً يظل بعد موته، وأي خير سيجنيه الإنسان أكثر من ترك هذه الكمية من الكتب لتنقذ أجيالاً من هوة الجهل.

قلتُ بنبرة مواسية.

- ستباع الكُتب بأسعار رمزية، وسنكتب على كُل كتاب اسم الحاج علي بختم سأطلب تجهيزه من الغد.

أجاب العم نُعمان وهو ينهض ليذهب إلى الفراش، مفصحاً عن ذلك القرار بنبرة تدل أنه من القرارات التي لا يمكن أن أناقشه فيها.

أومأتُ برأسي متفهماً.

مرت أسابيع دون أن تأتي فاطمة، كان الحزن يشرئب في المكتبة، العم نُعمان يسعل طيلة الوقت ،كان مريضاً، لابد أن الغبار الذي تراكم فوق كتب المكتبة طيلة السنين الأربعين التي قضاها بين جدران هذه المحل تحوطه الكتب المكدسة في كُل مكان قد ألقى بأثرة على رئتيه، كُنت أرى عيناه تلمعان حزناً، أنطفأ بريق المكتبة مُنذ أزمة كورنا، وكُنت أرى انطفاء بريق عينيّ العم نُعمان مع الأيام، كان وجهه شاحباً، يكح باستمرار، فيأتي صوت سعاله من المخزن كأنما ينبئ بنهاية حزينة لرواية طويلة.

- هل أذهب بك إلى المستشفى عم نُعمان؟

أسأله رغم إدراكي لرفضه للأمر.

- إنها نوبة ربو عادية، لا تشغل بالك يا حسام.

يرد مبتسماً، ثم يستنشق زفرة عميقة من جهاز الربو الذي يلازمه.

كان يقضي مُعظم وقته في المخزن في الشهور الأخيرة، هائماً في عالم من الذكريات كأنه يرزح تحت هم ثقيل، رأيت دمعاً يتوهج في عينيه العسليتين في اليوم نفسه الذي رن فيه جرس الباب المشئوم..

«زبون أخيراً أتى لشراء الكُتب» قلتُ لنفسي.

أطل فتى في الخامسة عشر من عُمره:

- مكتبة دار الكتب؟

سأل مستفسراً كأنه لم يرى اللوحة المُغبرة المُعلقة فوق المكتبة.

- نعم.

أجبتُ مبتسماً.

أعطاني مظروفاً مُزيناً ومزخرفاً:

- من الأستاذة فاطمة.

قالها ثم رحل دون أي تفسير. فتحتُ المظروف، وجدت بطاقتين، البطاقة الأولى كتب عليها:

«دعوة لحفلة خطوبة..

يسر المُهندس/ سامح شكري..

أن يدعوا الأستاذ نُعمان لحضور حفل خطوبة ابنه الصحفي والكاتب/ أحمد سامح شكري، وذلك في منزله..

تنويه: الدعوة خاصة للأفراد المُقربين من العائلة».

- من هو السيد سامح شكري؟! طرأ ذلك السؤال في بالي، و قبل أن أجيب عن السؤال رأيتُ البطاقة الأخرى قد كتب عليها هي أيضاً دعوة لحفل خطوبة، يبدو أن من اختارها كان ذا ذوق رفيع..

«يسر حرم المرحوم/ عبد الإله الفقيه..

دعوتكم لحفل خطوبة ابنتها..

الكاتبة والإعلامية/ فاطمة عبد الإله الفقيه

في منزل المرحوم الكائن..

تنويه: الدعوة خاصة للأفراد المُقربين من العائلة».

نزل الخبر علي كالصاعقة، ارتعد قلبي خوفاً، أعدت قراءة الاسم مرة أخرى.. لم أكن أتصور بتاتاً حدوث هذا، أن تتزوج فاطمة، لم يطرأ على مُخيلتي الغضة أن فتاة في الخامسة والعشرين من عمرها ستتزوج.. يا لغبائي.. كُنت أتخيلها تنتظرني على شاطئ العُشاق حينما أعلن لها عن حُبي، وأطلب منها الزواج، فتقبل بسعادة غامرة في نهاية مشابهة لنهاية الروايات الرومانسية المُبتذلة..

كان العم نُعمان مضطجعاً في فراشه يسعل بين حين وآخر، سمعت صوته يُنادي:

- من هُناك يا حسام؟

- لا أحد، لا شيء مُهم، سأخرج لأستنشق الهواء، عليك أن تخرج لواجهة المحل عم نُعمان.

قلت مُحاولاً أن أخفي تأثري، تاركاً الدعوة على مصطبة المكتبة، لم أكن في مزاج لسماع خُطبة رنانة عن القلوب الذي خُلقت لتُحطم.

دلفت خارجاً من المكتبة، لامستني نسمة عليلة آتية من قلب المُحيط ربما، كان الجو جميلاً، من تلك الأيام المُميزة التي تشعر أحياناً أنها لا تأتي إلا مرة في كُل قرن.

الشمس آيلة للغروب مُخلفة وراءها انعكاساً لأشعة بُرتقالية تتناثر على السُحب، لتخلق إضاءة خافتة تنعكس على المباني القديمة لمدينة عدن القديمة.

اجتزت الشوارع القديمة لمدينة كريتر، لم أستطع كبح رغبتي الطفولية في البكاء، لابد أن تلك المرة الأخيرة التي يبكي فيها الإنسان في حياته حينما يفقد محبوبته، ليدرك أن الحياة بائسة، وأنه بات رجلاً وعليه الإبحار دون ميناء ليرسو عليه، دون وجهة محددة متوقعاً العديد من العواصف، مُرغماً على المُحافظة على سلامة قاربه، على أن يظل طافياً فوق المياه.. وكأن الحياة تقول لك ساخرة، بعد أن سلبت منك مجدافيك، ووجهتك: «أنت القُبطان الآن.. فلتبحر».

و صلتُ في الليل إلى المكان نفسه الذي شربتُ فيه الشاي مع تلك السمراء الجميلة، تذكرتُ تلك المُحادثة عن الأحلام المُستقبلية.

سمعت الراديو يُردد أنغام تلك الأغنية اليمنية المشهورة، يا للمصادفة الساخرة..

«مسكين يا ناس من قالوا حبيبه عروس..
يمرض مرض قلب أمر الموت ما أحد يموت».
عدتُ إلى المكتبة في التاسعة، حشد كبير يجتمع أمام المكتبة..
«ماذا يحدث؟». هرعت أركض باتجاه المكتبة متسائلاً.. دلفتُ من بين الحشد لأرى العم نُعمان مستلقياً على الأرض، يسعل بشدة، تكاد أنفاسه أن تنقطع، لم يقترب أحد منه، خوفا وذعراً من المرض الفيروسي الذي انتشرت أخباره في أصقاع الأرض، رحتُ أصرخ بأعلى صوت:
- إسعاف.. إسعاف.
أجاب صدى همهمات ضعيف من الحشد كأنما يقولون:
- عن أي إسعاف تتحدث؟!
رأيت أبي بين الحشد، بدأت مُحادثات طارئة بدت لي كالهمس من شدة هلعي، نظر إليّ العم نعمان بنظرة حنونة، ابتسم وهو يشير لمفتاح قديم في إحدى يديه، أراد أن يتحدث لكنه لم يستطع.
«ماذا؟ ستكون بخير عم نعمان، اصمد، لا تخف».
كنت أناديه بصوت مرتفع، دون أن أدرك الكلمات التي أتلفظها، خوفاً من أن يغيب مبتعداً خلف الأفق.
أقدم أربعة أشخاص بينهم والدي ليحملوا العم نُعمان إلى سيارته المرسيدس القديمة، أغمي على العم نعمان فسقط المفتاح من يديه، سمعت صوت ارتطام المفتاح بالأرضية الرخامية، أخذتُه وأودعته في جيبي، وأنا ألحق مصدوماً بجسد العم نُعمان المحمول، دخلتُ إلى السيارة بجانبه، بينما صعد من الجهة الأخرى (مهند) الشاب الذي كان يعمل في البوفيه المجاورة للمكتبة، وكان متعوداً على إحضار الشاي بالحليب للعم نُعمان صباح كل يوم.
انطلق والدي بالسيارة إلى المُستشفى المُجاور، رفضت مُعظم المُستشفيات استقباله، بحجة عدم وجود إمكانيات لاستقبال المرضى المُصابين بفيروس كورونا، ازداد غضبي وتوتري ما إن أرجعنا من بوابة المشفى الثالث، فرحتُ أطلق اللعنات على طاقم المستشفى، وعلى المستشفى، وعلى المدينة والبلاد والكرة الأرضية.
كُنت مُنهاراً أهذر بالشتائم كالمجنون، شدني أبي من ذراعي واحتضنني بقوة، ثم قال كلمات مواسية، لم أدرك ماهيتها، عدت إلى رشدي جامعاً شتات نفسي.
وصلنا أخيراً إلى المشفى الذي يستقبل المرضى المُصابين بفيروس كورونا، أدخل العم نُعمان الساعة الحادية عشرة والربع مساء وهو بالكاد يأخذ أنفاسه.
ولم أدري إلا وأنا أنعيه بألم بالغ ودموع خرساء في اليوم التالي عائداً من تلك الجنازة، التي تُثير الشفقة وكأنها لرجل مجهول الهوية، لا تعرفه المدينة التي ولد وترعرع فيها مُدافعاً عن أصالتها وثقافتها بأن يكون الحارس الأخير لآخر حصونها، في ظل كُل تلك الفوضى التي حولتها لمكان يتناقض مع التاريخ، مع نفسها، كأنها انسلخت من جذورها وتنكرت لأصولها، لم أعد أفهم بل لم أعد أستوعب كُل تلك الكوميديا السوداء والمهزلة المأساوية التي تحدث في البلاد برمتها.
ما إن فتحتُ المكتبة باغتني رائحة الكُتب، فهوت الدموع من عيني، كُنت قد أعتدت على تلك الرائحة في إطار يضم ذلك الرجل العجوز ثاقب العينين، مُنذ اليوم الذي عرفتُ فيه هذه المكتبة.
أقفلتُ باب المكتبة من الداخل، ثم انزويت في أحد أركان المخزن السحيقة، تكورت على نفسي مستنشقاً كُل ذلك الغبار، كُل ذرة غبار كانت تُمثل دمعة حزينة ثاقبة ومأساوية، لذكريات تجاوزتني وددت لو يملأ الغبار رئتيّ لأموت غافياً.
فاطمة لاح طيفها في مُخيلتي، لابد أنها تتنعم مع خطيبها، إلا أن صورتها مثلت عزاءً غريباً لي في ظل تلك المأساة.
شعرتُ بثقل ذلك المفتاح في جيب قميصي، تذكرتُ أمر المفتاح والصندوق القديم، كان العم نُعمان حريصاً على إعطائي المفتاح في لحظاته الأخيرة، اجتاحني فضول عارم لمعرفة ما يحويه ذلك الصندوق رغم إنهاكي الشديد، ذهبت إلى مكبس الإنارة، فأضاء المخزن بضوء مصباحه الكهربائي الباهت والعتيق.
رحت أمشي متجنباً رزم الكتب التي لم ترتب بعد، إلى أن وصلتُ لركن المكتبة حيثُ يقبع ذلك الصندوق الخشبي القديم، أدخلتُ المفتاح في ثقب الصندوق، فتح الصندوق مُحدثاً صريراً زمنياً أطلقته مغاليق الصندوق الحديدية العتيقة.. رأيتُ في الصندوق عدة أشياء، نسخ قديمة لكتب نادرة تعود طبعاتها لبداية القرن العشرين، منها ما طُبع في المكتبة ومنها ما طُبع في دور نشر عربية مُختلفة، وضعت فوقها رسالة قديمة مهترئة مُنضدة بحبر عتيق، أخذتها وقرأت ما كتب عليها، كتبت الرسالة بتاريخ ١٧ / فبراير / ١٩١٥.. كما كان موضحاً أعلى الرسالة، ثم كتب:
«أيها الوريث أصبحت الآن مالك المكتبة والمؤتمن على أعرق أسرارها، سرد عليك الوريث الذي قبلك حكاية العرافة الغجرية الجميلة ونبوءتها، وهاأنت تعرف من الرجل الذي قابل تلك الغجرية الجميلة، ما تبقى من النبوءة، الجزء الأهم الذي لم يُسرد عليك..
عندما يتسلل الكره والغل إلى القلوب، فتنشب الحروب وتنهمر من السماء أمطار الدماء والدموع، سيخبو نور الحكمة الذي تؤويه الكتب، وستنبذ القلوب المسودة المعرفة، رغم حاجتها لها، فتهب ألف عاصفة وعاصفة لتوصد أبواب تلك المكتبة، لتطفئ ما تحويه رفوفها من شموع».
الجزء المُتبقي من النبوءة.. لكن بقاء أبوابها مفتوحة يظل رهن إيمان حُراسها».
رأيتُ في طرف الصندوق علبة معدنية لإحدى ماركات الشاي القديمة، ربما يعود زمنها لقرن من الزمان، أخذتها كانت ثقيلة، حينما فتحتها عرفتُ سبب ذلك الثقل.. عملات فضية فرنصية مكدسة.. فوقها ورقة كتب فيها بخط يد العم نُعمان حديثاً:
«حسام، في الوقت الذي ستقرأ فيه هذه الكلمات سأكون قد رحلت عن هذا العالم، وستكون قد قرأت بقية نبوءة العرافة، التي لم

أسردها عليك مكتوبة بخط جدي إسماعيل مؤسس المكتبة.. «بقاء أبوابها مفتوحة يظل رهن إيمان حُراسها».. وستكون حارس المكتبة الجديد، وبقاؤها سيكون رهن إيمانك بأهمية كُتبها، لقد تركتُ لك ما جمعته طيلة الأربعين السنة الماضية من ثروة وأنا قيم على هذه المكتبة، وآخر نصيحة سيتركها لك ذلك العجوز الذي أحبك والتي يجب أن تعيها وتنفذها لا ترتكب نفس خطئي، تزوج من الفتاة التي تحبها، لأنك إن لم تفعل، فستندم طيلة حياتك، عمك المُحب لك دوماً
العجوز نُعمان إبراهيم».
أغلقتُ الصندوق، وأخذتُ الظرف الذي أودعت فيه بطاقات دعوة الخطوبة الذي ظل على منضدة المكتبة منذ البارحة، ثم رحتُ أركض سريعاً إلى منزل فاطمة لم أفكر بالكلمات التي سأقولها حينما أقابلها، تبعت قلبي دون تفكير، حينما وصلت إلى باب الشقة التي تسكنها فاطمة، كُنت ألهث من شدة التعب، قرعت الجرس لم يجب أحد، قرعته مرة أخرى، بقوة أكبر.
سمعت خطوات تأتي من الداخل:
- من هُناك؟
كان صوت فاطمة.
- إنه أنا حُسام.
أجبت. مرت دقائق، وظهرت فاطمة، رأيتُ دموعاً تتلألأ في عينيها، حاولت جمع شتاتها ما إن رأتني، ثم سألت بصوت منهك:
- هل الخبر الذي سمعته صحيح؟
أومأت برأسي مؤيداً صحة الخبر.
- تفضل.
دخلت الشقة البسيطة متتبعا خطا فاطمة، إلى أن وصلنا لأحد الأركان حيث وضعت أريكتين لاستقبال الضيوف، جلست بعد أن جلست فاطمة.
قالت وهي تمسح دموعها التي كانت تنساب من عينيها بهدوء:
- اعذرني لم أعرف الخبر سوى قبل نصف ساعة من قدومك.
- لا مشكلة.
قلت بنبرة حزينة. ثم أردفت بنبرة حاولت فيها إخفاء ألمي، مظهراً دعوة حفل الخطوبة:
- ليس عليك أن تحزني، فأنت مُقبلة على الزواج قريباً.
- لم يعد هُناك حفل خطوبة.
أجابت فاطمة بعد أن نظرت في بطاقة الدعوة.
- حقاً، لماذا ما الذي حدث؟
قلت بنبرة فرحة لا تُناسب الحدث الذي كُنا فيه، مما أشعرني بالحرج.
- ليس هُناك أمر مهم، لم يكن مُناسباً لي منذ البداية، فصارحته بالأمر وانتهى كُل شيء.
أجابت بنبرة ظهر فيها انزعاجها من ذكر الموضوع.
ساد صمت خانق للحظات، قاطعه سؤال فاطمة:
- ماذا ستفعل الآن؟
- لا شيء، لقد ترك لي العم نُعمان إدارة المكتبة من بعده، سوف أحرص
على أن تظل أبوبها مفتوحة.
- جيد.
قالت وهي تنظر إلي. أردفت متردداً:
- لن أستطيع إدارتها لوحدي، لقد وضع العم نُعمان شرطاً كي أدير المكتبة.
- ما هو هذا الشرط؟
سألت مستفسرة.
- سوف تعرفين قريباً.
أجبت ثم وقفتُ هاماً بالخروج، وخرجتُ بخطىً سريعة من باب الشقة عائداً إلى المكتبة.
لم يمض أسبوع حتى أرسلتُ والدي لطلب يد فاطمة للزواج.. لم أتوقع أنها ستوافق.. بل لم أصدق أنها وافقت حينما عاد أبي يحمل الخبر السار إلا بعد أن أقسم بحياة أمي المتوفاة.
تم العُرس بعد شهر، و لقد مر عام كامل منذ ذلك اليوم الحزين الذي فقدت فيه المدينة العم نعمان.
وهاأنا أنظر إلى المكتبة من نافذة الغرفة في العمارة المقابلة حيث كنت أعيش مع زوجتي المُستلقية على السرير، ببطنها المُنتفخة التي تحمل مولودنا الأول، باتت الآن حاملة في الشهر السادس، أظهرت الأشعة التلفزيونية قبل يومين أن المولود الذي ننتظر قدومه بفارغ الصبر ذكر.
ربما يكون إطلاق اسم نُعمان على المولود تيمناً بالعم نُعمان، من الأشياء القليلة التي اتفقنا عليها دون جدل ونقاش منذ زواجنا.
في النهاية، لم أصبح وحيداً كحارس للمكتبة كما كان العم نُعمان، المكتبة على ما يُرام، رغم ما للزواج من إرهاصات مزعجة، خصوصاً إن كانت زوجتك امرأة مُثقفة وعنيدة وجميلة.
وصلت دفعة الكتب التي تتضمن الرواية التي تنتظرها فاطمة بالأمس أخيراً، لم أعد مُرغماً على تحمل السؤال المزعج الذي بات يومياً عن موعد وصول تلك الرواية اللعينة.
لربما كانت أفضل هدية قدمها لي العم نُعمان تلك الإجابة الحكيمة:
«على الأقل لقد حاولت، ذلك خيراً من العيش في ندم لبقية عمري».

صلاح الهبوب.

أحلام هشة

كُنت برفقة صديقي علاء، نمشي عبر الممرات الضيقة لمدينة صنعاء القديمة، كانت الشمس تذوي في الأفق فتنعكس أشعتها على المباني القديمة مُخلفة ورائها طيف فتاة جميلة لطالما أغوتك بجمالها، لكنها هادئة لا تُبدي اكتراثاً لوجودك.

كُنت سعيداً في ذلك اليوم، فقد شاركت في مباراة كرة القدم التي أقيمت بين أولاد حينا وأولاد الحي المُجاور، وسجلتُ فيها ثلاثة أهداف نظيفة، رحتُ أفند البراهين لإقناع علاء أن تلك الركلة المباشرة التي ركلتها من منتصف الملعب لترتطم بالعارضة وتستقر داخل الشباك، لم تكن من قبيل المُصادفة، كما أشاع بعض المُغرضين من الفريق الآخر.

لم يكن علاء مهتماً بكرة القدم، وقد أقنع نفسه بعد محاولات كثيرة لتعلمها باءت مُعظمها بالفشل، أن سواد إحدى عينيه يميل إلى العين الأخرى، وهذا ما جعل حلمه بأن يُصبح لاعباً محترفاً شبة مُستحيلة، فتوقف منذُ ذلك الحين عن اللعب، ولم يعد متحمساً لفكرة اللاعب المُحترف الذي يكسب الملايين، و كنت أنا على الأغلب من أدخل تلك الفكرة إلى ذهنه بالحديث المطول عن المبالغ الطائلة التي يكسبها مُحترفو كرة القدم في النوادي الأوروبية، فظل أسبوعاً كاملاً يتحدث عن الملايين التي سيجنيها من احتراف كرة القدم، وكيف ستنتشله تلك الملايين من الفقر المدقع وما الذي سيفعله بتلك الملايين.

توقفت عن الحديث عندما رأيت عدم اكتراث علاء لما أقوله، كان يُحدق في الشارع شارد الذهن، سألتهُ وقد انتابني شعور بتأنيب الضمير لأني لم ألاحظ الحزن الذي كان يعتري صديقي الأقرب:

- ماذا هُناك يا علاء؟ هل حدث شيء في البيت مُجدداً؟

بدأت الدموع تنهمر من عينيه، فوجئت بردة فعله، وشعرتُ أن هناك شيئاً غير عادي قد حدث معه هذه المرة في البيت. دعوته للجلوس على الرصيف، لم يتوقف عن البكاء مشيحاً وجهه عني.

ظللت أراقب ذلك الوجه الذي لفحته الشمس بشدة فأغدقت عليه سمرة داكنة، وأثقلته الدنيا ببؤسها رغم صغره، فلم تتوانى عن إضفاء ذلك الحُزن العميق إلى عينيه البريئتين.

رحت أسأله مُجدداً، كي أعرف ما الذي حدث هذه المرة معه.

- ماذا هُناك يا علاء؟
- يجب أن أهرب يا خالد، لم أعد أطيق الحياة معهما.

أجاب علاء وهو يخفي وجهه بين يديه.

- ما الذي تقوله؟ إلى أين ستهرب؟

سألته مندهشاً من هذه الفكرة الغريبة التي تبادرت إلى ذهنه فجأة.

- إلى أي مكان، هل ستأتي معي؟

أجاب بنبرة مصممة، وهو يرمي الأحجار إلى طرف الشارع المُقابل بغضب.

- ما هذا الذي تقوله يا علاء؟ إلى أين سنهرب؟ ولماذا سنهرب؟!

أجبته بنبرة مستنكرة وساخرة.

نهض علاء، ثم قال بغضب:

- عرفتُ أنك لن توافق، لك أب تُحسد عليه، لم أكن لأفكر بترك أبي لو كُنت مكانك.

ثم مضى متوجهاً إلى الحارة، والشرر يقدح من عينيه.

اعتقدت حينها أنها إحدى الأفكار الحالمة الجديدة التي تتبادر عادة إلى ذهنه ثم سرعان ما تخبو.

كان علاء الابن الأكبر لعائلة صغيرة، مكونة من بنتين وولدين، يعيشون في بيت شعبي صغير، في المبنى المقابل للعمارة التي يملكها والدي.

كان علاء الأكبر بين الذكور ولم تكن تكبره من الإناث سوى (نوال) الأخت الكبرى، والأقرب سناً منه. والده النجار خليل الذي كان دائماً ما يضربه طالباً منه ترك الدراسة والانضمام له في العمل، أما أمه (حياة) فقد فقدت عقلها مُنذ زمن بعيد.

لقد شهدتُ اليوم الذي جاءت فيه عائلة علاء إلى الحي، كُنت حينها طفلاً في السابعة من عُمري، وكان هو في الخامسة. كانت عائلة سعيدة، عمتي حياة كما صرتُ أناديها مُنذ ذلك اليوم ، كانت فتاة جميلة، قوامها ممشوق، تضحك من أعماق قلبها، وهي تَحمل إياد الأخ الأصغر لعلاء في حضنها، وتمسك بيدها الأخرى يد ابنتها الكبيرة نوال التي كانت تشبه أمها إلى حد بعيد، إلا أن لون عينيها العسليتين كانتا تشبه عينا أبيها.

العم (خليل) الذي كان يُمسك علاء بإحدى يديه، ورويده في اليد الأخرى، ذلك الرجل قليل الكلام، صاحب الوجه الوقور، لم أتكلم معهُ سوى مرة أو مرتين، مُنذ أصبحنا أنا وعلاء صديقان، بات يمقتني رغم أني كُنت أشعر أنه يمقت كل شيء في الحياة، تلك العينان كانتا تحويان غضباً لا يعرف أحد مصدره..

كان دوماً ما يُحدق فيّ بنظرات غاضبة، لم يكن راضياً عن صداقتي بعلاء، وكان يُلقي اللوم على إن ارتكب علاء أي خطأ، كان يقول مراراً وهو يغادر البيت، بعد أن يكون قد أنهال على علاء بالضرب:

- لقد أفسدك ابن ذلك الرجل اللعين، الذي لا يفعل شيئاً سوى قراءة الكُتب، نحن لسنا مثلهم أيها الغبي، إنه وارث، ترك له أباه ثروة، متى ستفهم ذلك؟ ابتعد عن ذلك الصبي وإلا طردتك من البيت، وليتبناك ابن اللعينة ذاك.

كان يُمعن في رفع صوته، كي يسمع أبي شتائمه، لكن أبي لم يكن يكترث له، بات يتعامل معه تعامله مع رجل مجنون.

كان والدي يقضي مُعظم وقته في مُطالعة الكُتب التي ورثها عن جدي عُثمان، الذي كان يوماً من الأيام يمتلك مكتبة عظيمة يؤمها جميع الكُتاب والمُثقفين في المدينة.

لا تزال لوحة المكتبة مُعلقة على المحل المُرفق بالدور الأول من

العمارة ذات الطوابق الأربعة، التي بناها جدي عُثمان.

كانت يافطة رثة باهتة المعالم، تُذكر أهل الحي بالزمن الجميل، عندما كانت مكتبة جدي عُثمان مفتوحة على مصراعيها، لاستقبال الزوار الذين يشترون الكُتب، مُنهم الأجانب الذين كانوا يزرون المدينة بأعداد كبيرة.

أغلقت المكتبة بعد موت جدي الذي أصر على بقاءها مفتوحة، رغم الخسائر الكبيرة التي مُنيت بها في السنوات الأخيرة من حياته، لم يتمكن أبي من تحمل التدهور السريع والخسائر الكبيرة التي كانت المكتبة تتكبدها، فأغلقها والدموع تترقرق من عينيه حزناً على المكتبة، التي قضى فيها الردح الأكبر من عمره، مترعرعا بين كُتبها وزبائنها المُثقفين، الذين كانوا يأتون إليها من كل حدب وصوب.

فأصبح عزاؤه الوحيد هو مطالعة كُتبها التي بقيت في شقتنا، على أنغام موسيقى موزارت وبيتهوفن وشوبان، والكثير من الأسطوانات الفنية لفناني القرن التاسع عشر والعشرين.

كُنا نظل معاً في الظهيرة في شرفة المنزل، نستمع لغناء أم كلثوم ، وقد كان مُتيماً بها وبكل ما هو قديم، كُنا ننظر للحي الذي كان يتغير يوماً بعد يوم، البيوت الإسمنتية تنمو على جنباته مزاحمة البيوت الطينية القديمة مشوهة معالم المدينة الجميلة، كنبات مُتطفل يمتص من المدينة أصالتها الطينية، وتناسقها المعماري المُبهر.

في ذلك الوقت، كانت العمة حياة تجلس وحيدة على سطوح منزلها تنظر شاردة الذهن إلى أطفالها الذين يلعبون في الفناء الأمامي للمنزل، ثم تنظر إلى أسراب الناس، الذين يعبرون شارع الحي، متوجهين إلى قلب المدينة.

كان والدي ما يفتأ يردد هذه الكلمات بحزن كلما نظر إليها:

- يا لها من مسكينة، تلك النظرة الشاردة تبوح بالكثير من البؤس والألم والتعاسة، كيف يستطيع هذا الرجل ترك عائلته دون مُعيل لثلاثة أيام؟؟

ثم يُخرج محفظته ويعطيني النقود لكي أشتري لهم الدقيق والفاصوليا والأرز.

كُنت أحكي لهُ عن حال عائلة صديقي علاء، عن والده الذي يضربه ضرباً مبرحاً كلما عاد إلى المنزل بعد أن يغيب ليومين أو ثلاثة أيام متتالية، دون أن يترك لهم شيئاً مُلقياً اللوم على زوجته، التي كانت تحلم مُنذ صباها بالانتقال من الريف إلى المدينة.

كان يُحملها سبب ما آلت إليه أمور العائلة من فقر مُدقع، وحياة مرة، إلى أن أتى ذلك اليوم الذي لم تعد تحتمل فيه بؤس الحياة ونواح أطفالها الجائعين، وحياة التعاسة التي اقتنعت أنها السبب الرئيسي في حدوثها، فأصبحت تُعرف بمجنونة الحي، كانت تضرب أولادها، وحاولت قتل ابنها الصغير في إحدى المرات، مما جعل أهل الحي يودعونها في مستشفى الأمراض النفسية.. عادت بعد عدة أشهر جثة هامدة تنظر شاردة الذهن، وقد ذبلت عيناها الجميلتان وانطفأ بريقهما.

عدتُ إلى المنزل، كانت الساعة تُقارب السابعة، ظللتُ أفكر بعلاء ونوال، كُنت خائفاً عليهما، ما الذي سيحدث معهما؟ هل سيهرب علاء وإلى أين؟ وكيف ستتحمل نوال كل ذلك من دونه؟؟

كان ذلك اليوم الأخير الذي أرى فيه صديقي علاء، ترك المنزل صباح اليوم التالي، دون أن يخبر أحداً.

***

عندما عاد والد علاء بعد ثلاثة أيام من مغادرته، كاد أن يجن جنونه، تعالت أصوات الشجار لعدة أيام في منزل العمة حياة، كان يلومها على رحيل علاء ، كما يفعل دوماً، ويبدو أنه انهال عليها بالضرب..

أتى بعدها بأيام إلى منزلنا ليسأل عن علاء، كُنت حينها أقرأ إحدى الروايات المُترجمة في المكتبة، كان أبي هو من فتح له الباب، دخل إلى صالة المنزل، خرجت من المكتبة للتأكد من أن القادم هو خليل النجار والد علاء، كان يمشي متكئاً على عصا.

- أهلاً وسهلاً بك سيد خليل، ما الذي حدث لرجلك؟ هل أصيبت؟

سأله والدي.

أجاب العم خليل بنبرة حزينة ومهمومة:

- شكراً لك أخي خالد، نعم سقطت عليها أثناء العمل فكُسرت، وهاأنا كما ترى أصبحت عاجزاً ، ولم أعد قادراً على العمل.

ثم أردف يقول:

- أرجوا أن تُخبراني عن مكان علاء لا بد أنه أخبركما عن المكان الذي سيذهب إليه، كما تعلمان كُنت أقسو عليه في الفترة الأخيرة.

توقف عن الحديث وهو يُكابد عينيه كي لا تذرف الدموع، أخذ نفساً عميقاً ثم قال متابعاً:

- صدقاني لم أكن أقسو عليه، إلا لأعلمه كم هي الحياة قاسية، كُنت أود أن يُصبح قوياً، فهو ولدي الكبير. هكذا رباني والدي، لكني أعدكما أني لن ألمسه بعد اليوم، أخبراني فقط بمكانه، أعدكما بهذا، سأقسم لكما بالقرآن إن أردتما ذلك، أرجوكما أخبراني بمكانه، لا بد أنه أخبرك يا ماجد.

ثم بدأ يجهش بالبكاء كطفل صغير، لم أكن قد رأيت العم خليل بهذه الحال من قبل، انتظر أبي للحظات كي يلم العم خليل شتات نفسه، شبك يديه بعضهما ببعض مُغيراً طريقة جلسته ثم قال:

- سيد خليل لم يُخبر علاء أحد بالمكان الذي سيذهب إليه، حتى ماجد لا يعرف ذلك، يمكنك أن تسأله إن أردت أن تتأكد.

قلتُ دون أن أنتظر سؤال العم خليل:

- لم يُخبرني عم خليل عن المكان الذي سيذهب إليه إلا أنه كان مستاءً، وأخبرني أنه يرغب بالهروب.. عندما سألته إلى

أين سيهرب؟ أجاب: إلى أي مكان. لم ألح عليه، كُنت أظن أنه ليس جاداً، وأنها ليست إلا إحدى نزواته، لكني فوجئت مثلك بمغادرته، ولو كُنت اعرف لكُنت أخبرتك.

كُنت أتكلم مسرعاً، كمن يسرد أحداث جريمة ارتكبها أمام أحد المُحققين، توقفت عن الكلام، ساد صمت لدقائق.

نهض العم خليل مستجمعاً أشلاء كرامته، وقد أعتره شعور بالندم للحظة الضعف التي ظهرت عليه أمام أبي، الذي كان يُبدي الكره له ويعتبره عدوه اللدود معتقداً أنه سرق منه عائلته، فقال هاماً بالذهاب دون أن ينظر لأي منا:

- اعذروني يجب أن أذهب، شكراً على حسن استقبالكما.

نهض أبي هو الآخر، ثم قال وهو يتبع العم خليل إلى باب الشقة:

- لا تحمل نفسك فوق قدرتها يا سيد خليل، لا بد أن علاء سيعود خلال أيام، وسأحرص على البحث عنه من جهتي أنا أيضاً، إن كان قد أخبر أحداً من سكان الحي عن المكان الذي سيذهب إليه.

قال السيد خليل بنبرة حزينة:

- شكراً لك سيد خالد.

ثم ذهب.

أغلق والدي باب الشقة ثم عاد ليجلس على الأريكة، تبادلنا النظرات للحظة.

قُلت حينها:

- ماذا هُناك؟ لماذا تنظر إليّ هكذا؟

- ليس هُناك شيء، هل أنت متأكد أن علاء لم يُخبرك بالمكان الذي سيذهب إليه، فأنت أقرب أصدقائه.

قال والدي مشككاً في رواياتي التي ألقيتها على السيد خليل.

- لا أعلم أين ذهب يا أبي؟ كل ما قاله لي إنه سيهرب، أنت تعلم أني لم أكن سأخفي شيئاً كهذا عليك لو كُنت أعرف.

أجبت مؤكداً.

- لا عليك، لا بد أنه سيعود خلال أيام، أنها نزوات المراهقين، لا بد أنهم بحاجة للمال، سأضع لك بعض المال مساءً، لا تنسى أن تأخذه معك في الصباح وتشتري بعض الأشياء لعائلة عمك خليل، وأعطي نوال بقية المال، لتشتري الاحتياجات الأخرى.

قال أبي بنبرة مستاءة.

- سأفعل ذلك.

قلت.

- جيد.

أنهى أبي الحوار.

عُدت إلى المكتبة، لم يكن لي رغبة بمواصلة القراءة، كان ذهني مشوشاً، كُنت أرغب بالذهاب إلى بيت العمة حياة، للحديث مع نوال، كُنت قلقاً عليها.

خرجتُ إلى الشرفة لأرى منزل العمة حياة، كانت الغُرفتان مضاءتان لكن أصوات الشجار لم تكن تتعالى كالمعتاد حينما يكون العم خليل في البيت، كان منظر الحي كئيباً، يبدو مستاءً مثلي لغياب علاء.

***

استيقظت باكراً في صباح اليوم التالي، كان والدي لا يزال نائماً، يبدو أنه تأخر في النوم كعادته، مُنكباً على قراءة وتصنيف الكتب التي أعتاد معاشرتها أكثر من مُعاشرة البشر.

وجدتُ المال موضوعاً على طاولة، إلى جانبه ورقة كُتب عليها:

«لا تنسى إعطاء نوال المال، أشتري أغراضاً بنصف المبلغ، وأعطي نصفه لنوال».

كانت نوال مقربة جداً من أبي مُنذ صغرها، كانت لا تتوانى في مساعدته، كما أنها كانت بشوشة قليلة الخجل، ذكية تنهال عليه بالأسئلة عن الكُتب وعن المكتبة، فيجيب على كل سؤال من أسئلتها، مستمتعاً بالحديث عن الماضي الجميل مسهباً أشد الإسهاب، بينما تظل هي تُنصت إليه باهتمام دون كلل أو ملل، وفي عينيها ذاك البريق الطفولي التواق إلى المعرفة.

فلم تكن تغادر الشقة إلا وفي يدها أحد الكتب الذي يعطيها والدي لها من المكتبة لتقرؤه ثم تُعيده.

كان أبي لا يتوقف عن ترديد ترانيم المديح عنها.

«تلك الفتاة ذكية، أعتقد إن تهيأت لها الظروف، ستكون كاتبة عظيمة في المستقبل.. يا لتلك الفتاة الذكية».

بثُ أغار منها، اعتقدت أن والدي يُحبها أكثر مني، خصوصاً أنه كان يطلب مني دوماً أن أكون مثلها، أو أنني كُنت أشعر بذلك كلما تحدث عنها، لذلك لم تربطني صداقة عميقة بها في البداية، بل أنني كُنت أظن أنها مغرورة ومتعجرفة، ولم أكن أشعر بالراحة حينما تكون في المنزل.

تبدد هذا الشعور مع الأيام، عندما قلّت زياراتها إلى منزلنا، وازدادت زياراتي إلى منزلها (منزل العمة حياة) حيث كُنت أمكث هُناك لفترات طويلة.

أصبحت العلاقة التي تجمعني بها غريبة، صداقة عميقة صامتة، كانت تملك القدرة على فهمي دون أن أتحدث، عيناها لا تُفصحان عن مشاعرها، لم تكونا تشكوان بؤس الحياة وآلامها وأحزانها والهموم الثقيلة التي ألقيت على كاهلها، كأنما كل ما كان يحدث معها جزء لا يتجزأ من حقيقة الحياة نفسها، لا يستثني أحداً منا.

إنها نوال التي يحبها الجميع، حتى والدها كان يعاملها بشكل مُختلف عن البقية، فلم يصرخ عليها يوماً ولم يضربها، لم تتخلى عن مكتبة والدي، كنت أحياناً أظن أنني أتحدث مع والدي، ظل والدي يبعث لها الكتب معي، ويطلب منها أن تُرفق رسالة تُعبر فيها عن رأيها في كل كتاب تنهي قراءته.

كانت تعشق الروايات، وعندما تتحدث عن كاتب ما أنهت قراءة روايته لتوها، يتوهج وجهها الجميل نوراً، هائمة في وصف الرواية وكاتبها،

فتبدو كمن يصف قديساً..

كُنت في ذلك الوقت أرى في عينيها شيئاً لا يمكن وصفه، شيئاً عميقاً، بدأت أتعلق بقراءة الكُتب مُنذ ذلك الحين، لأتذكر تلك النظرة العميقة، التي لم أعد أراها، مُنذ أن فقدت العمة حياة عقلها، وجدت نوال نفسها مسؤولة عن الجميع، إلا أنها تحملت كل ذلك دون أن تشكو شيئاً، لم أعد ألقاها كثيراً، كانت مشغولة طيلة الوقت.

أخذت النقود ثم خرجت من البيت ماراً بأزقة الحي، كُنت قد عزمت أن أعرج على الحاج سعيد، صاحب محل الحلاقة الذي كان جدي عُثمان يذهب إليه باستمرار، لم أكن أود مقابلة نوال وأنا بذلك الشكل، فقد مضى وقت طويل مُنذ تحدثنا مع بعض، كُنت عازماً على الحديث معها عن علاء، ظللت طيلة الطريق أدعو الله ألا يكون العم خليل موجوداً، فمن المؤكد أنه كان سيرفض النقود التي بعثها أبي، ولم يكن ليسمح لي بالدخول إلى المنزل، بعد الذي حدث بالأمس.

وصلتُ إلى صالون الحاج سعيد، لم يكن هُناك الكثير من الزبائن، كان العم حمود هو الوحيد الذي يجلس على كرسي الحلاقة، يدعك الحاج سعيد لحيته بمعجون الحلاقة، وكان يبدو أنهما يخوضان نقاشاً سياسياً حاداً عن مُرشحي الحزبين، الذي سيخوضان الانتخابات في نهاية ذلك الشهر.

- أهلاً بحفيد عُثمان، كيف هي أحوال والدك؟

قال الحاج سعيد عندما رآني.

- إنه بخير، الحمد لله.

أجبت باقتضاب. لم أكن أود أن أخوض جدالاً مع الحاج سعيد عن السياسة، فقد كان معروفاً عنه ولعه بالحزب الحاكم لدرجة التقديس، ولم يكن يقبل أي انتقاد يُمكن أن يوجه له، وكان ولعه ذاك ليس نابعاً عن اقتناع بأفكار الحزب أو توجهاته، وإن كان يحاول دائماً أن يبدو على دراية تامة بالحزب الحاكم، و كان يطنب أحياناً في وصف منجزاته ومشاريعه التي لم يكن لها محل إلا في قنوات التليفزيون، وقد يبدو لوهلة أنه هو الآخر غير مقتنع بها، إلا أنه كان مغرماً بزعيم الحزب، و كان دوماً ما يثير جدالاً واسعاً مع زبائنه، الذين ينتقدون زعيم الحزب بل أن ذلك الجدال يتحول في بعض الأحيان إلى شجار، و لم يكن يعبأ بالخسائر التي يتكبدها في سبيل الدفاع عن الحزب وزعيمه، فلم يعد يأتي إليه إلا من ينتمون للحزب نفسه أو يؤيدونه على أقل تقدير، فيتهيأ للقادم أن ذلك الصالون القديم والمهترئ مقر رسمي للحزب الحاكم.

لحسن الحظ أن الرجل الذي كان يجلس على كرسي الحلاقة، هو العم حمود صاحب معصرة زيت السمسم المجاورة لصالون العم سعيد، والتي لا تزال تعمل بالطريقة القديمة، التي يتم فيها استخراج زيت السمسم من بذور السمسم باستخدام جمل مغمض العينين يدور حول المعصرة ، كُنت دائماً ما أتساءل عن ذلك الجمل المسكين الذي يظل يدور لساعات حول المعصرة دون أن يشعر بالدوار، كأتباع الطرق الصوفية الذي يدورون حول أنفسهم في أيام المولد النبوي الشريف، لم أكن أعرف سبب تلك المقاربة التي تطرأ في ذهني، كلما رأيت الجمل يدور حول المعصرة معصوب العينين.

كان الرجلان يتحدثان بإسهاب عن الفوز الساحق الذي حققه الحزب الحاكم في انتخابات مجلس النواب، ويرجحان فوز زعيم الحزب برئاسة البلاد لولاية أخرى بنسبة ساحقة.

لم يكن أياً من ذلك يعنيني، رغم أن أبي كان معارضاً للحزب الحاكم، وهو الوحيد الذي يرتاد محل الحاج سعيد دون أن يشعر الأخير بالانزعاج.

كُنت قلقاً شارد الذهن أفكر بنوال، واحتماليه وجود العم خليل في المنزل، وما سيترتب على ذلك إن حدث فعلاً.

أكمل الحاج سعيد عمله أخيراً، فانغماسه بالحديث خصوصاً مع الحاج حمود، كان سيجعلني أنتظر كثيراً كما كنت أتوقع، إلى أن يصل كل منهما إلى النقطة النهائية في النقاش، وهو الفوز الحتمي لزعيم الحزب الحاكم بمقعد الرئاسة.

- نعيماً.

قلتُ موجهاً كلامي للعم حمود.

- علينا وعليك، لا تنسى أن تبلغ والدك تحياتي.

قال العم حمود وهو يخرج من المحل نافضا بقايا الشعر من على عنقه.

- سأفعل، إن شاء الله.

قلتُ باقتضاب.

صعدت على كرسي الحلاقة، كان العم سعيد يُحدق في عينيّ صامتاً على غير عادته.

- ماذا هُناك عم سعيد؟ لماذا أنت صامت؟

سألت بتوتر.

- أنصت إلى دقات قلبك لأتأكد من شكوكي، هل تعرف يا ماجد؟ كي تفهم ما يشعر به أي إنسان، عليك أن تنظر إلى عينيه، هُناك ستعرف نصف الحقيقة.

ثم عليك أن تنصت إلى قلبه، وهُناك ستعرف نصف الحقيقة الآخر. فإن كان ذلك الشخص حزيناً فلن تستطيع أن تنصت إلى دقات قلبه، لكنك سترى عينيه ذابلتان مستسلمتان، لما ساقته إليها الأقدار. وإن كان قلقاً فسترى الخوف والترقب في عينيه، وأما خفقان قلبه فسيكون حاداً، كطريدة نجت لتوها من مفترسها لكنها لا زالت خائفة، إنها نغمة مميزة.

أما العاشق فسترى عينيه ساهمتين هائمتين في عالم آخر، وقلبه يَخفق كالفراشة دقاته متسارعة.. دب تك دب تك دب تك.. بسرعة هكذا.

لقد اكتسبت هذه المهارة من السنوات الكثيرة التي قضيتها في هذه المهنة، فصرتُ أعرف الكثير عن الناس، يكفيني فقط أن أنظر إلى عيونهم ثم أنصتُ إلى ما تبوح به قلوبهم.

كان العم سعيد يتحدث ومقص الحلاقة في يده لا يتوقف عن الحركة

بسرعة، مصدراً صوتاً مريحاً، اعتدت سماعه في صالون العمر سعيد. توقف العمر سعيد عن الحديث في الوقت نفسه، الذي توقف فيه المقص عن إصدار الصوت..

رأيت ابتسامة عريضة وماكرة ترتسم على شفتيه ثم أردف يقول:

- من هي؟ هل كُنت تظن أنك ستستطيع أن تخفي شيئاً كهذا عن عمك سعيد ، أتى اليوم الذي أشاهد فيه حفيد عثمان عاشقاً، من هي سعيدة الحظ؟ هيا قلي قلي.

ثم راح يضحك، عائداً إلى تحريك المقص فوق رأسي بسرعة، منتظراً مني الكلام.

قلت مُسرعاً كمن كشف وهو يتسلل إلى فناء محبوبته، محاولاً اختلاق أي عذر من شأنه تغيير الاستنتاج الذي توصل إليه العمر سعيد:

- ما الذي تقوله عم سعيد؟ يُمكنني أخبارك أنك هذه المرة أخطأت التقدير، لا يوجد أي شيء من هذا القبيل، كدت أن تقنعني في البداية بمهارتك في معرفة ما يشعر به الناس..

لكنك أخطأت التخمين معي، أنا الذي أزورك مُنذ كنت صغيرا، بدأت أشك في صحة ادعائك.

أجاب العمر سعيد، وقد جرحه إنكاري لمواهبه التي يفتخر بها:

- يا لك من مكار، أنك تشبه جدك عثمان عندما يتحدث يجد المخرج بسهولة، أنا لا أخطئ التقدير أبداً، تُريد أن تشكك في قدراتي، هذا شأنك. لكن يُمكنني أن أقسم الآن أنك واقع في الحب، لا تُريد أن تبوح باسمها، هذا شأنك أيضاً، لكنني سأعرف قريباً، بل سيعرف الحي بأكمله، مثل هذه الأمور لا تبقى سراً لفترة طويلة، عندها سأخبرك أنك كاذب، وأن تخميني كان صحيحاً.

دخل آنذاك زبون آخر، لم أكن أعرفه، سُرعان ما أنغمس معه العمر سعيد في حديث آخر، لم يتوقف المقص عن إصدار صوته، أغمضت عيني مسايراً ذلك الخليط من الأصوات الذي تسمعه عادة في صالون الحلاقة، أصوات الحديث والضحك والمقص الذي لا يتوقف عن العمل، كان يبدو لي ذلك كسمفونية متقنة، تُشعرك أن الحياة على ما يرام.

لاحت صورة نوال في مخيلتي، دوماً كُنت أشتاق لعينيها، عندما أكون معها يراودني شعور غريب بالطمأنينة والسكون الذي يبدو سرمدياً، كُنت أعشقها هذا شيء حتمي، كُنت أعرف ذلك جيداً، لكن كُنت أيضاً أحاول أن أنكر ذلك في الوقت نفسه، كُنت أحاول أن أخفي هذه الحقيقة عن نفسي أيضاً، لم أود الاعتراف بذلك لأني كنت أعرف أني إذا اعترفت بذلك، إذا لم أخدع نفسي، سيترتب على ذلك التفكير بما يجب أن أفعله، لم يكن الوضع يحتمل، لم يكن الاعتراف بحب نوال إلا النقطة التي ستتبعها الويلات.

لم أكن أعرف من أين اكتسبت هذه الفكرة بالتحديد؟! لا بد أنها أتت من الروايات التي قرأتها، ينتهي الحب دائماً بمأساة، الفراق الذي يشبه إلى حد ما الموت، يبدو أن مكتبة جدي عثمان جعلت مني ناضجاً أبكر مما يجب، كُنت أحاول أن أخدع الحُب، بعدم الاعتراف بوجوده.

خرجتُ من صالون العمر سعيد حزيناً بعض الشيء، كان يجب علي أن اجتاز سوق المدينة، للوصول إلى متجر (الأخوين) الذي يملكه العمر نُعمان، هُناك كُنت أجد كل ما أحتاجه من بضائع.

***

بينما كُنت أقترب من محل الأخوين الذي كان يقبع في نهاية السوق، كان القيظ في أوجه وبدأت أشعر بالحرارة التي تمتصها أحجار المدينة الطوبية الحمراء.

وصلتُ إلى المحل، لم يكن الحاج نعمان موجوداً، أخذتُ نفساً عميقاً، فلم أكن أرغب في مزيداً من الحديث عن هروب علاء، خصوصاً مع الحاج نُعمان الذي سينهال عليّ بوابل من الأسئلة.

كان الواقف في المحل يوسف الابن الأكبر للعمر نُعمان، كان يوسف صديقاً لي ولعلاء، درسنا معاً إلا أنه أضطر لترك المدرسة للعمل مع والده، وكان حزيناً جداً لأنه أجبر على ذلك، كان يحلم بأن يُصبح مهندساً، توصلنا معاً إلى حيلة تضمن استمراره في الدراسة دون الذهاب إلى المدرسة، تحدثت مع أبي، ليتدخل في الأمر ويتحدث مع مدير المدرسة ليتم تحويل يوسف إلى نظام الدراسة المنزلي، أستطاع يوسف مواصلة الدراسة دون أن يعلم الحاج نُعمان.

طلبتُ من علاء تجهيز الأغراض.

- هل تعرف أين ذهب علاء؟

بادر يوسف بسؤالي.

- لا، لا أعرف.. لا أحد يعرف أين ذهب!

أجبتُ بنبرة جادة.

- لقد فعل الصواب.

أجاب مُغمغماً وكأنه يتمنى فعل الشيء نفسه.

طلبتُ من يوسف تجهيز الأغراض ملحاً عليه أن يتعجل.

أخذت عبوة ماء باردة من الثلاجة، ثم جلستُ أمام المحل، منتظراً تجهيز يوسف للأغراض، ظللت أحدق في البائعة المتجولين الذين ينتظمون على جنبات الساحة الجنوبية للمدينة القديمة، حيث كان يقبع الباب الجنوبي للمدينة الذي لم يعد موجوداً، باب شعوب.

لفت انتباهي عدم وجود إسماعيل الذي يبيع الآيسكريم محلي الصنع للأطفال، تزاحمت ذكريات الطفولة في عقلي، تذكرتُ الماراثون اليومي الذي كُنا نقيمه نحن الأربعة أنا ونوال ويوسف وعلاء، كان يبدأ من بوابة المدرسة التي تبعد عن السوق بحوالي نصف كيلومتر وينتهي عند بائع الآيسكريم إسماعيل.

كُنت دائماً أفوز بهذا السباق فأكون أول الواصلين ثم نوال ثم علاء أو يوسف، لأحصل على الجائزة التي كان يمنحها إسماعيل بطيب خاطر، ليزيد من شدة المنافسة بيننا، كان يستمتع عندما يرى ملامح خيبة الأمل على وجه نوال ويحثها على بذل جهد أكبر للتغلب عليّ، بعد عدة أسابيع اكتشفت نوال أنني أسلك مساراً مختلفاً عن الجميع

لأنني كُنت أختفي ببساطة من أمامها أثناء السباق، فأصبحت تقول بعد محاولات عديدة للتغلب عليّ أني أغش وأنها لن تُشارك في سباق الغد، لكنها كانت تتراجع عن قرارها في اليوم التالي، وتشارك في السباق بغية الانتصار عليّ، كان ذلك هو جل همها، إثبات قدرتها على أن تسبقني، لم أستطع تحمل رؤيتها تبكي في نهاية المطاف، بعد أن دب اليأس فيها فراحت ترجوني أن اعترف لها إن كُنت أغش أم لا.

نجحت حيلتها فأخبرتها أني لم أكن أغش، بل كُنت أختصر المسافة، بالقفز من أحد الأسوار متجاوزاً شارعين، ثم أواصل السباق.

أتت في اليوم التالي وعيناها تشعان عزيمة للتغلب عليّ بعد أن كشفت لها خدعتي، عندما فازت في السباق ذلك اليوم، شعرتُ بندم كبير لإفشاء سري لها، ولم أعد أحصل على الآيسكريم المجاني إلا نادراً بعد أن أخبرت نوال الجميع بحيلتي، لتثبت لهم أن انتصاراتي السابقة لم تكن حقيقية، وأنني كُنت أغش.

أذكر غضبي منها ذلك اليوم، رحتُ أنعتها بأنها خائنة ولا يُمكن ائتمانها على سر من الأسرار، وأزداد غضبي منها عندما رأيت لامبالاتها، ولم نعد نتحدث لفترة، وكُنت أنظر لها بنظرة اشمئزاز وكراهية، كلما وجدتها مع أبي في البيت، شعرت في داخلي أنها فتاة مكارة ومخادعة وشريرة.

قطع نداء يوسف حبل أفكاري «ماجد، أصبحت الأغراض جاهزة».

دخلتُ إلى المحل، لاحظ يوسف شرود ذهني.

- ما الذي يشغل بالك؟

- كُنت أود أن أسألك عن إسماعيل، لماذا لا أراه اليوم في السوق؟

- المسكين، ألم تعرف ما الذي حدث معه؟

أجاب يوسف بنبرة حزينة مطأطئاً رأسه.

- لا لم يُخبرني أحد، ما الذي حدث؟

سألتُ بقلق.

- لقد سقط مغمىً عليه وسط السوق، الثلاثاء الماضي هرع أصدقاؤه لإسعافه إلى المستشفى، فاكتشفوا أنه مصاب بالسرطان، والأدهى من ذلك أنهم اكتشفوا أنه يعرف بمرضه مُنذ شهور لكنه لم يُخبر أحداً بذلك، كان خائفاً على مصير عائلته إن ظل بالبيت، ولم يكن يملك تكاليف العلاج، فآثر أن يعمل دون أن يخبر أحداً حتى زوجته.

عندما عرفنا بذلك قمنا بتدشين حملة لجمع التبرعات، لم يتأخر أحد عن المشاركة حتى أبي الذي لا يَخطر ببال أحد أنه سيخرج ريالاً واحداً من جيبه، ساهم في هذه الحملة، ولقد جمعنا مبلغ جيداً إلى حد الآن، ثلاثة ملايين، تصور لم أكن أتوقع أن مبلغاً كبيراً مثل هذا سيجمع، لكن كما تعلم الجميع يحب إسماعيل، إن عدم وجوده في السوق بابتسامته الطيبة، يجعلني أشعر بنقص شيء ضروري ليستمر العمل في السوق، يمكن لأني أعتدتُ على وجوده.

شعرتُ بالأسى من أجل إسماعيل، ونظرتُ إلى حيث كان يقف في السوق بحنين لم أستطيع إخفاءه.

«لماذا لم تُخبرني؟ كُنت سأسهم بجمع التبرعات من جهتي، من تُجار السوق الشمالي» قلتُ معاتباً وقد انتابني شعور بالتقصير.

- لم أرك مُنذ أسبوعين، كيف لي أن أخبرك؟

أجاب يوسف.

- كُنت ستستخدم الهاتف، ليس شيئاً صعباً أن تضع السماعة في أذنك وتتصل.

أجبتُ غاضباً وأنا أشير إلى الهاتف الذي كان على المنضدة.

- حسناً لم يخطر ذلك ببالي كما أنني لم أكن أعرف أنك تهتم بأمر إسماعيل إلى تلك الدرجة.

قال يوسف بنبرة غير مبالية، وهو يُعيد بعض الأشياء إلى مكانها.

- سوف أقوم بزيارته غداً، هل ستأتي معي؟

قلتُ منزعجاً.

- أنت تعرف الإجابة، لا أستطيع الخروج من هذا المحل.

أجاب يوسف.

- أعرف، أعرف، في أي مستشفى يمكث الآن؟

سألتُ باقتضاب لأني كُنت أود الرحيل.

- المستشفى العام.

أجاب يوسف وقد شعر برغبتي في الذهاب.

- حسناً، يجب أن أذهب الآن، هل سيأتي سيف معي؟

سألت مستفسراً.

- نعم، بالطبع لا أعتقد أنك ستستطيع حمل الأغراض لوحدك، يا صاحب الجسم الهزيل.

أجاب يوسف ساخراً.

ثم نادى سيف ليأتي معي، أخذتُ ما استطعتُ من الأغراض، وأخذ سيف البقية.

قال يوسف قبل أن أغادر:

- لا تنسى أن تزورني في أقرب فرصة.

قلتُ وأنا أحمل الأغراض الثقيلة:

- سأفعل، إن أتت تلك الفرصة.

***

مضيتُ متوجهاً إلى نوال، يتبعني سيف الأخ الأصغر ليوسف، ذلك الفتى الصموت الذي لا يمكنك معرفة ما يدور بخلده، يبدو شارد الذهن هائماً في عالم آخر، أدرك والده أن الحالة التي هو فيها ليست طبيعية عندما بلغ الخامسة، فذهب به إلى الطبيب يحيى ذلك الرجل العجوز الذي يبدو كهيكل عظمي ولا يكف عن تدخين السجائر، في عيادته المرفقة بحديقة منزله.

ظل الطبيب يُحدق في عينيّ سيف بصمت، ثم قام بإجراء بعض الفحوصات التشخيصية، كان ذلك يبدو لي كمحاولة من الطبيب لتنويم سيف مغناطيسياً.

عاد الطبيب إلى مقعده خلف المكتب بعد أن أنهى الفحوصات، قائلاً

بهدوء بعد أن أشعل سيجارة ونفث دخانها:
«حاج نُعمان، يبدو أن ولدك مُصاب بمرض التوحد».
لم يكن الحاج نُعمان يعرف ما هو هذا المرض الذي يُطلق عليه التوحد، لكنه عندما سمع الطبيب يحي يقول إن سيف مصاب بمرض، ظن أن ابنه الصغير سوف يموت قريباً، وظل يرجو الدكتور أن يجد حلاً يحول دون موت سيف، وذكر أن له أخاً كان مُصاباً بهذا المرض، كان يلقي بنفسه إذ رأى برك الماء فمات غرقاً في سد القرية، حاول الطبيب أن يهدئ من روعه ما أستطاع، وظل يشرح له أن ما من مرض يجعل الإنسان يلقي بنفسه من أي حافة.
تظاهر العم نُعمان بتصديق الطبيب، الذي وصف لسيف مجموعة من الأدوية. عندما عاد الحاج نُعمان لم يُفارق وجهه ذلك الشحوب والخوف، فألزم سيف بالمكوث في المحل التجاري، ولم يسمح له بالخروج مُنذ ذلك اليوم، فلم يرتد سيف المدرسة ولم يكن يرى أشعة الشمس، لم يُبدي سيف الصموت اعتراضا، لأن الاعتراض لم يكن يجد سبيلاً إلى ملامح وجهه، كان يفعل كل ما يؤمر به بصمت وإخلاص ماكثاً في إحدى زوايا المحل المظلمة، يُحدق في الظلام، فأصبحت عظامه هشة لأنه لم يكن يتعرض لأشعة الشمس حتى كاد أن يموت، فعاد به الحاج نُعمان إلى الطبيب الذي أخبره بوجوب خروج سيف من المحل ليتعرض لأشعة الشمس وإلا سيموت، ووصف له مزيداً من الأدوية.
لم يجد الحاج نُعمان مخرجاً هذه المرة فكلا الأمرين كان سيؤدي بابنه الصغير إلى الموت، لذلك سمح بعد تردد بخروج سيف من المحل لحمل الأغراض، وظل يشدد على كل زبائنه الذي يحمل لهم سيف الأغراض الانتباه بحرص لسيف، شارحاً مأساة موت أخيه الذي أصابه المرض نفسه - المرض الذي يجعل الإنسان يلقي بنفسه من على أي حافة - بحزن بالغ.
لم أسمع صوت سيف مُنذ عرفته، في البداية كُنت أحاول دفعة إلى الكلام لكنه لم يكن يبدي أي رد فعل لمحاولتي اليائسة، فاستسلمت للأمر الواقع، وتركتُ فضولي المعروف عني بالاهتمام بكل ما هو غريب وليس مفهوم، وتقبلتُ سيف على حاله، بل إني تعلقت به فيما بعد.
بينما كُنت شارد الذهن أفكر بنوال وباحتمال مُقابلتي للعم خليل، لم يغب سيف عن ناظري، فقد اكتسبت ذلك الخوف من حقيقة المرض الذي سيؤدي به إلى إلقاء نفسه، من شدة اقتناع الحاج نُعمان وقدرته على الإقناع، رغم أني في ذلك الوقت كنت أنفي بشدة وجود هذا المرض، بعد أن قرأت في معجم الأمراض عن مرض التوحد، إلا أنني لم أستطيع التخلص من توجسي ذاك الذي نما على مر السنين.
عندما وصلتُ إلى بيت العمة حياة، ظللتُ عدة دقائق أنتظر أمام الباب، كُنت خائفاً وأصابني شيء من التردد، فحاولتُ أن أخترع حيلة أنفذ من خلالها إذا ما كان الذي سيفتح لي الباب هو العم خليل.
«لقد أرسل الحاج نُعمان هذه الأغراض، وطلب مني أن أرسلها إليك».
كان ذلك كافياً بالنسبة لي للنفاذ من غضب العم خليل إذا ما علم أن من أرسل الأغراض هو والدي.
طرقتُ الباب مستجمعاً شجاعتي، لم يكن هناك مجال للتراجع آنذاك، طرقت الباب مرة أخرى، سمعت صوت خطىً تقترب من الباب، كان واضحاً أن القادم هي نوال.
«من هُناك؟».
سمعت صوت مرتعداً يبدو كصوت نوال.
«إنه أنا يا نوال، ماجد».
أجبتُ بصوت خافت بعض الشيء، خوفاً من أن يسمعني العم خليل إن كان في البيت. فتحت لي نوال الباب، لم أرها بذلك الشحوب والضعف من قبل، بدت لي كإنسان نجا من حافة الموت لتوه.
كان وجهها مصفراً، وعيناها محمرتان تكبتان سيلاً من الدموع الجارفة، شفتاها مسودتان عافهما الاحمرار الوردي الطبيعي الذي أعتدت أن أراهما عليه، يداها ترتعشان.
تركتُ الأغراض أرضاً، وقد سرت قشعريرة في جسدي، وأرتعد جسدي خوفاً، لم تكن تلك نوال التي أعرفها، كان طيفا متعباً، جسد متهالك طُعنت روحه بألف خنجر في آن واحد.
«ماذا حدث يا نوال؟» سألتُ بقلق بالغ.
لم تستطع أن تُحرك شفتيها لتجيب، رمقتني بنظرة متسائلة تبحث عن تفسير.. شعرتُ أن طارئاً حدث، لم تجد له نوال نفسها تفسيراً، نوال التي تتقبل كل مأساة كجزء لا يتجزأ من حقيقة الحياة.
لكن ذلك المنطق لم يُسعفها هذه المرة ركضتُ للداخل، كان الأولاد متكورين حول بعضهم البعض، يبكون بكاء الطفل الخائف، الذي تشعر قلوبهم الغضة أن هُناك شيئاً مخيفاً على وشك الحدوث أو أنه قد حدث فعلاً، دخلتُ إلى البيت، راودني شعور أن خطباً ما قد مس العمة حياة أو العم خليل، وقبل أن يُحسم الجدل الذي في داخلي حول إن كانت العمة حياة أم العم خليل من أصابه مكروه، رأيت جسد العمة حياة مُعلقاً في الهواء بحبل رُبط إلى أحد الأوتاد الخشبية التي تتحمل بعناء بالغ سقف المنزل القديم ليكون عقدة محكمة حول رقبتها.
لم أستطيع المكوث كثيراً، هالني المنظر، عدت أدراجي إلى نوال، كنتُ مضطرا لضمها شعرت أنها بحاجة إلى ذلك كما كُنت أنا أيضاً، ارتمت نوال في حضني دون أن تبدي أي مقاومة، لم يفكر كلانا بالحدود التي وضعت لمنع حدوث هذا، شاب وشابة مُنهكين يضمان بعضهما البعض، شعرتُ حينها بنبضات قلبها المتوتر وبحرارة دموعها التي كانت تتدفق كسيل جارف حبس لمدة طويلة، بزفراتها الحارة تشكو العناء بصمت.
بدت لي تلك اللحظة سرمدية مكتملة، لم يكن علينا تفسيرها، لا بد أنها حقيقية، شعرتُ حينها أنني لن أتخلى عن نوال مهما كان، فكلانا خُلق للآخر، ظللتُ عالقاً في تلك اللحظة السرمدية بعد أن أتى أبي، والمباحث الجنائية، كان هُناك ضجيج ولغط، احتشد جمع كبير من

سُكان الحي كأنما هناك عرض ترفيهي يُقام داخل البيت، كان الانتحار حادثاً نادراً يتناقض مع ما يعرفه سُكان الحي عن طبيعة الحياة نفسها.
سرعان ما انتهت الجنازة وطمرت العمة حياة تحت طين وتراب المدينة، متوارية خلف أستار الحلم الوردي للسعادة الخداعة.
لم تمض أيام طويلة حتى سمعتُ خبر وفاة إسماعيل بائع المُثلجات في المُستشفى دون أن يتسنى لي الوقت لتوديعه، لأن أشكر لهُ ذكريات الطفولة السعيدة التي وهبها لنا عن طيب خاطر.
في وطن الشقاء لم يكن علاء ليصبح لاعب كرة مُحترفاً حتى وإن كان موهوباً، وكان إقناع نفسه بوهم انحراف سواد إحدى عينيه قد اختصر عليه كثيراً من العناء، ولم تتحقق نبوءة والدي عن نوال التي ربما لو كُنا في وطن آخر لصارت كاتبة روائية وأديبة عظيمة.
ولم تكن اللحظات التي جمعتنا كعاشقين يضم كُل واحد منا الآخر في حضنه سرمدية أو أبدية سوى في مُخيلتي، ففي وطن الشقاء لابد أن تتحمل الفتاة العناء بصمت، وتتزوج من إنسان لا تكاد تعرفه، ربما لتنتشل عائلتها من براثن الفقر كما حدث مع نوال التي تزوجت من مُهندس يكبرها عمراً بعشر سنوات يعمل في الغربة براتب مُجز.
ولم يكن لشاب عاشق في عُمري أن يتزوج بالفتاة التي أترع قلبه غراماً بها، ليحمل أشلاء قلبه المُحطم لبقية حياته.
ففي وطن الشقاء، يُهدم الأشقياء كُل ما يمت للحب بصلة، فالحب مُجرد فكرة خيالية منبوذة من الجميع، والكره هو الحقيقة الواقعية الوحيدة التي يجيد أولئك الأشقياء في تراجيديا ساخرة تكريسها فيما بينهم، حتى يكاد يكون مذهباً نحبذ اعتناقه، وإن كنا دوماً ننكر ذلك بأقوالنا، إلا أن ما نفعله دوماً ما كان يثبت العكس.
في اليوم الذي طمرنا فيه جُثمان العمة الحياة، في قلب هذه المدينة الجميلة التي امتصت رحيق أحلامها بحياة أفضل دون أدنى رحمة، كان الجو بائساً ينذر بالشؤم.. غيوم سوداء تجمعت في سماء المدينة لتلقي شذرات مُتفرقة من المطر، تبدو لوهلة كدموع سماوية.
تبادر إلى ذهني سؤال في اللحظات الأخيرة التي رأيتُ فيها الجُثمان الملفوف بالأقمشة البيضاء يتوارى في تلك الهوة المُظلمة.. لماذا تنتهي الأحلام في
وطني بمأساة؟!

صلاح الهبوب.

حقيبة مجلدات سوداء

بدت الشمس نصف حمراء في سماء البلدة العتيقة، بلدة مسورة ترقد على هضبة مرتفعة، من حولها تنتشر المزارع والحقول، يخترقها نهر ويفصلها
ارتفاعها المهيب عما سواها.
أُعلن أن الحاكم أرسل مجموعة من فُرسانه المهرة للعثور على الجزء المفقود من الشمس، ذهبوا برماحهم اللامعة وخيولهم المذهبة في تتبع أثر النور الذي يُعتقد أنه هوى في الجرف السحيق من المكان.
في الجانب المشمس من البلدة أمر الحاكم باجتماع السكان، رجالاً نساءً أطفالاً عجائزَ، قعدوا جميعاً في ميدان البلدة.
المكان ممل، ورياح باردة تهب عليه، وجوه الرجال مجعدة أسفل عمائم حمراء بالية، وأعينهم تبرق من خلف تغضن الحدقات، تلتف النساء بثياب سوداء على أجسادهن، يطبقن بطرف أفواههن على الأردية الملونة، يمضغ الأطفال جانباً من أياديهم، التي يتشاركها الذباب.
تأخر الحاكم في المجيء؛ فهو دائم النسيان وكثير النوم، معظم الخطوب التي تحدث يكون فيها نائماً أو في خلوات راحته، ولا يتجرأ أحد على الحديث معه عن مشاكل البلدة، وقد أصدر مرسوماً سابقاً يُجرم إنباءه بخبر جاد في أوقات نومه، ولحظات راحته؛ إذ درج على مناصفة ساعات يومه بين الراحة والنوم! يكسر هذا النظام أحياناً حين يجد في قلبه شهية لسماع الهتافات،فيحمله أربعة رجال ضخام على عرشه ويتجولون به بين الناس، يبدو من عليه رجلاً قصير القامة متكوم الجسد، أكل الصلع مقدمته، وشنبه كثيف وبارز بشعيرات مستقيمة، يتدلى بطنه بما يوازي طوله إلى الأمام، وتلك مشكلة كبيرة يعرفها كل من يحيط به من الأتباع.
مرّ بهم على غير عادته.. لم يخاطب المجتمعين إلا أنه رمقهم بنظرات جامدة ومنهكة، استجابوا لها بالبكاء على حاله في هذا اليوم الصعب؛ فذهبوا يُحيونه ويهتفون باسمه، ويلهجون له بالصلوات لإعانته على إعادة النصف المفقود من الشمس، لتلتئم الحياة من جديد، ويشع الضوء في النصف الآخر من البلدة، ليستطيعوا الخروج إلى مزارعهم في الضواحي المتاخمة.
وحدهم الكتاب والنساخ يعرفون ما حدث للشمس، لكنهم لا يعلمون ما يحدث خارج الأسوار التي احتجزوا داخلها قبل سنوات بمهمة مقدسة، يكتبون وينسخون الكتب، ويرسلونها إلى السكان مع بريد الحاكم الليلي الذي يأتي بحاجياتهم اليومية، لكنها لا تصل إلى القراء، بل يتم دفنها في أماكن مختلفة من البيوت والميادين والقصور!
عاد السكان إلى بيوتهم وقد أنساهم وضع الحاكم وضعهم في هذه البلدة، أمر الجنود الذين ذهبوا للمهمة الكبيرة، استيقظوا فجراً وقد عادت الشمس، هتفوا جميعهم للحاكم وشكروه على جهده الذي قام به خلال نومهم وراحتهم.
ذهبوا نحو مزارعهم خارج البلدة، تفاجئوا بوجود كائنات غريبة في مداخل أبواب البلدة وعلى أطراف المزارع، لهم سحنة الخفافيش، وأشكال البشر، شعورهم متعرجة كالمشردين، يرتدون قمصاناً بيضاء ملطخة، تنحسر مثنية إلى الركبة، وخناجر يضعونها في منتصف أجسادهم، يتوكئون على رماح حادة، فزع منهم الفلاحون وعادوا إلى مداخل البلدة يستغيثون بالحراس فلم يستجب لهم أحد، ثم تجمعوا أمام قصر الحاكم، انتظروا طويلاً، فلم يطل عليهم من شرفته التي تعود الظهور منها. مكثوا بين حيرة وخوف ورجاء، لكنه قابلهم بالتجاهل على الرغم من أنهم يدفعون له كل موسم نصف محاصيل حقولهم، ويدفعون أجور حراسته، ويصلحون الشوارع بأيديهم، ويعملون على ترميم قصره، فهو المتضرر الأكبر من اجتياح مزارعهم.
شاع بين الفلاحين وسكان البلدة أن الغرباء هم من أسقطوا النصف الآخر من الشمس، وهبطوا بمركبة ضخمة لسرقته، وفي طريق عودتهم إلى السماء، دمر الفرسان مركبتهم، وعلقوا هنا؛ فمنحهم الحاكم الأمان للعيش خارج أسوار البلدة، شرط عدم التفكير بدخولها أو المساس بأملاك الآخرين، والعمل كخدام لهم في المزارع ومهن أخرى، فهم يتصرفون بناءً على هذا الاتفاق حتى يُقضى في أمرهم.
عمل هؤلاء السماويون على ضوء المشاعل ليلاً في المزارع، يرممون السواقي المتفرعة من النهر الكبير نحو المزارع والحقول الممتدة، يحصدون المحاصيل ثم يقومون بجمعها في سلال، وفي الصباح يقف لهم الفلاحون بانبهار ويغدقون عليهم بما تنتجه الأراضي.
تكاثروا حتى غطى سوادهم الحقول الخضراء المجاورة، وتلونت الأرض والجبال المحيطة بلون الحداد، نصبوا خياماً عديدة على مداخل البلدة، وشرعوا في استقبال الملتحقين بهم على أغاني الحرب ورقصات الثعابين نهاراً، والانتظام على التحدث بكلمات غير مفهومة ليلاً.
امتد عمل الغرباء إلى تفاصيل بعيدة تماماً، فقد صاروا يوقفون الفلاحين في طوابير طويلة للتفتيش وحصر أسمائهم وممتلكاتهم من أجل استلام حصص من منتجات مزارعهم، ثم تطور الأمر بالامتناع عن العمل في المزارع وعدم حصد المحاصيل، وعدم الالتزام بتسليم الكمية المستحقة للملاك، ونحر مواشيهم ليلاً، حتى تضاءلت محاصيلهم، وقل ما يمتلكون من الحيوانات، ونفقت المزيد منها.
استشعرت كل المخلوقات الخطر عدا حاكم البلدة! غادرت الحيوانات المراعي وطارت الطيور بعيداً عن أعشاشها، فرت الثعالب من مخابئها،

وخرجت كائنات جوف الأرض من بين التراب، حلقت غيمة دخانية في السماء، اكفهرت الأشجار والنباتات، تشققت الأسوار، وثقبت سطوح المنازل.
نسي الجميع أن هؤلاء أتوا منذ زمن قصير، لم يطالبهم أحد بالرحيل من المكان، وحين اشتدت معاناة الداخلين والخارجين، أرسلوا من يحمل إليهم مطالب باحترام الطريق، والإسراع بتفتيش الأمتعة دون احتجازها لأوقات طويلة، وخفض الضجيج قليلاً، والابتعاد باستحداثاتهم التي أطبقت على رئة البلدة وتمددت على الأرض ومنعت أهلها من زراعتها؛ لكن الطلب الأخير لم يكن مهماً فقد كان متروكاً لكرم الغرباء وتحت تفضلهم.
تحرج الرجل الذي انتدبه الفلاحون للتحدث مع الغرباء بالطلب الأخير، تردد كثيراً، ثم تدارك الأمر خوفاً على مركزه كمفاوض موثوق، يفهم من خبرته الطويلة أنه يتعامل مع أشرار، غير معتقدٍ بالشائعة التي يؤمن بها الفلاحين، وقد فهم أنهم لو كانوا طيبين ومسالمين، اضطرهم سبباً قاهر للبقاء، لما قاموا بممارسة الطقوس المضجرة للأهالي، ولاحتفظوا بالسلوك الجيد، لذا تجاهل الغرباء المطالب، وعدوا وجودهم هذا ضماناً لحماية المزارعين وأراضيهم من الخراب، كشر كبيرهم عن أنيابه، كون الأمر يتعلق بالكرامة، وبأمر منه استعرض أتباعه سهامهم وحرابهم، انسحب المفاوض وعاد إلى الفلاحين بالخبر السيئ!
أغلق السماويون مداخل البلدة أمام الخارجين والداخلين، وانتظموا بأسلحتهم في صفوف طويلة، أطل عليهم كبيرهم من بعيد يتقدم مجموعة منهم، شق في طريقه صفاً طويلاً بينهم، تسبقه بطنه البارزة التي تتقدم نحو الأمام، يحمل حقيبة جلدية رثة في يده، تذهب إلى الخلف وتعود في تناوب حركي بينهما.. مطوقاً بحزام أصفر عريض، يهتز برأسه المقعر المغطى بشعر أسود كثيف من الخلف، وكأنه يحثه على التراجع إلى الوراء.
صعد ربوة صغيرة من جانبها، وحين بدا للجميع ..أرسل فوراً قهقهة عالية نحو السماء، بدت مخيفة وغامضة كرياح الصحراء، أخرج من الحقيبة مجلدات سوداء، نفض من عليها الغبار ثم لوح بها عالياً.. وبدأ صراخاً مرتفعاً: ورثتها أباً عن جدٍ حسب نظام كوننا السماوي البعيد.
ثم شرع يقرأ منها عليهم وقد جثوا على أقدامهم بإنصات تام، يأتيهم صوته من خلف مسافة ألف عام حسب زمن البلدة، وسبعين عامٍ حسب زمن عالمهم السابق، تراكمت كلماته حتى غطت الأفق، فبدأت تقطر على هيئة أصباغ سوداء برائحة كريهة.
وما زالوا يتمتمون بها ويرددون خلفه حتى كونت مجرى واسعاً من الأصباغ السوداء.. شقت طريقها مختلطة بمياه النهر عبر بطون الأودية المسحوقة بفعل أقدامهم، وصلت روائحها إلى مدى واسع.. حولت ملامح كل البشر الذين مستهم، أو وصلتهم رائحتها إلى بشر بسحنة الخفافيش.
تتابع الكبير بالصعود إلى الربوة صباحاً ومساءً، يقرأ عليهم من الكتب التي ورثها في كونه السماوي، يتركهم منتصف الليل يتدربون ويرمون رماحهم على مشاعل النار التي وضعوها في أماكن مختلفة من المكان، وقبيل الفجر يخرجون بشكل عشوائي يدوسون على المزارع ويأكلون من ثمارها، ثم يعودون ويستلقون على صعيد المكان حتى شروق الشمس.
استمر الحصار المفروض على البلدة، وقد ضاق به الناس، بعث الكبير مجموعة من جنوده المخلصين نحو البلدة، ينثرون الأصباغ السوداء في كل مكان، ويدسون كميات منها في الأسواق والمعابد، وكم كان مفعوله فورياً على الناس! كل من وقعت عليه الأصباغ مباشرة في أذنه أصيب بالصمم، ومن وقعت في عينيه أصيب بالعمى! ومن استنشق رائحتها أو غمرت جسده خرج يطلب الالتحاق بهم؛ ولا يعود إلا وقد قرأ مجلداً كاملاً حاملاً نسخاً عديدة منه.
سالت الكلمات في البلدة حتى غرقت بها، وطافت في الأسواق، مات الكثير ممن أصابهم الصمم، وهاج الجوعى- وهم بعض ممن أصابهم العمى- أكلوا ما تبقى من النظام العام الذي تفتت، وداسوا على ملامح ما تبقى من الحياة!
وقف الكبير الهابط من السماء على تلة تشرف على البلدة، وقد كانت توقد فيها النيران فيما مضى في الاحتفالات العظيمة، غرس رمحه في الأرض وأعطى سيفه لحارسه ووضع بين قدميه حقيبة مجلداته السوداء، شرع يصفق بيديه، صدر عنهما صوت مدوي ومزعج أجفلت منه الحمام والضباع والنسور حول البلدة؛ ووصلت إلى آذان السكان، لكنها لم تستطع إيقاظهم مما بهم من موات.
بدت الأوضاع في البلدة على غير عادتها، صارت الأرض زلقة جداً، الناس نائمون في البيوت، ومطر خفيف تتناثر حباته على منازل البلدة الطينية، أضواء المشاعل منكفئة عدا مشاعل الزيت في دروب بعض الأحياء، تصدر ضوءً خفيفاً على الأرصفة الحجرية، الأطفال يتململون في مراقدهم، رياح كانون المشبعة بالبرودة تتسرب من بين ثنايا جدران البيوت، وإيقاعات مملة لقطرات المطر المتسربة من ثقوب السطوح، تقع على مناطق متفرقة من أجساد الغافلين، المشردون ينثنون على أنفسهم خلف القش المبلل إلى درفات الأبواب في السماسر، والأمعاء تزقزق في البطون، نكست أشجار الرمان رؤوسها، وسقطت قناديل العنب وتبعثرت حباتها على الأرض. وفي داخل معازل الكتاب والنساخ، كانت جلود الكتابة قد تعرضت للمطر، سال حبرها ملوناً في قناة المكان الوحيدة على شكل أطياف حمراء وخضراء وسوداء، تتفرع في قنوات صغيرة أمام مرأى من الأضواء الخافتة، فيما المكنات الناتئة من البيوت والتي يختلون أسفلها على مصطبات حجرية للكتابة والنسخ قد تناثرت وسقطت

عليها، هجر الحراس أماكنهم ونوباتهم في مداخل البلدة الستة، خلفوا مواقد تتسرب إليها المياه الباردة، فيتصاعد منها أدخنة مرئية وأخرى غير مرئية، قصر حاكم البلدة منارٌ بالمشاعل الزيتية، على أسواره الخارجية وأبراجه العالية التي يتصاعد منها لهب المدافئ.
انحدر الكبير ممسكاً بحقيبته التي لا تفارقه ومن خلفه أتباعه، في صفوف متماسكة، بعضهم خلف بعض.. اجتاحوا البلدة من أبوابها الستة، ومن بابها الأهم دخل، يتقدم بخطوات ثقيلة ومتعالية، على رأسه رداء قماشي ليقيه عناء المطر الخفيف، وأردية أخرى وضعت على المشاعل الزيتية.
اختفى الجند في المداخل، تلاشى الفرسان الذين كانت تغص بهم الباحات، حتى هؤلاء الشجعان ذووا الرماح الذهبية الذين أعادوا النصف المسروق من الشمس لم يعد لهم وجود، ولم يعترضهم أحد.
وحين استقروا في وسط البلدة أمر الكبير بالقرع على الطبول، والرقص، والهتاف باسمه، لم يكد يمضي وقت قصير حتى كان كل سكان البلدة خلف النوافذ والأبواب ينظرون البشر ذوي السحنات الخفاشية،كأن الجن قد هاجوا في البلدة واحتلوها، حتى تبين الفلاحون أمر القادمين.
جُمع السكان في ميدان كبير، حتى أطلت الشمس كسلة بشعاعها الأول، تخترق الوجوه المرتجفة، والأطفال بعيونهم الملونة، ووجوههم الفاتحة الملطخة بطين البيوت، بشعورهم وملابسهم المبللة.
وحين انتصفت الشمس أقبل عليهم الكبير وطمأنهم أنه لم يكن ينوي دخول البلدة، لكنه-كما يعرف الجميع- قد تحطمت مركبتهم المعجزة ، وعجزوا عن العودة إلى هناك، ولحسن حظهم الجميل، أن حقيبته التي وجد بها كتبه التي توارثها عن أجداده السماويين على مدى عشرة قرون هي في يده.. وتلك إشارة خفية لإقامة عدل سماوي لا يستثني أحد!
خلال هذا التوقيت كانت كميات من الأصباغ السوداء تتدفق بعنفوان على الجنبات، إذ أقبل الأتباع السماويون من مناطق البلدة المختلفة، يحملون غنائمهم التي أخذوها من الأسواق والسماسر والبيوت، مدوا أردية قماشية، إحداهن للذهب والأخرى للعملات النقدية، وثالثة للمقتنيات، احتفظوا بالأشياء الثمينة، حملوا عصياً على رؤوسها خراطيم حجرية ومضوا يحطمون تماثيل الملوك والملكات ورموز الآلهة القديمة ووعولاً برونزية، وملكات حجرية قبل طوافهم بالمعابد وتحطيمهم لكل شيء فيها.
جاء حراس القصر بحاكمهم السابق،يحملونه على عرشه المذهب، وألقوه أمام الكبير، انكسر جسمه إلى نصفين، تمزق رأسه إلى جزء، وبطنه المتقدمة إلى جزء آخر، أشار إليه الكبير بعد أن فتت ما تبقى من رأسه بغمد سيفه:
- هذا من كان يحكمكم ،حاكم بشع مصنوع من قمح حقولكم!
سرت في أرواحهم الصدمة التي تسبق الإذعان الكامل! وفي الجهة الأخرى من البلدة حيث معازل الكتاب والنساخ، لم يتغير الوضع مع فارق بسيط، يتمثل فقط في الأمر بالتوقف عن الكتابة ونسخ الكتب السابقة والتحول إلى نسخ المجلدات السوداء فقط، وإرسالها مع البريد اليومي إلى السكان.
أمر الكبير جنوده بإخراج السكان من بيوتهم ومحال أقامتهم إلى خيام نصبت في الشوارع والميادين، ثم مضى ينتقي لأتباعه ومساعديه المنازل الجميلة التي تحوي حدائق الكروم الفسيحة، واختار لنفسه قصر حاكم المدينة مقراً لإقامته، ثم سمح لذوي البيوت الصغيرة بالعودة إلى مساكنهم.
عمل الكبير على بناء دوريات حجرية، يجرها مجموعة من البشر، تجوب البلدة وتراقب السكان، ثم أرسل مجموعة من أتباعه الأرضيين إلى المحاجر، لاقتطاع حجارة كبيرة، ونقلها إلى وسط البلدة، دعم قصره بالحجارة، واقتطع له مسافات أخرى للحماية من المنازل المحيطة التي دمرها بالحيلة، وحفر مدافن حجرية ضخمة لخزن الغلال، وحفظ سبائك الذهب التي ضمها من غنائم القصر.
عمل أبناء البلدة على الاحتجاج يومياً وذلك كمحاولة للعودة إلى بيوتهم، ومازالوا على هذا الحال في احتجاجاتهم، ينامون في الشوارع والطرقات، ويعيقون الآخرين، ثم ابتدعوا أسلوب احتجاج آخر.. يشعلون ضجيجاً ليلياً على هيئة أصوات الدجاج ونباح الكلاب، لكن أتباع الكبير السماويين، لم يقبلوا بإزعاج أبناء البلدة لهم، خرجوا لفرض قوتهم، يطاردونهم بالأسلحة، نجح أبناء البلدة بالهرب والتملص من أمامهم لخبرتهم الكبيرة بأزقتها، غير أنهم استدرجوا في وقت لاحق إلى وسط البلدة, رُشت عليهم الأصباغ السوداء حتى تبللوا بها؛ فخبا ما تبقى فيهم من روح مقاومة، وسلموا بالطاعة الكاملة!
أرسل الكبير بعضاً من مساعديه إلى مناطق بعيدة، عادوا بالمزيد منهم، ومن ضمنهم نساء وأطفال، حتى امتلأت منازل البلدة بالقادمين، ضاع السكان أمام الطوفان البشري القادم، اتلفوا معها المزارع، فأصبح أبناء البلدة بلا مصدر للبقاء؛ فأصيب بعضهم بالمرض، والبعض مات بالجوع ومن تبقى منهم- وهم أصحاب المنازل البسيطة - من الأتباع الأرضيين للكبير. ومع تواصل الأمطار الكثيفة وجنوحها نحو العواصف اندثر سور البلدة الطيني كاملاً، وجرفت بقاياه السيول نحو جرف الهضبة السحيق، فخرج المشردون والجوعى من أبناء البلدة يبحثون عن الطعام، يأكلون الأعشاب والنباتات من أطراف مزارعهم السابقة.
شكل الكبير فرقة من السماويين لحفظ النظام داخل البلدة ومكافحة المتسولين والمتشردين، وما فتئوا يأخذونهم إلى السجون والمحتجزات،

ثم اكتشفوا أن ذلك يكلفهم وجبة واحدة في اليوم، أخرجوهم وابتدعوا عقاباً جديداً، يضربونهم بالسياط كلما رأوهم يمدون أيديهم أو ينامون في الشوارع، مما اضطرهم إلى المبيت خلف المناطق المهدمة من السور وخلف ركام الطين العالي، وفي قلب الحفر التي تركتها السيول بعد انحسارها وتوقفها! تمزقوا في الجبال والتباب والشعاب إلى أن أصدر الكبير مرسوماً بإعادتهم وبناء خيام جديدة لهم في وسط البلدة، وبعث لهم مجموعة تعلمهم المجلدات السوداء وتقرأ عليهم منها، حتى غدوا مطيعين وأتباعاً مخلصين للكبير، تغير فهمهم، فضنك العيش صار تضحية عظيمة، وواجب مقدس في إعلاء شأن الكبير، وما زالوا يتدربون على حمل السيوف والرمي بالرماح، حتى وجدوا أنفسهم وقد تحولوا إلى محاربين أشداء متأهبين للقتال.

سن الكبير بعض الإصلاحات في البلدة، لضم الموارد إلى خزينة القصر، كوّن فرقة مدربة من (النباشين) قوامها من السماويين الذين يمتلكون عيون الصقور وأنوف الكلاب! كلفهم بالبحث عن المعادن النفيسة، حفروا مناجم عميقة في قلب البلدة وفي محيطها، وثقبوا الجبال العالية، ودمروا كل المواقع، ففاضت خزائن القصر بالذهب والفضة، وعمل على استصلاح أراضي الفلاحين وضمها إلى ملكيته وجعل بعضهم عليها مقابل مقدار معين من الغلال، يأتون به في كل موسم، وفي تلك المواسم شحيحة الأمطار التي يقل فيها منسوب النهر يتوجب عليهم تسليم خزينته مقداراً سنوياً من الغلال بما يساوي قيمته ذهباً وفضة، وتعويضه بالعمل تحت خدمته في نحت مخازن صخرية، ذلك جعلهم يتركون الأراضي ويصبحوا محاربين تحت أمرته!
أخذ الكبير عربة حجرية في جولة في البلدة، يجرها بعض من الفلاحين الأشداء الذي اختارهم بمقاييس غامضة! اخترق الطرقات مطوقاً بجنوده السماويين، استقبله الرجال بالسيوف والحراب والهتافات، والنساء والأطفال بالسكاكين والعصي الغليظة، وقد تصبغت أجسادهم بالأسود، وتطاير الشر من عيونهم بهالات غير مرئية! لوّح الكبير لهم بيده معجباً ومتباهياً، تعلوه ابتسامة عريضة تكاد تشق وجهه إلى نصفين! ثم عرج على معزل النساخ، فتح الباب على مصراعيه، كانت الأماكن خالية، فئران ملونة تقرض المجلدات المنسوخة، وعناكب - ذات مخالب حمراء وأنيابٍ بنية غامقة – أغلقت الأبواب والنوافذ والردهات، وفي طريق عودته الخائبة إلى القصر، كان جميع السكان قد انفضوا.. فظهرت البلدة على حقيقتها، دكاكينها مغلقة،سماسرها خالية من الحرفيين، وأسواقها يعمها الخواء بعد أن انعدمت كل الأشياء التي كانت تتداول فيها.
هنا قرر الكبير الاحتفال وتنصيب نفسه حاكماً، في يوم تطهير البلدة -كما سماه في الساحة الجديدة - هبَّ أتباعه الأرضيون بأسلحتهم، وامتلأت الساحة وغصت بالبؤساء، فطفق يقرأ عليهم بخشوع وترٍ من مجلداته القديمة، وتاريخ الرماح الأزلي، يذكرهم بنقاء دمه الخالص المطعم بالنور، ويعدهم بحياة أخرى أكثر عزة وتمكيناً وإعجازاً .
رفعوا شعاراته التي مافتئ يرددها على الدوام من مجلداته المقدسة، تحمسوا لما وعدهم به فقاموا بكتابتها بالدم على أجسادهم وعلى الجدران المتهرئة، ومضى يصرخ فيهم من مكانه العال:
- العالم موارب.. الحياة سوف تلين بأقدامكم.. خربوا المعنى.. أيقظوا سبات الشر.. امتطوا أقدامه الأربعة.. اقلعوا الأشجار واصنعوا منها صناديق للجنائز.. اكسروا قواعد المجتمع.. لا تأبهوا للإنسان، فإن التردد على قتله خوف وذل وهزيمة.. أحذركم! سوف تهزمون في اللحظة التي تتهيبون فيها الموت.
أحس من نظراتهم الغريبة حيرة كبيرة، وقد استعصى عليهم فهمه، أشار للحارس على يمينه ليمسح عرقه الذي غسل وجهه، وسرعان ما عاد لانفعاله بصوت يتوددهم فيه:
- إنهم يخافون من الأصباغ.. تصيبهم بالذعر.. دعوها سوداء جارية.. ارفدوها بالكلمات حتى لا تنقطع.. إنهم يحسدوننا على كرامات منحت لنا.. وعلى قدسية الكلام الذي نتناوله بالأقداح الكبيرة!
ظل الجميع مشدوه نحوه بتعجب؛ كمن يحاول استيعاب شيءٍ ما، إلى أن خاطبهم:
-ألا تدركون ما أنتم عليه من نعمة وحياة؟! إن سكان البلدات الأخرى يئنون.. أرواحهم تستجدي الانتحار.. لكنكم أنتم بما أوتيتم من شرف عظيم.. وحظ كبير كوني كبيركم المقدس.. الأرض كلها لكم.. نحن نحب الموت أكثر من حب أعدائنا للحياة.. لقد حلت عليهم لعنة جعلتهم ينتحرون من الضيق والبلاء والكرب الذي يطاردهم! نموت نحن فرحاً وبشرى وتوقاً للسعادة والمتع الخالدة التي تنتظرنا.
صفق له الكثير منهم إثر ذلك وهتفوا باسمة حتى اهتزت البلدة، رفعوا سيوفهم وحرابهم وعصيهم،لم يتوقفوا حتى أشار لهم بإيماءة من يده.. تدافعوا بعدها وداسوا بعضهم البعض، في طريقهم إلى خارج البلدة للبحث عما يسد جوع بطونهم الخاوية، كانت مزارعهم خالية وقد تيبست وتشققت، والنهر تجمد بفعل الأصباغ السوداء، وجعلوا ينبشون خشاش الأرض بحرابهم وعصيهم، يأكلون الجذوع اللينة، والنباتات الرطبة، أكلوا الفئران والقطط والكلاب، قضوا على كل شيء حي.. لم يتبقَ سوى حجارة سوداء لا يستطيعون مضغها.
عادوا إلى البلدة منهارين.. ارتموا على أرضها..لم يعد الواحد منهم يتبين ولده أو عائلته، تفككوا منشغلين بأنفسهم، عرايا سوى من قطع قماش صغيرة تستر منتصفهم، شعورهم متشابكة، وأظافرهم طويلة، يستندون على حرابهم واضعين ظهورهم للشمس، وما زالوا على هذه

الحالة حتى أتى وباء حاد أصاب أدمغتهم أماتهم في أمكنتهم على الهيئة التي انتهوا إليها، بعضهم وهم مستندون على رماحهم، وبعضهم وهم واقفين، وبعضهم وهم نائمين يحلمون، لم يعد يعرف الميت من الحي، هبت رياح قوية، فرقت الميتين عن الأحياء، ذهبوا جميعهم إلى مقابر ضخمة،ضاقت بهم مساحات البلدة، فجعلوا مقابر أخرى حولها.

جاء مرسوم الحاكم الكبير يعلم من تبقى من الأرضيين الاستعداد للغزو، استقاموا جميعاً ومضوا يهتفون له ليس بهم صبر إلى غروب الشمس؛ فالجوع يفرض عليهم أن يتحركوا اللحظة، لكنه بعث بمرسوم لاحق بتقسيمهم إلى فرقتين، فرقة تخرج، وأخرى تستعد حتى تعود السابقة، فمضوا حاملين رماحهم وسيوفهم مشياً

على الأقدام، انحدروا من الجبال ودارت معارك شديدة،لم ينجُ منها أي من الذين ذهبوا، ثم قيل أنهم تساقطوا في الطرقات، لم يستطيعوا تحمل وعثاء السفر، وآخرون افترست أجسادهم بعض حيوانات الجبال، وآخرون وجدوا متيبسين من شدة البرد، امتلأت بهم المقابر، ثم جهز لفرقة أخرى، وزود كل واحد منهم بنسخة من المجلدات السوداء، خاضوا حرباً شرسة، ساعدتهم الأصباغ على الصمود، فكانت الغلبة من نصيبهم ،اجتاحوا المناطق الخضراء، تفيدوا كل ما فيها، وعادوا حفاة يحملون كل شيء إلى قصر الحاكم الكبير، أشاد ببطولتهم وشراستهم العظيمة، ثم أغلق على الغنائم باب قصره، وتركهم يعانون جوعهم السابق!

أصاب الجميع دوار ويأس، عاجزين عن فعل أي شيء، تلبسهم ذاكرة الأسماك، لم يعد أحد يتذكر كيف آل بهم الحال حتى وصلوا إلى هذا الواقع الكئيب، صاروا قليلين مقابل السماويين، وقد استهلكوا بالحروب والأوبئة والأمراض، وفتك بهم الجوع.. لم يتذكروا معه ما فعلوا بأنفسهم، وليس أمامهم طريق سوى الفناء.. فجأة انبعثت الكتب المطمورة في ثنايا القصور، وحدائق البيوت، والساحات، ونبتت على هيئة أشجار لها أغصان مدببة، تصطاد الأشرار منهم وتخنقهم حتى الموت، تضيء كلما دفنت أحدهم أسفلها، وحين أصطيد آخرهم، ظهر الكتاب والنساخ في صف طويل خارجين من معزلهم، سلكوا الطريق إلى القصر، تفتحت أمامهم الأبواب واحدة تلو أخرى، فتحوا مخازن الغلال للجوعى، وحين وصلوا إلى الحاكم الكبير، وجدوه وقد مات للتو مخنوقاً برائحة مجلداته السوداء المحفوظة في الخزينة أسفل سريره!

غسان خالد.

منزل العائلة

في الصيف، تُدق أبواب المدينة، و تُقرع طُبول الفزع.
قبل قليل **(25 MAR, 2015. 03:44:00 PM)**:
اقتلعني صخب هادر من نومي. فتحت النافذة المواجهة للبحر، كانت حشود كثيرة من الغربان تُحلق في السماء، و أخرى قادمة من جهة قلعة صيرة.. أغلقتها سريعاً. لم أكد أجلس على أريكة غرفة المعيشة المؤدية إلى سلم البناية، حتى باغتتني أصوات طرقات كثيفة ومتسارعة على الجدران الخارجية، مثل أن أتواجد خلف صفيحة معدنية، ومناقير الغربان تدق فيها.
بدأ المنزل يتمايل بي كسفينة مضطربة، دسست رأسي أسفل المخدة حتى استقر ما حولي؛ فوجدتني وقد تزحلقت إلى منتصف المكان، لم أصدق ما رأته عيني.. كانت النوافذ الثلاث مشرعة وزجاجها الملون منثور على الأرض، الحوائط مقشرة على هيئة تكعيبات فنية، الصور المعلقة تسربت من براويزها، صورة ابنتي مخدوشة في المنتصف، الدولاب الزجاجي ملقي بما فيه من بقايا هدايا وتذكارات، على حطام آلة البيانو التي تخص والدتي (الهندية الأصل)، صورة خارطة البلاد الصامدة تمزقت، وتفتتت بين بقايا المخلفات الجارحة.
من الشرفة شاهدت الشمس تَفِر نحو الغرب مخلفة قطعاً سوداء، تسيل كدموع الكحل على خد المدينة. مباني الحي تنز سائلاً أحمر من جروح فتحت ثانية، وسط صمت يشبه دوار البحر.
أنقذت في صندوق صغير بعضاً من الذكريات المبعثرة، صور العائلة، قصاصات الجرائد، ووضعته على طاولة منخفضة أمامي.
دافع غامض جعلني أرتدي فستان والدتي الأبيض.. سرحت شعري إلى الخلف، أحرقت بعض البخور، أشعلت شمعة، ثم ارتميت أمامها على الأريكة.. مع أول رشفة من الشاي الملبن تفتحت عيناي على نافذتين انفتحتا أمامي.. إحداهما على البحر، والأخرى تطل على مقبرة الحي، أراقب عبرهما تسلل الدخان العطري لطفولتي.
رحت أفكر في التفاصيل التي استهلكت عمري منذ ولادة ابنتي في يوم اجتياح المدينة صيف عام (١٩٩٤).
لم تكن تنقصني رائحة حرب جديدة، تذكرني بالأحلام المجمدة في القبو، والوقت الذي مضى في محاولة إيجاد السكينة، كنت قد أجلت إعادة ترميم البيانو، وعمل أشياء أخرى تحطمت في ذلك اليوم حتى تتخرج ابنتي من جامعتها في ألمانيا الاتحادية؛ ويترك المنتصرون الجزء المسلوب من منزلي، ويعود المشردون إلى أعمالهم، ويشرع المسرح أبوابه للجمهور، وأعرف مصائر الذين فقدتهم.
وحتى أستطيع التقاط وجود لذاتي، نزعت نحو الدقة في نمط يومي: أستيقظ كل يوم قبل ظهور الشمس، أتناول شيئاً خفيفاً، ألبس غطائي الأسود، ألوي شالاً على رأسي كيفما أتفق، تطل الشمس وأنا بالضبط خارجة من المنزل، أجتاز صفاً من منازل الحي الذي يعج بالغرباء، أنعطف يميناً نحو رمل البحر، أمضي بخطوات ثابتة في جوار سور طوق مساحة أرضية شاسعة، يرتطم الموج به من الجهة الشرقية.
في نهاية السور ألقي حقيبتي اليدوية أسفل زاوية قارب صيد مقلوب، كتب عليه بفرشاة طلاء وخط رديء: «هنا لا تنتهي مساحة أرضية الجنرال (أحمر عين)! أبصق على خيال عيونه الحمراء. أمضي أشق الماء بيديَّ إلى عمق البحر.
أعود ممسكة بسمكة من ذيلها، ألتقط حقيبتي، أسلك طرقاً ملتوية، كانت شوارع فسيحة قبل أن يستثمر عليها المنتصرون في الحرب محلات تجارية ومنازل للإيجار، أقترب من السوق الهندي، أرمي السمكة للكلاب الجائعة، تكون المحلات قد شرعت أبوابها للتو، أتحصل قيمة ما باعوه من العطور والبخور ومستلزماتها التي أصنعها وأعيش من ربحها، أعبر الدروب الضيقة إلى المنزل، وأنا أجر عربة خلفي بها احتياجاتي اليومية، أحدث الحجارة والأسوار، أحاول التعرف عليها، يمس روحي شيء غامض، أكون أكثر صفاءً قبل استيقاظ ضوضاء المنتصرين وأحاديثهم التي تستثنيني، سلوكي هذا جعلهم يعتقدون بجنوني، ذلك أشعرني براحة كبيرة .. أتوقف بالعربة أمام المنزل، يتقدم مشرد يسكن خيمة على الرصيف المقابل، ينتظر حتى أصعد طبقتيّ منزلي المستولى عليهما إلى الدور الثالث، أطل من الشرفة، أنزل دلوا مربوطاً على خيط بكرة مريحة يضع الرجل فيها الأغراض. هنا ينتهي يومي في الخارج قبل بدء يوم الآخرين.
في الضحى أطل من الشرفة، أنزل الإفطار بالدلو للرجل، ثم أجلس للأكل قرب نافذتي المشرفة على البحر.. أستمع لنشرة أخبار الصباح. أبدأ عملي على حماس الأغاني الهندية. بعد تلميع المنزل كاملاً ، أضع المبخرة على النافذة المطلة على المقبرة. أنهمك في تركيب العطور، وطبخ مواد البخور، أنام حتى وقت ما قبل العصر، أستيقظ والرجل ينتظر أمام خيمته على الرصيف المقابل، أنزل له البضاعة بالدلو، ويقوم بدوره بإيصالها إلى السوق.
في هذا التوقيت من كل يوم، أكون قد بدأت طقوس ما بعد العصر بشكل روتيني، وهي طقوس المدينة التي كانت تمارس قبل تغريب عاداتها. لكن هذا اليوم مختلف، اصطدمت الطقوس برائحة جدار من اللهب، ووقعت بين ركام ذكريات نجت في مرات سابقة، حتى استقرت في صندوق صغير أمامي، أشعل تفاصيل سريعة ومنتظمة من الماضي.

صورة من حفل زفاف والديَّ مكتوب عليها بلغة انجليزية وبخط عادي: (حفل زفافنا.. كريتر.. عدن ١٩٥٩، التقطت بواسطة مستر راجي).
أقيم الحفل قرب الأمواج، في المكان الذي سوَّره «أحمر عين»، التقطت الصورة من الأمام، تجلس والدتي خلف البيانو تعزف للحضور، ووالدي بجوارها، ومن خلفهم البحر، ذلك المكان الذي كانت تقام فيه الاحتفالات، ويخيم العشاق على رمله لعدة أيام.
وفي صورة أخرى أكثر وضوحاً، بدأ الساحل مزيناً بالمصابيح المضيئة، توزع الرجال والنساء حول الطاولات الدائرية على جنبات المكان، في المنتصف يظهر العروسان، يصفقان إلى الأعلى، يطوف أصدقاؤهم حولهم برقصة دائرية، وعلى مصطبة قريبة تعزف وتغني عليها فرقة عدن الشابة الصاعدة حينذاك.
قبل صور الزفاف المبهجة، وفستان والدتي الأبيض، جمعتهما معاناة مشتركة، جدي لوالدي كان تاجر مواشي في الحبشة، قُتل وجدتي الحبشية في ظروف غامضة، جمع ولدهم الوحيد ما تبقى من أموال ومجوهرات وعاد إلى عدن، اشترى بكل ما يملك هذا المنزل من ضابط إنجليزي.
كانت عائلة والدتي قد قدمت منذ زمن من الهند، وعبر كفاح طويل، أسسوا وكالات تجارية صيرتهم أثرياء، ولأن والدتي كانت بنت العائلة المحبوبة فقد تلقت تعليماً جيداً، وجلب لها والدها من إحدى جولاته الأوروبية آلة بيانو، وانتدب مدرساً فرنسياً علمها العزف عليه، ذلك لم يستمر لها طويلاً، فقد وقعت العائلة في مكيدة الطامحين إلى سلب وكالاتهم، أبطالها مجموعة من الإنجليز من ذوي السوابق، وصلوا منفيين إلى مستعمرة عدن. في أحد الأيام قضت العائلة في حادثة بحرية مدبرة، نجت منها والدتي فقط، وبعد انتهاء مراسم حرق الجثث استيقظت على طرق عنيف من قبل الشرطة الملكية لمستعمرة عدن تأمرها بالإخلاء الفوري للمنزل، وتسليمه لمالكه الجديد! شاءت الصدفة أن يكون والدي الذي أقنع والدتي بالبقاء في منزلها.
أخذتني إلى أجواء قريبة من قلبي صورة جانبية لي حينما كنت طفلة في السنة الأولى كما هو مدون عليها، جالسة على ظهر البيانو تظهر يد والدي وهي تسندني من الخلف، و أتبادل النظرات مع أمي وهي تعزف لي مبتسمة. لم تحتفظ ذاكرتي بأحداثها. لاحقاً عرفت أن والداتي في ذلك اليوم لم تذهب إلى العزف على البيانو في فندق الملكة إليزابث، منعها حادث عرضي. في الليلة التي سبقتها تسلل شخص غريب إلى المنطقة المحظورة حيث يتناول الضباط الإنجليز عشاءهم ونجح بالهرب بعد طعن ثلاثة منهم.

صورتي وأنا في سن الثالثة. صورة سريعة. كنت في حضن والدي وقد سقطت مني فردة حذاء وشعري مربوط على عجل إلى الأعلى مثل نافورة كسلى، ترتدي والدتي الساري الهندي وقد فرقت شعرها إلى جديلتين، أتذكر أن والدي حكى لي تفاصيل ذلك اليوم؛ فقد كان يوم عيد الأضحى المبارك، وقد استَعجلنا فجأة الخروج لالتقاط صورة تذكارية عائلية في أستوديو مستر راجي (هندي الجنسية) الصورة غائمة، لكنني سألته في وقت آخر عن الرسالة السرية التي وضعها مستر راجي في جيبه، إلا أنه ينكر أنه أخبرني بذلك! ويعتقد أن هذا الحدث من ضمن أحداث كثيرة، أدخلها خيالي في السنوات اللاحقة.
صورة أخيرة لي مع والدتي التقطت في الشهر الذي اختفت فيه-تقريباً - إذ وردتها مكالمة عادت على إثرها إلى وظيفتها في فندق الملكة إليزابث، ولم تعد إلى المنزل.
عشت بعد ذلك في ذاكرة صورها وتفاصيلها المتخيلة. في اليوم الذي جاء فيه والدي وأنا غارقة في صور زفافهما، أخبرني أنه انتقم لها. لم يكن يعنيني ما يقول ولم أرغب في استبعاد ألفة الحياة بين أشيائها. في ذلك العمر كنت أقضي نهار الأسبوع مع إحدى المربيات، حتى يعود والدي من عمله في دار السينما الأهلية.
صورتي في أول يوم لي في المدرسة الداخلية، أجلس في مقدمة المقاعد؛ بينما المعلمة اللطيفة تطبع قبلة على خدي. في ذلك اليوم أوصلني والدي بالسيارة مع صديقه، والتقط مستر راجي الصورة ثم ذهبا.
صورة أخرى عَلِقَت في خيالي، في ذكرى عيد الاستقلال مع مجموعة من زهرات المدرسة كنا قوام فرقة الإذاعة، قدنا استعراضاً مبهجاً في الحفل.
لازالت حرارة التصفيق تلمع في خيالي حتى اللحظة، في مساء ذلك اليوم عدت إلى المنزل؛ فوجدت غرباء يسكنون الطابقين الأول والثاني.
لم أكن أعرف حينها ماذا تعني مفردة تأميم. لم أرَ والدي حزيناً أو أنه يستطيع إبقاء الحزن في الداخل. كانوا جميعاً يقابلونني بلطف. تركت المدرسة الداخلية، وعشت معهم.
خطفتني صورة إلى ذلك الوقت الذي كان يأخذني فيه والدي مساء كل سبت إلى مسرح الأكروبات.. أصعد خيال والدي.. أتحمس حوله.. وأبتلع دهشتي، في كل مرة أعود إلى البيت أنط على سريري.. أستعيد تلك الحركات بخفة خيال طفل مسجون في جسد لا يطاوعه!
تدخلني صورة أخرى إلى جنون الطفولة، إذ افترش كل سكان منزلنا الرمل.. مضيت أنا ألعب مع صديقاتي، وحين ابتعدنا قليلاً منهم جرنا الجنون نحو الأمواج .. حملتنا موجة إلى البعيد.. لا أعرف كيف عدت.. أتذكر تلك اللحظة التي تفتحت فيها عيناي على ملامح والدي. في ذلك اليوم انقطعت علاقتي بصديقاتي، حيت أخبرتهن أنهن يسكن في منزلنا، الذي اشتراه والدي بمال ورثه عن جدي، سرقت الدولة جزءً منه ومنحته لهم. قالت إحداهن: والدي ليس لص منازل. دفعت ثمن شقاوتي بتوبيخ حاد من والدي، الذي كلفه ذلك اعتذاراً في حضور الجميع

حتى لا يكلفه ذلك عقوبة كبيرة.
قصاصة من جريدة.. أظهر فيها وأنا أمسك المضرب في ملعب نادي التنس.. وصورة بجوارها وأنا أقفز به عالياً وأضرب الهواء.. كانت هذه الحركة هي احتفاليتي الخاصة بالفوز.. فقد فزت بكأس شهداء الثورة. في اليوم الثاني أتى والدي بالجريدة.. قصصتها وعلقتها حينها.. أغبرت الصورة.. وذهبت رائحة الحبر الذي كان يطربني عند استلام كتاب أو مغلف جديد!
وقع نظري على صورة تكاد تهترئ من الحواف مع شقوق تتخللها إذ رممتها كثيراً. كنت مع مجموعة من فتيات ثانوية البنات، بملابسهن الأنيقة مجدولات الشعر من اليمين، أنا ثم عالية (قارضة الكتب) التي أصبحت -فيما بعد- وزيرة للثقافة، وبجانبها فتحية التي اعتزلت الفن مبكراً، وبجانبها سمر التي انتهت حياتها عاملة في محالج القطن، تلاصقها نادية مسئولة السلامة في مصفاة النفط، وفي يسار الصورة فتاة المواقف الجريئة صابرين التي عملت برتبة ضابط في الجيش.
أمعنت النظر في صورة التقطت لي على المسرح في بدايات ممارستي العمل، كنت قد عدت للتو من الدراسة في بولونيا، حاملة شهادة تخصص في المسرح. شابة ثورية أحلامها. كنت أحب ارتداء التنورات الكحلية القصيرة، والقمصان البيضاء، وانتعال الأحذية المرتفعة. ابتسامتي عالية. وبالقرب مني يقف غانم رئيسي صباحاً في هيئة المسرح، ويعمل تحت إشرافي كممثل مسرحي في المساء.
صورة لي على الشاطئ مع طاقم مسرحيتي الأولى، كنت سعيدة جداً بنجاحي الأول، يظهر غانم وهو يحرك عيونه نحوي من طرف الصورة إلى الطرف الآخر.. بخفة ابتسامته المعهودة، لم أكن أتخيل أنه سيكون زوجي، ثم تغرُب ابتسامته وتختفت إلى الأبد.
لازال القلم يرتجف في يدي مذ مرت عليَّ ذكرى ذلك اليوم الدامي، الذي حدثت فيه مواجهات ثقيلة في الشوارع بعد انقسامات حادة في رأس السلطة.. في ذلك اليوم لم يعد والدي من عمله الذي غلفه بسرية تامة، ولم يرجع أحد من الآباء في البناية، في المساء كان غانم مختبئاً هنا، إذ أنقذه خروجه من مبنى الاجتماع للتدخين، من تصفية مؤكدة. لاحقا فُصل من عمله في هيئة المسرح، واستمر يعمل كممثل مسرحي.
شردت طويلاً في صور حفل زفافي، كانت الذكرى في اليوم الذي توحد فيه شطرا البلاد، احتفل معي شعب بأكمله، ارتديت فستاناً أبيض بلون العلم الجديد، ورقصنا في الميدان القريب من المنزل الذي احتلته العمارات الجديدة.. ورقص الجميع على أغاني الفرح.. زغردت النساء، علقن المباخر على النوافذ، ورمين أزهار الفل إلى الشوارع، في ذلك اليوم تخيلت والدي قادماً بربطة عنق جميلة، وفي جواره والدتي، ترتدي فستاناً يشبه فستان زفافها، يدحرجان بأقدامهما قطعة حلوى ضخمة تكفي سكان المدينة بأسرها.
بحثت عن صورة مع زوجي، التقطها بعض الأصدقاء لنا خلسة بعد زواجنا ببضع سنوات، وقبل بضعة أيام من ولادتي لابنتي لينا واختفاء غانم، كنت أخطو على رمل البحر مستندة عليه، ونفكر بمستقبل الطفل الذي يقبع في أحشائي.
لازلت أتذكر التفاصيل كأنها حدثت البارحة. بعدها بأيام جاءني فيها مخاض الولادة، وقد صادف لحظات اجتياح المدينة عسكرياً في حرب الصيف الأولى، كانت الاشتباكات تدور في الشوارع بكل أنواع الأسلحة والعتاد. المنزل يرتعد، الخوف يسيطر على كل الأماكن، رائحة الموت تنفذ إلى الأرواح.
كان زوجي متردداً بين خيارين وهو يحاول الخروج لإحضار قابلة توليد، وقد تعذر الذهاب إلى المستشفى، أضطر للخروج - على غير رغبتي- وقد كان خروجه طويلاً، لم يعد منه حتى اللحظة. وبدافع من الخوف وقلق الانتظار، أطلقت طفلتي، تجاسرت وقطعت الحبل السري، ثم جهزت الطفلة، وجهزت نفسي استعداداً لعودته والهرب معاً، في تلك اللحظة اقتحم الغرباء البيت، صادروا مجوهراتي، حتى أنهم نزعوا خاتم الزواج من يدي، فتشوا عن أشياء أخرى في كل مكان، وفي طريق مغادرتهم عادوا ليجهزوا على المكتبة، نثروا الكتب كلها على الأرض، أطلقوا الرصاص على إطارات تذكارية تخص المدينة، أزاحوا البيانو من مكانه إلى الأسفل ومضوا يحطمونه بأقدامهم وأعقاب بنادقهم ورحلوا.
اتخذت قراراً سريعاً من أجل حماية ابنتي، كتبت عنوان وجهتي وتركته على الطاولة؛ بالرغم من صوت متكرر يدوي في رأسي: غانم لن يعود! غبت سنة وأزيد قليلاً في الضفة الأفريقية من البحر. وحين عدت وجدت المنزل قد احتل المنتصرون طابقاه الأول والثاني. ولا أعرف أين ذهب الساكنون القدامى. وبعد تفاوض طويل معهم، وبناءً على تدخل الملازم (أحمر عين) تم منحي الطابق الثالث فقط رحمة بالطفلة كما برر للجميع.
صعدت إليه، كان الغبار يغطي كل مكان، والأشياء على الأرض كما نثرت آخر مرة رأيتها فيها، مع آثار إطلاق نار على الجدران، وعبث كبير في الغرف الداخلية، ربما كان المنزل مسرح مطاردات بعض العسكريين الذين فروا إلى المنازل الفارغة. نظرت من النافذة المشققة نحو الجزء المرئي من المدينة، كان الوقت آخر ساعات العصر، وملامح البؤس طاغية. لم أسمع أصوات الأغاني العدنية المعتادة تمرح في الشوارع القريبة، لم يعد هناك أناس يراقبون قرص الشمس وهو يسقط خلف المياه الفضية، الكهرباء مقطوعة، والمياه منعدمة. تغيرت كل الأشياء من حولي، في ذلك اليوم لم أفهم هل المدينة غريبة علي؟ أم أنا غريبة عنها؟! كأن المدينة التي أعرفها تلاشت، وأتت نسخة مزيفة وحلت محلها.
حملت طفلتي كسنجابٍ أم، نزلت إلى الشارع أبحث عن ماء وشموع وحليب الأطفال. كدت أضيع في حي ولدت وكبرت فيه! في السابق لم

تكن البيوت متجهمة إلى هذا الحد، كان الناس يميلون نحو المزاح والضحك. صدمتني الأسعار الخيالية، مبلغ المال في حقيبتي لم يعد كافياً لدفع سعر السلع البسيطة. رفض البقال إمهالي حتى أتمكن من النزول مرة أخرى.. «حين تعودين ستكون الأسعار قد تضاعفت». تعهدت له بدفع الفارق. انفرطت منظومة الدفء دفعة واحدة. لم يهتم أحد بأمر أم تحمل طفلتها وأشياء أخرى فوق طاقتها. في تلك اللحظة و أنا أخطو عتبة الباب إلى الداخل، ارتميت بثقل حسرة كبيرة، وقد أدركت أنه تم سرقة أجمل التفاصيل التي كانت قد بدأت تنمو في هذه المدينة، وتلبستها رائحة الأسماك النافقة. لم يتبقَ فيها أثر يدل على وصفها الشهير»درة التاج البريطاني».
في هذا التوقيت نفسه صارت المدينة تنام كل يوم، خوفٌ وقلقٌ احتلا شوارعها. على لهب شمعة قمت بتنظيف المكان، أحكمت إغلاق الباب، ووضعت خلفه طاولة خشبية كحماية ثانوية، غطيت النوافذ بقطع فساتين والدتي، وألبست طفلتي فستان طفولتي، هكذا نمت وكبرت في ملابسي، التي احتفظت بها كذكرى خلال مراحل حياتي.
في الصباح الذي أجبرت فيه على حمل طفلتي، والذهاب إلى هيئة المسرح، وجدت الشوارع قد تغيرت أسماؤها، وتبدلت مساراتها، انقلب حال الناس، تحولت ملامحهم إلى الشحوب واليأس، بهتت ألوان ملابسهم، طال شعرهم، اغبرت الأحذية في نقاع رمل الشوارع التي يعبرونها سيراً على الأقدام. كلما دنوت من أحد المارين لأسأله عن صيغة العنوان الجديد للهيئة، يهش اقترابي بيده: «الله يعطيك»! لازلت أتذكر حديث سائق سيارة الأجرة، وهو يتحدث معي بحسرة عن دور السينما والمسارح التي أُقفلت، ومتنفسات المدينة وأماكنها المهمة التي طالها الخراب، ومنازل المواطنين والمسئولين السابقين، التي طردوا منها واحتلها متعاونون ومسئولون جدد!
حين دخلت الهيئة، بدا لي كل الناس غرباء.. كل من أعرفهم لم أعرفهم بملامحهم وتصرفاتهم الجديدة! خرجت منها كما دخلت. عدت بحسرة وضياع كبيرين، كل لحظة كانت تمر ثقيلة عليَّ، بحجم التفاصيل الكثيفة التي كنت أفتقدها للمرة الأولى، بطريقة لا تترك لي مجالاً للتفكير بفقدي لزوجي. أو بالأحرى، أين أسأل عنه في مدينة غريبة؟! تغير كل شيء فيها تماماً، حتى صوت المذياع تواطأ ضدنا، لم ينفك عن التذكير بتفاصيل افتقدتها، حتى الطقس نَزع نحو عواصف ترابية غير معهودة!
فهمت سريعاً أنه عليَّ نسيان ممارسات الحياة السابقة، حضور السينما وحفلات الغناء.. جوع البطن ينسينا جوع العقل والروح.
أنقذتني حرفة تعلمتها قديماً في أحد المراكز الصيفية، صناعة العطور والروائح الجميلة مهنة أقتات منها للعيش. صار بابي ينغلق بإحكام، ونوافذي أفتحها حتى يتسرب منها بعض القلق فأغلقها.
خبأت أحلامي في القبو، وتصالحت مع المستقبل؛ فلم أعد أتوقع منه أشياء جيدة. نجحت بالتحرر مما يلوي عنقي، وقد اعتقدت أنه لم يعد هناك شيء يمكنني خسارته، حتى حان وقت دخول ابنتي المدرسة.. تقدمت المعلمة المعنية بتسجيل التلاميذ الجدد، تسألني إن كنت أعرف من هو والد طفلتي؟! تعاملت مع الأمر كسلوك شخصي مرتاب من معلمة غير مدركة لطبيعة عملها. لكن هذا السلوك كان قد امتد إلى أماكن كثيرة.
عجزت عن إيجاد مدرسة تتعلم فيها ابنتي وهي لا تملك شهادة ميلاد، وهويتي ضائعة، وهوية والدها اختفت معه. رحت أبحث في مدينة غريبة، كل شيء فيها قد احترق، عن اسم لوجودي المجهول، وبعد إصرار يومي، طُلب مني معرفان شخصيان، فتشت في وجوه الناس كثيراً عن ملامح تدلني على خيط معرفة سابقة، لكن ملامحهم تغيرت، لهجة المدينة سجنت، أرشيف الإذاعة احترق في ذاكرة العاملين، تتبعت اسماً عثرت عليه بالصدفة عبر خيط دخان يذهب ويعود، حين وصلت إليه كان مرض الزهايمر قد سبقني إليه! تهت في العناوين المتغيرة، والأسماء بالألقاب الجديدة، وشك البعض أن أكون مخبرة شابة اختارت العمل بسلاح عاطفة الأمومة. حملت إليهم قصاصات الجرائد التي تحوي صورتي واسمي لكن ملامحي كانت قد محيت أيضاً! ولم يَعُد لي صلة بها. حتى دلني مشرد في الرصيف على النظام الجديد. دسست نقوداً ورقية من الفئة الجديدة في جيب الموظف المعني، نجح الأمر! لكنني اكتشفت أمراً لا يمكن أن يحدث مرة أخرى، كانت طفلتي بلا اسم أيضا.
الآن **(25 MAR, 2015. 09:22:53 PM)** :
أحاول الفكاك من سطوة ذاكرتي التي تناثرت من صندوقها وسالت على الورق. تتداعى حدة الانفجارات المتلاحقة. ضغطها الشديد يفتح الباب أمامي. لا أصوات لبشر في الحي حتى هذه الثانية، لم أشعر بهروب الناس، و لا فزع الخوف في أصواتهم، كأن البيوت ابتلعتهم.
يدوي الآن انفجار آخر هو الأقوى والأعنف. النوافذ أمامي تؤدي إلى كتلة من اللهب. جدران المنزل تمتد تشققاتها وأنينها إلى جوف صدري. حتى اللحظة لا يتوفر لديَّ دافع يكفي لحملي على الهرب. لا أفهم بشكل واضح الدافع وراء كتابتي هذا، وفي هذا التوقيت المريك، وعلى ضوء لهب الشمعة الخافت، يجدر بي أن أقول شيئاً سقط إلى ذاكرتي للتو؛ عشت حياتي مصدومة بالأحداث الكبيرة، أو أنها أتت فوق مستوى قدرتي على التنبؤ، الأمر متروك لكم. هي لعبة خفية، يحركها لاعب متخفٍ لن أترك له هذه المرة فعل مفاجأتي! سألعب لعبتي على الورق، و سأحرمه من نشوة المباغتة، وأتنبأ بما سيحدث:
بعد قليل **(25 MAR, 2015. 00:00:00 PM)**:
سوف تقرأ ابنتي الأخبار المنهمرة على مواقع التواصل الاجتماعي.. سوف تحاول الاتصال بي.. شبكة الهاتف والإنترنت منعدمة، وتيار الكهرباء

منقطع. سوف تجرب أرقاماً أخرى، لن تحصل على إجابة. ستخف حدة الاشتباكات، وستتوقف الانفجارات، ستلفظ البيوت المنتصرين الذين زيفوا الحياة في صيف مضى، سيهلع الجميع، ويرتبك كل الآباء، وستخاف كل أم على صغيرها. سيتركون الأبواب مفتوحة خلفهم.
سيجد المنتصرون والمهزومون والمشردون أنفسهم جميعاً يستخدمون شارعاً واحداً للهرب، ستتساوى أقدامهم وجيوبهم، سيسألون أنفسهم نفس الأسئلة: لماذا وإلى أين سنفر؟ سيضطرون إلى التحديق في وجوه بعضهم، سينتبهون أنهم غرباء عن بعضهم البعض، بطريقة ما لن يستطيعوا التفريق بين المشردين والمنتصرين السابقين والجدد.
وبعد اختفاء أصوات الفارين وخفوت ضربات أقدامهم.. ستدفعني ريبة صمت مخيفة إلى التقاط صندوق ذكرياتي وأحلامي المجمدة والنزول سريعاً عبر السلالم والعدو وحيدة في شارع مظلم، على ما توفره الحرائق المشتعلة في بعض المحلات والبيوت والعربات من ضوء. ستحجب الأدخنة المتصاعدة رؤية كافية أمامي.. سوف أسقط في أحد الحفر العميقة التي استحدثها آخر المنتصرين في قلب الشارع!!

غسان خالد.

ROMOOZ FOUNDATION

BRITISH COUNCIL